





الخلافة الإسلامية

المستشار محمد سعيد العشماوي



الخلافة الإسلامية

الخلافة الإسلامية

المستشار محمد سعيد العشماوي

الطبعة الثانية : ١٩٩٢

الناشر : سينا للنشر
المدير المسؤول : راوية عبد العظيم

١٨ شارع ضريح سعد ـ القصر العيني ـ القاهرة
جمهورية مصر العربية ـ تليفون : ٣٥٤٧١٧٨/٢٠٢

الغلاف : عماد حليم

الاخراج الداخلي : إيناس حسني

الصف : سينا للنشر



المستشار محمد سعيد العشماوي

الخلافة الإسلامية

سينا للنشر

مقدمـــة الطبعـــة الثانيـــة

أثناء التخطيط لهذا الكتاب ، وخلال التحضير له ، وعند كتابته ، كنا نعرف المخاطر الناجمة عنه ، ونحسب ردود الفعل التى سوف تنتج منه ، وإلى ذلك أشرنا فى مقدمة الطبعة الأولى .

* فقد تحرى الكتاب أساساً أن يركن إلى الصدق فى القول ، والأمانة فى العرض ، والنزاهة فى التقديم ، والموضوعية فى التقدير؛ وهذه كلها أمور تصدم من لا يتحمل الحقائق ، وتهز من لايتقبل الواقع ، وتزلزل من يعيش فى الأوهام ، وتصدّع من يقيم فى الأحلام .

* وقد تعرض الكتاب للتاريخ الإسلامى ، بإعادة التركيب والبناء والصياغة. والتاريخ الإسلامى يرتبط عند بعض الناس بالإسلام دينا ، وهو فهم خاطئ وخلط سيئ ، لأن تاريخ الدين غير الدين نفسه ، وقد يشذ التاريخ أو يسوء أو يضطرب أو يتخذ مساراً مخالفاً للدين ذاته ، غير أن ذلك لايشوب جوهر الدين ولا يسئ إلى لب العقيدة ، إلا عندما يقع الخلط ويحدث الاضطراب ، فيجرى الفهم - خطأ - على أن التاريخ هو الدين وأن الواقعات هى العقيدة .

من أجل ذلك ، فإن الخلط الواقع عند كثير من الناس ، والاضطراب الظاهر فى فهمهم، لابد أن يدفعهم إلى موقف خاطئ ، وربما كان عنيفاً، ممن يحاول أن يرفع الخلط أو يزيل الاضطراب.

* وقد تناول الكتاب التاريخ السياسى للإسلام ، والسياسة منطقة خطرة ومجال وعر ، خاصة وأن ثمة تياراً يتخذ من السياسة فى الدين تجارة ومن التحزب بالشريعة رزقاً ؛ فإن دخل أحد منطقتهم أو اقتحم عليهم مجالهم ، ثارت ثائرة المصالح وقامت قيامة الأرزاق ، وإن تغلفت بالدين رءاءاً ، أو تدثرت بالشريعة رياءاً .

لكل أولئك ، فإن ظهور هذا الكتاب أحدث زلزالاً عنيفاً وفجّر بركاناً عاتياً ، ظلت آثارهما تمتد وتنتشر وتصدّع وتدوّى لفترة طويلة ، ولعلها تطول وتزداد مع الوقت .

ولو أن ما جاء فى الكتاب ليس هو الحق الذى لاشبهة فيه ، لووجه الكتاب ببيان الحقائق وجلاء الحقيقة !

ولو أن ما نشر فيه ليس هو الصحيح الذى لامراء فيه ، لقوبل بنقد حر نزيه ، يفنّد أفكاره ويقوض آراءه ، بالحجج الدامغة وبالأدلة القاطعة!

لكن ذلك أو ذلك لم يحدث ؛ وإنما هوجم الكتاب بضراوة غير علمية وغير أدبية ؛ بدا منها أن من هاجم يريد الهدم لا النقد ، ويرمى إلى التحطيم لا إلى التقويم ، ويخاف على نفسه ولا يغار للحقيقة ، ويخشى على مصالحه ولا يبحث عن الصواب . وظهر من الهجمة الشرسة أنه لايمكن نقد الكتاب إلا بعد تشويهه وتحريفه وتزييفه ، وتخطف سطر دون استكمال الفقرة، وانتزاع جملة بلا عودة إلى المراجع ، واجتزاء فكرة بغير تتبع التوثيق .

وإذا كان ذلك يقطع بإفلاس النقد ، فإنه يقطع فى نفس الوقت بقوة الكتاب وما جاء به ، وسلامة التخطيط وما هدف إليه .

ويقول قائل : كيف يضطرب أناس من الحق ولا يضطربون من الزيف!؟ لم يتزلزل البعض من الصواب ولايهتزون من الخطأ ؟

ويحتج مُحتج : لماذا تُجرح مشاعرُ حين تعرف الحقيقة ولاتدمى إن عاشت على البهتان ؟

ويسأل سائل : كتاب فى التاريخ .. لم يُحدث كل هذا الضجيج !؟

والجواب على كل هذا يكمن فيما جاء فى الكتاب من أن الأمة التى تصاب بفصام الشخصية هى هذه الأمة التى تختلط فيها المعايير بين الحق والكذب ، وتضطرب فيها الموازين بين الصواب والخطأ ، وتهتز فيها المقاييس بين الواقع والخيال .

إن هذا الكتاب قصد أن يكون شمعة تبدد ظلاماً دامساً محدقاً ، وخطوة فى سبيل علاج فصام الشخصية الذى ابتُليت به الأمة ، حتى تشفى مما ألمّ بها فتستطيع أن ترى بوضوح ، وأن تميز الحق وأن تنتهج الصواب ، وأن تلتزم الصدق ، وأن تحيا فى الواقع .

وكل ماحدث من ردود أفعال - وما سوف يحدث - إزاءه ، دليل على نجاحه فيما قصد ، ورسم ، وخطط ، واستهدف .

***

ولا يمكن لهذه المقدمة أن تكتمل دون أن تعرج على ماوقع نتيجة

للزلزال العنيف الذى أحدثه الكتاب - وغيره من كتبنا - فى نفوس المعارضين ، والبركان العاتى الذى نتج عنها فى تصرفاتهم وأعمالهم .

ففى يوم الثلاثاء ٧ يناير ١٩٩٢ اتجهت لجنة من مجمع البحوث الإسلامية (وهو أحد هيئات الأزهر) إلى مقر دار سينا للنشر ، بمعرض القاهرة الدولى للكتاب ، وأوقعت التحفظ على خمسة من كتبنا ، بدعوى أنها مصادرة .

وهذه الكتب هى : -

١ - أصول الشريعة ، وقد ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٧٩ ، وظهرت طبعته الثالثة سنة ١٩٩٢ ، وترجم إلى اللغة الإنجليزية .

٢ - الإسلام السياسى ، وقد ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٧ ، وطُبع أكثر من طبعة فى مصر وخارجها ، وترجم إلى اللغتين الفرنسية والإنجليزية .

٣ - الربا والفائدة فى الإسلام ، وقد ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٨ ، وترجم إلى اللغة الإنجليزية .

٤ - معالم الإسلام ، وقد ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٩ .

٥ - الخلافة الإسلامية ، وقد ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٩٠ ، (وهذه هى طبعته الثانية) .

أى أن هذه الكتب الخمسة ، كانت عند صدور قرار المصادرة ، مطروحة فى الأسواق منذ فترات تتراوح بين ثلاثة عشر سنة وسنتين .

ولم تُبرز اللجنة أى قرار بالمصادرة ، أو تذكر مضمونه ، أو تبين تاريخ صدوره ، أو تحدد أسباباً له .

ونظراً لوقوع المصادرة ، بأسلوب عنيف وظاهر ، فى معرض الكتاب الدولى ، فقد سرى نبؤه بين الناس وفى المجتمع سريان النار فى الهشيم ، فتناقلته وكالات الأنباء المختلفة وأذاعته فى كافة أنحاء العالم .

فى مساء الجمعة ١٠ يناير ١٩٩٢ وصباح السبت ١١ يناير ١٩٩٢ والت محطات الإذاعات العالمية - بالعربية وبغير العربية - نشر الخبر أكثر من مرة .

وفى نفس اليوم أدلينا بأحاديث إلى جريدة الأهالى (ظهر فى عدد الأربعاء ١٥ يناير ١٩٩٢م وإلى مجلة المصور (ظهر فى عدد الخميس ١٦ يناير ١٩٩٢) وفيها ذكرنا ما يلى:-

أولاً - أن الذى يحكم نشاط الأزهر هو القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التى يشملها ، ولائحته التنفيذية الصادرة بقرار رئيس الجمهورية رقم ٢٥٠ لسنة ١٩٧٥ . هذا القانون لايخول الأزهر ، بكل هيئاته ، أى حق فى مصادرة أى كتاب أو أى عمل فنى ، وكل مالمجمع البحوث الإسلامية - أحد هيئات الأزهر - هو «تتبع ماينشر عن الإسلام والتراث الإسلامى من بحوث ودراسات فى الداخل والخارج للإنتفاع بها وبما فيها من رأى صحيح أو مواجهتها بالتصحيح والرد» (الفقرة السابعة من المادة رقم ١٧ من اللائحة التنفيذية المنوه عنها) . أى أن صميم عمل مجمع البحوث الإسلامية ليس مصادرة الكتب ، لكن مواجهتها بالتصحيح والرد . فالكتاب يرد على الكتاب ، والبحث يفنّد البحث ، والمقال يناقش المقال .. وهكذا .

وعندما صدر كتاب الشيخ على عبد الرازق « الإسلام وأصول الحكم» سنة ١٩٢٦ لم يطلب الأزهر مصادرته ، ولكن تصدى له شيخ الأزهر آنذاك الشيخ محمد بخيت المطيعى وأصدر كتاباً يرد عليه عنوانه « حقيقة الإسلام وأصول الحكم » .

ثانياً - حق مصادرة الكتب ، وفقاً للنظام القانونى المصرى ، منوط بجهات ثلاث فقط :-

أ - رئيس الجمهورية ، عملاً بأحكام القانون رقم ٦٢ لسنة ١٩٥٨ بشأن حالة الطوارئ ، ونظراً لإعلان حالة الطوارئ فى مصر بتاريخ ٦ أكتوبر سنة ١٩٨١ واستمرار سريان العمل بها .

ب - مجلس الوزراء - بأجمعه - طبقاً للمادة العاشرة من القانون رقم ٢٠ لسنة ١٩٣٦ بشأن المطبوعات .

جـ - محكمة جنائية مختصة ، بعد إجراء محاكمة ، وبعد صدور حكم نهائى بالإدانة .

ثالثاً - أن سبب مصادرة كتبنا - فى هذا الوقت - وبعد مرور وقت طويل على نشرها ، أمر غير مفهوم؛ غير أنه من المحتمل أن يكون بعض رجال الأزهر قد وقعوا فى حبائل جماعات الإسلام السياسى ، أو أنهم يغازلون هؤلاء ، فصدعوا لطلبهم بمصادرة كتبنا جملة ، بل ومصادرة إسمنا؛ خاصة وأن كتاب « الإسلام السياسى » كان قد نشر فى الجزائر بواسطة الحكومة الجزائرية لمحاربة جماعات الإسلام السياسى فيها

بمقتضى ماورد به من أفكار وآراء، وقد كانت الجبهة الإسلامية للإنقاذ على وشك الوصول إلى السلطة فى الجزائر .

لقد أراد الإسلام السياسى أن يستعمل الأزهر فى مواجهتنا ظناً منه أن وضع هيئة دينية موضع المخالف لآرائنا مما يخدم أهدافه هو فى محاربة هذه الأفكار التى تقوض أبنيته شيئاً فشيئاً .

رابعاً - إننا ندعو إلى مناظرة علنية ، فى التليفزيون ، وعلى الهواء، مع شيخ الأزهر ، المسئول قانونياً وأدبياً عن الأزهر ، وعن المصادرة ؛ ليوضح لنا أسباب مصادرة كتبنا ، ولنرد عليه على الفور ، بالمراجع العلمية التى استندنا إليها وبالأدلة الشرعية التى توصلنا إليها.

وفى مساء الاثنين ١٣ يناير ١٩٩٢ أذاعت محطة إذاعة عالمية (باللغة العربية) مجمل حديثنا .

وفى ذات المساء أصدر السيد رئيس الجمهورية ، الرئيس محمد حسنى مبارك ، أمراً بإلغاء قرار المصادرة الخاطئ؛ وذلك إعمالاً لصحيح القانون ، الذى سلف بيانه ، والذى لايعطى الأزهر أى حق فى المصادرة.

وبتاريخ الأربعاء ١٥ يناير ١٩٩٢ نشرت جريدة الأهالى - فى صدر صفحتها الأولى - خبر أمر الرئيس بإلغاء قرار المصادرة الخاطئ ، وأذاعته كافة وكالات الأنباء العالمية ، والإذاعات العالمية بكل اللغات ومنها العربية .

وبتاريخ الجمعة ١٧يناير ١٩٩٢ ، وفى جريدة الأهرام صفحة ١٤ ، صرح شيخ الأزهر - فى حديث صحفى - أنه ليس للأزهر حق مصادرة الفكر ، وكل ماله من حق هو كتابة تقرير - عن العمل الذى لايوافق عليه - يُرفع إلى الجهات المختصة (وهو صريح رأينا ابتداء) ، ولم يبين شيخ الأزهر سبب جنوح مجمع البحوث الإسلامية (التابع له) عن هذا الحد ، وخروجه عن القانون ، واعتدائه على الدستور ، وعدوانه على الحرية ، وقمعه لحركة الفكر ، وقصوره عن إصدار كتب تعارض كتبنا كما فعل بالنسبة لغيرنا ، وكما هو واجبه القانونى والتزامه الأدبى !؟

بهذا انتهت ، رسمياً ، ومؤقتاً ، مسألة مصادرة هذا الكتاب وغيره. وظلت هذه المسألة حديث الصحافة المصرية والعربية والدولية لفترة طويلة. وسوف تظل ، بلا شك ، مَعْلماً هاماً فى معارك حرية الفكر ، وفى حروب النور ضد الظلام ، وفى صراعات العلم ضد الجهالة .

ويبقى السؤال : لماذ تمت المصادرة بهذا الأسلوب الفج ، غير الشرعى، وغير القانونى !؟

إن الإجابة تكمن فيما سلف ، وفى أن هذا الكتاب - وغيره من كتبنا - قد أقلقت مضاجع جماعات الإسلام السياسى فى مصر وغيرها ، وكشفت جهالات من يدّعون العلم ويقومون بالوعْظ ويحتكرون الفتوى ويتاجرون بالإرشاد ، ولهؤلاء جميعاً صلات ببعض أعضاء مجمع البحوث الإسلامية وبغيرهم من رجال الأزهر ، الذين عملوا طويلاً لاختراقهم ، رغباً ورهَبًا ، حتى ضموهم إلى صفوفهم ووحدوهم مع مصالحهم ، وبهذا أرادوا أن يكون الأزهر واجهة للهجوم علينا ، يختفون هم من ورائها ويحركون الأحداث !!

هذا هو أول تفسير لقرار المصادرة الجماعية الخاطئ ، والذى كاد أن يكون - أو قصدوا أن يكون - مصادرة لإسمنا ولأعمالنا . وإلى جانب ذلك فثم أسباب أخرى لابد أن تعلن عندما يحين الحين ويحل الوقت !!

هل انتهى الأمر بعد ذلك ؟

لقد طاش السهم وطار الصواب ، فظهرت صور شاحبة وعلت أصوات ناحبة كانت مع غيرها وراء قرار المصادرة . وبدأت حملة هجوم ، خارج عن كل حد ، علينا وعلى كتبنا فى كثير من الصحف (القومية بكل أسف) والحزبية . وهى حملة - على ماسلف الإيماء إليه - غير علمية ، وغير أدبية ، كان القصد منها التشويه والتشويش والشوشرة ، لا النقد النزيه الحر الذى يقوم على أساس من العلم ويستوى على نهج من الخلق.

وإن المعركة مستمرة ، ما استمر الفكر الحر النقى النزيه ، وما دام الظلام والجهالة والدجل والإتجار !

والحقيقة هى التى سوف تسطع وتعلو وتنتشر ، مهما طال الوقت ، أو علا الصراخ ، أو استمر الضجيج .

وإن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب !؟

القاهرة فى ٢٤ فبراير ١٩٩٢

مقدمة

«الخلافة الإسلامية» موضوع هام جدا ، ووعر للغاية.

تأتى أهميته من أن الخلافة الإسلامية قد كانت فى حقيقة الأمر، ثم صارت بحكم الواقع، محور التاريخ الإسلامى كله ومحيط الفكر الإسلامى بأكمله. ومن يُرد أن يفهم هذا الفكر أو يعرف ذلك التاريخ فلابد له من أن يلتقى بالخلافة الإسلامية، قصدا منه، أو عَرضًا فى طريقه؛ فإن لم يدرك حقيقة الخلافة وطبيعتها وتاريخها، انعكس ذلك على مايعرف وارتد على ما يفهم، فأثر تأثيرا سلبيا بعيدا، ينتهى إلى عدم استيعاب التاريخ وتمثل الفكر، أو حدوث اضطراب شديد فى الإستيعاب ووقوع اختلاط بالغ فى التمثل.

أما وعورة الموضوع فتتحصل فى أنه - على أهميته- يختلط بكثير من الأوهام ويمتزج بوفير من الأحلام. ومن يسع إلى تخليصه من الأوهام أو تفصيصه من الأحلام يقع فى محاذير كثيرة ومخاطر عدة؛ هى محاذير مواجهة الواقع، ومجابهة الحقيقة ، بل ومخاطر ايقاظ النّوام، وتنبيه السادرين فى الأحلام.

فالخائض فى الخلافة الإسلامية كالخائض فى الغمر أو كالسائر فى حقل من الألغام، إما أن يغرق فى لجج من التصورات المختلقة وإما أن ينجو بالحق والحقيقة؛ وهو - كذلك - إما أن يصطدم بلُغم ينفجر فيه، وإما أن يتصيد الألغام واحدا بعد الآخر فيفجّرها جميعا بعيدا عنه وبمنأى منه.

هذا التعرض الصحيح لموضوع الخلافة الإسلامية - رغم المحاذير والمخاطر - ضرورة لابد منها لتنقية الإسلام، وتصحيح تاريخه، وتقديم صورته السليمة، وعرض حقيقته دون زيف أو زور. فما دامت الخلافة الإسلامية هى محور التاريخ الإسلامى ومحيط فكره، فإن أى زيف عنها أو زور فيها لابد أن يزيف التاريخ، كما أن كل حقيقة عنها أو واقع لها لابد أن ينقى التاريخ ويصفّى الفكر. وإذ كان من اللازم لتجديد روح الإسلام وترقية شأن المسلمين أن يفهموا الواقع ، ويدركوا الحقائق ، ويتمثلوا الصحيح ، ويستوعبوا الأصول؛ فإن فعلوا ذلك صح لهم التجديد والترقى ، وإن لم يفعلوا كان جهدهم فى هذا الترقى وذلك التجديد عملا بغير طائل وفعلا بغير نتيجة وتصرفا دون ما عائد منتج.

مثل هذا العمل لايمكن أن يستخلصه جهد مفرد أو يستنفده كتاب واحد ، وإنما لابد له من تكاتف العمل وتضافر الجهود وتعدد الكتب ، كل يقدم رؤيته الصافية ويقدم مكنة التعاون وقدرة التكامل، حتى يسفر التعاون المثمر والتكامل السليم عن الحقيقة الكاملة والرؤية الصحيحة والطريق الصائب.

وهذا الكتاب هو خطوة على الطريق، لايقدم تاريخ الخلافة الإسلامية كله، ولا يعرض وجهات النظر جميعا، وإنما يتناول أصول الخلافة وطبيعتها وبعض تاريخها، قصد استخلاص وجهة نظر صحيحة وصائبة، أو أدنى ماتكون إلى الصحة وأقرب ماتكون إلى الصواب. ومثل هذا العمل مما يُصنَّف في باب فلسفة التاريخ أكثر مما يُصنف في باب التاريخ ذاته.

فلسفة التاريخ تُعنى ببيان حقيقة النظم وطبيعة الأحداث وأسس الواقعات، وتكتفي في ذلك بأمثلة كانت هي مقدماتها فيما وصلت إليه من نتائج، ومادتها التي صاغت لها الخلاصات؛ ومن ثم فهي بالضرورة لاتعرض كل النظم ولاتسرد كل الأحداث ولاتحصى كل الواقعات، فذلك عمل التاريخ وليس دور فلسفة التاريخ.

وإذا كان الكتاب يهدف إلى بيان أصول الخلافة، وطبيعتها، وحقيقتها، فإنه يعرض إلى الأحداث التي انتهت به إلى أنها نظام سياسي وليست نظاما دينيا، وأنها تحتوى كل ألاعيب السياسة، وكل دناياها، وكل أخطائها، وكل مساوئها؛ وأن وصفها بأنها «إسلامية» لم يكن وصفا حقيقيا يفيد أنها انبنت على قيم الإسلام وأخلاقياته؛ لكنه كان وصفا واقعيا يزعم أنها صدرت عن الإسلام، ويستخدم الدين لخدمة أهدافه لاغير، كما يستعمل الشريعة للإساءة إلى الشريعة، ويحكم المسلمين على خلاف مايقضي الإسلام أو يرجو المسلمون.

فإن قيل إن الكتاب انتقائي، ينتخب من أحداث التاريخ ما يوافقه؛ فالرد على ذلك فيما كتبناه في كتابنا «حصاد العقل» (المنشور سنة ١٩٧٣)، من أن التاريخ كله انتقائي؛ بمعنى أن المؤرخ عادة ماينتخب من الأحداث بعضها، مما يدرك أنه أهم من غيره في بيان مايسرد، ثم يُغفل باقي الأحداث الأخرى. ذلك أن التاريخ لايمكن أن يُستوعب في كتاب واحد، كما أن طبيعة التأريخ هي الإختيار والإنتقاء. فإذا كان ذلك شأن التاريخ فإنه – من باب أولى – حال فلسفة التاريخ.

وإذا قيل إن مثل هذا العمل يقدم نفايات التاريخ وأوساخه، فإن العيب لايكون في العمل ذاته ولكن في التاريخ الذي يحمل النفايات ويحتوي على الأوساخ. ونفض النفايات من الجسم وفصل الأوساخ عن التاريخ ضرورة لابد منها حتى يتطهر هذا من الأوساخ ويتخلص ذاك من النفايات، وإلا بقيت النفايات في الجسم وظلت الأوساخ في التاريخ ثم تحللت هذه وتلك وتسربت في حنايا الجسم وأنحاء التاريخ لتفسده كله وتسممه جميعا. وهذا بذاته ماحدث في التاريخ الإسلامي؛ إذ حرص المؤرخون على أن يقدموا ما قصدوا به اثبات الأمجاد وتأكيد العظمة، كما حرصوا على إخفاء كل ما رأوا فيه خلخلة للأمجاد أو قلقلة للعظمة. ونتيجة لذلك بقيت نفايات الواقعات وأوساخ التاريخ داخل جسم المجتمع الإسلامي وفي صميم حشاياه، لاتُنفض منه ولا تُفصل عنه، حتى سممته تماما، فصار عليلا ذا فم مُرٍّ مريض يجد مرا به الماء الزلالا؛ ولايقدر على مواجهة الحقائق ولايستطيع مجابهة الواقع؛ يتزلزل من الأصول ويتخلخل عند الصحيح.

ولئن قيل وكيف تؤخذ الخلافة الإسلامية التي نشأت واستقرت خلال العصور الوسطى

بالمعايير الدستورية الحديثة التى تنظم حقوق الحكام وحقوق المحكومين، وتحدد التزام هؤلاء وهؤلاء ، وتجعل للشعوب أهمية فى صنع القرار وإصدار الأحكام ؛ فإنه يُرد على ذلك بأن الإسلام ذاته قدم أفكارا وآراء ومبادىء تتعدى عصره بمراحل وتشرف على العصر الحالى وعلى عصور مقبلة . مثل ذلك مبدأ حرية الإعتقاد **«فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»** «سورة الكهف ١٨: ٢٩)، ومبدأ شخصية المساءلة **«ولا تزر وازرة وزر أخرى»** (سورة الأنعام ٦: ١٦٤) **«وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه»** (سورة الإسراء ١٧: ١٣)، ومبدأ عدم رجعية القانون أى عدم سريانه على الواقعات التى سبقت صدوره **«وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا»** (سورة الإسراء ١٧: ١٥) وهكذا. فإذا كان الإسلام لم يقتصر على مبادىء عصره وإنما تعداها إلى عصور تالية فقد كان الحرى بالنظم التى تتمسح فيه وتحتمى به أن تكون على مستواه، فتتعدى مظالم عصرها إلى عدالة أفضل وتتجاوز مساوىء وقتها إلى محاسن أرقى. فإن كانت الخلافة قد أخفقت فى إدراك هذا المعنى وفشلت فى تحقيقه فلماذا إذن تُحسب على الإسلام ولاتُفصل عنه؟ وما فائدة نشوء نظام معين، وسريانه فترة، والمطالبة به فى العصر الحالى ، إذا كان هذا النظام قد جانب مبادىء الإسلام وخالف أصول الشريعة؟ ولم التمسك بنظام يُمنع عنه أى نقد ولو كان هينا ويتحصن من كل مطعن وإن كان صحيحا ، إذا كان هذا النظام ابن العصور الوسطى ونتاج ظلمات الجاهلية ، وليس نبت الإسلام وزرع الشريعة، ولا هو خلاصة روح الدين ونور الإيمان!؟

إنها لمناقضة غريبة أن يحدث الإلحاح على نظام بعينه ، هو نظام الخلافة ، فتُهدد به كل النظم السياسية وتُقوض به كل الحكومات القائمة بدعوى أنه نظام إسلامى أكثر منها صحة وأشد منها أخلاقية وأمتن منها دينا ، فإذا تم تحليل هذا النظام بدقة وتبين أنه لايختلف عن أى نظام سياسى متخلف فى السطوة والسيطرة والغشومة والظلم والإستبداد والتنكر لحقوق الإنسان وتنكب حقوق الله، إذا ثبت ذلك، احتج المتنطعون وفاسدو المنطق ، واستاء المفسدون وأصحاب المصالح؛ تارة يقولون إن النقد الصحيح بحث عن النفايات والأوساخ، وتارة يقولون إنه لاينبغى أن يُحكم على نظام الخلافة بمعايير العصر الحديث، مع أنهم يدعون أنه نظام صالح لهذا العصر ولعصور قادمة ويزعمون أنه نظام خال من أى سوء بعيد عن أى شائبة!!

وهذا الكتاب يتعرض - بالضبط - لما يمكن أن يوجه إليه من نقد. فهو يستخلص من أحداث التاريخ ما أخفاه الكثيرون ، ليحقق بذلك التوازن بين ماقيل وما أخفى، وليُتمّ الصورة بإضافة الخطوط الناقصة والألوان المطموسة.

وهو - من ثم - يقدم حقائق وواقعات وتفسيرات لايستطيع أن ينكرها عالم أو يجحدها صادق. ولئن قال قائل عنها إنها أوساخ أو نفايات، فإن العيب والسوء فى التاريخ لا فى بيانه، وفى اخفائه لا فى إبرازه.

وهو - كذلك - ينتهى بالواقعات المحددة والأسانيد الثابتة، إلى أن نظام الخلافة - فى مجموعه وعدا فترات قليلة - نظام جاهلى غشوم، مناف لروح الدين مجاف لمعنى الشريعة.

* * *

وفى سبيل بيان ذلك فإن الكتاب ينقسم إلى ثلاثة فصول رئيسية :

(الأول) هو الأصول العامة للخلافة الإسلامية ، وهو تقييم لنظام الخلافة وتحديد للفلسفة العامة المستفادة منه.

(والثانى) فى تاريخ الخلافة الإسلامية . ولأن التاريخ لايعرف الإنقطاع بل يعرف التتابع، ولايقوم على الحوادث المتفاصلة بل يقوم على الواقعات المتواصلة ، فإن تاريخ الخلافة الإسلامية يقتضى بحث الظروف التى سبقت نشوءها ، وهى فترة العصر الجاهلى فيما قبل الإسلام. ثم عهد النبى (صلى الله عليه وسلم)؛ لبيان صلة الخلافة بما سبقها من نظم، وعلاقة النبت بما كان من جذور.

(والثالث) عن فقه الخلافة (أى علم الخلافة) ، وهل يوجد مايمكن أن يسمى فقه الخلافة؟ ولِمَ كان؟ وماهو هذا الفقه؟ وبعد ذلك يرد بحث تعّرض لدعوى معاصرة تحت عنوان «فقه الخلافة» بقصد تقويض كل نظم الحكومات فى البلاد الإسلامية ، لابنظام أفضل وأرقى وأسمى وأكثر تحديدا وأشد شمولا، ولكن بنظام الخلافة الإسلامية الفاسد والمعيب بعد حجب كل نقد عنه ونزع كل مثلب منه.

والكتاب مع ذلك لايشايع أى نظام ولا يمالىء أى حكومة؛ لكنه يرى ضرورة نشوء نظام إنسانى جديد، تتحدد فيه التزامات الحكام والمحكومين كما تتحدد فيه حقوق كل الأفراد والمؤسسات بصورة لا لبس فيها ولا تخليط، ولا اضطراب ولاتدليس ؛ وأن تصدر الحكومات عن إرادة الشعوب باختيار واضح صريح غير مغشوش ولا مدخول ولا مكره ؛ وأن يكون للشعوب حق رقابة الحكومات وحق عزل الحاكم الفاسد أو الظالم أو المقصر، بهدوء وسلام، دون ما إزهاق أرواح وبغير إراقة دماء ؛ وأن ينتشر قبل ذلك ، ومعه ، جو من الثقافة الصحيحة والتربية السليمة، تتكون فيه الإرادات الواعية الحرة والعقول المتفتحة النزيهة والنفوس القوية العادلة ، تلك التى تبحث عن الحق والعدل والحرية ، وتعرفها على أصولها، وتمارسها كأفضل ما تكون الممارسة ؛ حيث يكون ثم احترام عميق لحقوق الإنسان ، كل إنسان؛ وأن تكون العبادة السليمة هى تلك التى تتغيا حقوق الله وترى أنها لاتبعد أبدا ، ولا تتعارض قط، مع حقوق الإنسان.

ولئن كان ذلك فى نظر البعض حلما، فإن الواقع الصحى هو ذلك الذى يحقق الأحلام الفاضلة.

والله تعالى ولى الصادقين قولا وفعلا ، وولى العاملين حقا وصدقا..

القاهرة فى ١٢ أكتوبر ١٩٨٩.

أصول الخلافة الإسلامية



ثمّ مرض لعين وداء وبيل، هو مرض فُصام الشخصية Schizophrenia أصاب منذ أمد طويل بعض الأمم والجماعات الإسلامية (كما أصاب غيرها)، فظهرت على الأمم والجماعات الإسلامية المريضة كل أعراضه البغيضة وآثاره الخطيرة. ولئن كان ذلك أمرا واضحا جليا فى كل المناشط والمظاهر، فإنه أكثر جلاء وأشد ظهورا فى المسائل السياسية؛ حيث تجنح الأمم والجماعات المريضة إلى أن تنتخب من ماضيها بعض الأحداث وتغفل بعضها الآخر، وتقطّع التاريخ فتتقدم منه بعض الواقعات وتضرب النسيان عن بعضها الآخر، بحيث لم يعد التاريخ الإسلامى لديها واضحا متتابعا متكاملا مفهوما؛ بل حادثة من هنا وحادثة من هناك، واقعة من هذه الفترة وواقعة من تلك، مُلحة أو طُرفة أو حكاية أو نكتة، لايجمعها جميعا بناء واحد ولايضمها كلها تاريخ مسلسل. ونتيجة لهذا الإضطراب والتقطع والتباعد والتفاصل فقد عمل كل كاتب أو قارىء أو مستمع على إعادة صياغة ما قد كتب أو قرأ أو سمع بعد تجميعه وتلصيقه وتوليفه بأوهام غير حقيقية، وخيالات غير واقعية، وأمانٍ لم تكن أبدا، وآمال لن تحدث قط.

فالمسلمون جميعا يسمعون أو يقرءون عن «الفتنة الكبرى» لكن أهل السنة والجماعة لايعرفونها واضحة دون لبس، ظاهرة بغير غموض؛ فلا يكاد يجزم أحد منهم بأسبابها الحقيقية، أو يقدّر موقف كل من اشترك فيها تقديرا صحيحا، أو يحكم على كل ماحدث فيها حكما غير مشوب بهوى. قصارى مايقال عن هذه الفتنة - إن قال قائل - إنه قد وقعت اجتهادات من صحابة الرسول والمُبشّرين بالجنة، كُلٌ كان له رأى، ومن أصاب منهم فله أجر ومن أخطأ فله أجران !! لكن أحدا لم يجرؤ ولا يجرؤ أن يقول إن كل واحد من المشتركين في الفتنة قد أخطأ، وإنه لم تكن ثمّ اجتهادات بل مطامع، ولا كان هناك فقه بل سياسة. بذلك بقيت الفتنة الكبرى، بأحداثها التى شكّلت كل التاريخ الإسلامى، دون تقييم صحيح واضح، وبغير بيان كافٍ شافٍ؛ فُترك الأمر من ثم إلى خيالات كل مسلم يشكلها حسب فهمه ومايريد، كما تُرك إلى الشيعة التى أعادت تركيب الأحداث بصورة تخالف المعروف والمشهور فى التاريخ الإسلامى. وصار المؤمن التقى حائرا بين التاريخ السنى والتاريخ الشيعى، وخاصة أن بعض الكتّاب يمازج بين التاريخين، وينتقى من هذا وذاك مايقصّه ويرصّه، ويقطعه ويلصقه، كالشظايا المتناثرة، والفسيفساء المتباعدة.

يقال إن الخلافة الأموية خدمت الدين الإسلامى بالفتوحات المتصلة والغزوات المستمرة، ونشر الإسلام بين غير المسلمين؛ لكن لايُقال إن الخلافة الأموية - مع ذلك - هى التى دنست حرمة المدينة فى عهد يزيد بن معاوية وأهدرت حرمة مكة فى عهد عبد الملك بن مروان ؛ فأباحت لجنودها دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، فقتلوا الرجال ونهبوا الأموال وهتكوا أعراض النساء وفضوا بكارات العذارى . كذلك لايقال إن هذه الخلافة ضربت الكعبة بالمنجنيق مرتين فهدمتها في كل مرة، وأنها سمحت لجنودها بدخول مسجد الرسول بخيولهم حيث ملأوه بالروث والقاذورات.

ويقال إن عمر بن عبد العزيز ألغى الجزية وقال: إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) أرسل هاديا ولم يُرسل جابيا ؛ ولكن لايقال إن الجزية التى ألغاها عمر بن عبد العزيز لم يفرضها حاكم أجنبى وإنما فرضها الخلفاء الأمويون المسلمون على رعاياهم من المسلمين غير العرب ، كأنما هم رعايا دولة أخرى أو كأنهم غير المسلمين.

ويقال إن الخليفة المأمون هو الذى أنشأ بيت الحكمة ونشر الترجمة ، وأن عهده كان عهد الحضارة الرفيعة والحرية الفكرية ، لكن لايقال إن المأمون هو الذى أثار فتنة خلق القرآن ، وفرض على الناس اعتقاده بمرسوم خاص، كالمراسيم التى تصدر عن المجامع المقدسة غير الإسلامية (مثل مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م، ومجمع خلقدونيا سنة ٤٥١م)، وهو أمر لاصلة له بالدين ولا علاقة له بالحضارة ولا وشيجة له بالحرية؛ غريب عن روح الإسلام ، بعيد عن معنى الحضارة ، على الضد من فكرة الحرية.

ويقال إن الأئمة مالك بن أنس وأبى حنيفة النعمان وأحمد بن حنبل، صمدوا لعدوان الحاكم الظالم وتحملوا تعذيب الوالى الغاشم دون أن تلين لهم قناة أو يتغير لهم رأى ، ولكن لايقال إن الحاكم الظالم والوالى الغاشم لم يكن أجنبيا مستعمرا غير مسلم، بل كان هو الخليفة المسلم، أمير المؤمنين ورأس المسلمين، أو كان نائبه وواليه. فقد كان الذى عذب مالك بن أنس هو والى المدينة جعفر بن عبد الله بن العباس عم الخليفة أبى جعفر المنصور. وكان الذى ضرب أبا حنيفة النعمان هو والى مروان بن محمد (آخر الخلفاء الأمويين) ثم الخليفة أبو جعفر المنصور. وكان الذى نكّل بأحمد بن حنبل هو الخليفةُ المأمون ثم الخليفة المعتصم.

وهكذا تتوالى الأمثلة ولاتنتهى، وكلها يقطع بأن فهم التاريخ الإسلامى كان دائما أبدا - نتيجة فصام الشخصية - يتبع أسلوب الشظايا المتناثرة والفسيفساء المتباعدة؛ فينظر إلى اتجاه ولايرى باقى الإتجاهات ، ويحملق فى وجه من العملة ولايرى الوجه الآخر، ويلتفت فى الكتاب إلى صفحة ولايقرأ باقى الصفحات، ثم يزعم بعد ذلك أنه يعرف التاريخ ويفهم الأحداث ويستقرىء الواقع!!

فصام الشخصية

ومرض فصام الشخصية (١) الذى يؤدى إلى هذه الحالة الخطيرة مرض شائع فى بعض الأفراد وبعض المجتمعات . فمن الأمور المشاهدة كثيرا، خاصة فى المجتمعات غير المستنيرة، أن يجنح شخص إلى أن ينتخب من ماضيه بعض الواقعات ويغفل بعضها الآخر تماما، كأنها لم تحدث قط ولم تقع أبدا. وهو من ثم، إما أن يلجأ إلى الخيال يعيد به صياغة الواقعات المُنتخبة ضمن تاريخ كامل غير حقيقى، وإما أن يكُفّ عن أى صياغة لها فتبدو الواقعات وكأنها جزر متباعدة أو سحب متقطعة، ضمن خواء ضارب وفراغ دائم، أشبه ما تكون بالشظايا Splin-ters المتناثرة أو الفسيسفاء mosaic غير المتلاصقة.

وهذا الذى يشاهد فى كثير من الأفراد غير الأسوياء هو عَرضَ من أعراض مرض فصام الشخصية Schizophrenia. وهذا المرض ذُهّان وظيفى سمته الأساسية تفكك الروابط بين الوظائف النفسية، وانفصام الذات عن العالم الخارجى ، وانطواؤها داخل عالم من التخيلات والأحلام والتفكير الإجترارى؛ الأمر الذى يؤدى إلى فقدان وحدة النشاط النفسى وتشتته فى تعقعة من التعبيرات اللغوية وشنشنة من الصياغات اللفظية وطنطنة من التركيبات الكلامية، كما تبدده شذرات فى الحياة الوجدانية (العاطفية) والميول الحركية والسلوك العنيف. وتنتهي هذه الحالة المرضية إلى الكف عن النشاط والتزام السلبية والإغراق فى الحديث ، أو إلى نشاط خاطىء ، إما اندفاعى عدواني متفجر وإما آلى نمطى متحجر. كما تنتهى إلى فقدان التلقائية وضياع المبادأة، وإلى الإستهداف لأى إيحاء، والميل إلى المحاكاة والتقليد. ويتميز سلوك الفصامى Schizophrenic بالمفارقات والمناقضات ، وسوء ملاءمة التعبير السلوكى للموقف الخارجى، وقلة المبالاة، وفقدان سمة التغيير والتجديد، وزيوغ القيم المادية والمعنوية الحقيقية. ورغم ذلك كله فإن الوظائف العقلية الأولية تبقى سليمة دون اعتلال؛ وهذه الوظائف هى تلك التى تتعلق بإدراك العالم الخارجى، والتوجه فى المكان والوقت (الزمان)، والإحتفاظ بالمعلومات والمهارات، والقدرة على الحفظ والوعى.

فالفصام مرض عقلى يحتفظ بكثير من الوظائف العقلية سليمة بغير مرض، لكنه يقوض أى اتصال بينها؛ كما يبدد الإدراك السليم، فيؤدى إلى تفاصل عناصر تفكير الفُصامى وتباعد أسباب أعماله، كما ينتهى إلى اختلال القدرة على فهم حقيقة الأحداث ، والعجز عن الخروج من دائرة التفكير الإجترارى والتعبير اللفظى والأسْر الكلامى، هذا مع الميل إلى التكرار الممل الذى هو أقرب إلى الهذيان . وهو - مع كل ذلك - يتميز بالتقلب المستمر والفوضى الواضحة وعدم التنظيم.

وعندما يصاب فرد بهذه الحالة المرضية فإنه يكون فى حاجة إلي علاج بصورة تخوله فى

النهاية أن يقبل أحداث ماضيه وحاضره برضا، وأن يتكيف مع الواقع تكيفا سليما، وأن يكف عن الهذيان ليستبدل به العمل، ويمتنع عن عدم المبالاة ليستعيض عنها بالمبادأه، وأن يدرك القيم المادية والمعنوية إدراكا صحيحا يضعها فى المكان الملائم الذى لاتروغ فيه ولاتزوغ منه ضمن خيالات من الهذيان اللفظى المستمر.

وكما يُرزء بعض الأفراد بهذا المرض الخطير (فصام الشخصية Schizophrenia) فإن بعض الأمم والجماعات تُبتلى به[٢]، حين تتفكك الروابط بين واقعات تاريخها، فتنتخب منها ماتشاء ثم تعيد صياغته داخل عالم من التخيلات والأحلام والتفكير الإجترارى بعيدا عن الواقع الخارجى نائيا عن العالم الحقيقى، أو تترك هذه الواقعات المنتخبة كالشظايا المتناثرة أو الفسيفساء غير المتلاصقة.

والأعراض التى تحدث للفرد من مرض فصام الشخصية - والمنوه عنها فيما أنف - هى بذاتها الأعراض التى تصيب الأمم والجماعات التى تبتلى به، إذ تتقطع العلاقات الحقيقية بين أفرادها وتتفكك الروابط الأساسية بين عناصرها، وتفتقر إلى الفكر الموحَّد كما تفتقد العمل المتكامل؛ فتدرك العالم الخارجى دون أى تفاعل حقيقى معه، وتحس بالمكان والوقت (الزمان) بغير تداخل واع فيهما، وتحتفظ بالمعلومات والمهارات دون مُكْنه الإستفادة الصحيحة منهما، وتضطرب لديها القيم المادية والمعنوية فلايكون هناك اتفاق اجتماعى على معناها ومغزاها، وتنقصها المبادأة السليمة والعمل السديد فتستبدل بهما عالما من التخيلات غير الصحيحة، والأحلام غير السوية، والأوهام غير الواقعية، والتفكير الإجترارى فى موضوعات وهمية أو عاطلة من الفائدة، وتلجأ إلى التعبيرات اللغوية والصيغ اللفظية والتركيبات الكلامية فتكثر منهما وتجعلهما الوجه الأساسى والشكل النهائى للتعبير عن ذاتها، ويصبح نشاطها إما اندفاعى عدوانى متفجر وإما آلى نمطى متحجر. وتتميز أفعالها بالمفارقات والمناقضات وعدم ربط الحاضر بالماضى والمستقبل، وسوء ملاءمة التعبير السلوكى للموقف الخارجى، بحيث لاتُقَدِّر معنى المناسبة ومبدأ التناسب، فتهرب منها الفرص أو تجرى وراء الفرص الضائعة وتتشدق بالأمجاد الغابرة.

الفصام والخلافة الإسلامية

الفُصام مرض يظهر فى كل المناشط ويبدو فى كل السكنات، لكنه - فى الشعوب المبتلاة بـه - يظهر أكثر ما يظهر ويبدو أوضح مايبدو فى السياسة والعمل السياسى، ذلك لأن التاريخ - فى المفهوم الغالب - هو تاريخ الحكام أو الأحداث السياسية، ولا يُعنى بتاريخ الفكر أو تاريخ الإقتصاد أو تاريخ الفقه أو تاريخ التشريع أو تاريخ الفن أو تاريخ العمارة أو ماشابه إلا عدد قليل؛ هذا فضلا عن أن السياسة هى السلطة وهى الثروة، ومن ثم كان تأثيرها على الناس أسرع وكانت نتائجها أوضح.

وتبعا لذلك فإن الفصام، بحالته المرضية السقيمة ونتائجه الحادة العليلة، يبدو واضحا فى التاريخ السياسى الإسلامى، وبالذات فى موضوع الخلافة الإسلامية، على اعتبار أن هذه الخلافة هى القطب الذى تمحور عليه التاريخ الإسلامى والمركز الذى تبلور فيه الفكر السياسى.

وقد دعا وهم عن الخلافة لم يتحقق، وخيال حولها لم يقع ، وأمان بصددها لم تحدث؛ دعا ذلك الخَطل والبَطل إلى أن تستحوذ على عقول بعض الجماعات الإسلامية فكرة ضرورة عودة الخلافة ليعود للمسلمين - كما يظنون - مجدهم الغابر وعهدهم الذهبى، وليتحقق العدل والأمن والرخاء، ولتظهر القوة والشدة والبأس، وليتجدد الدين ويتخلّق الإيمان وتُطبق الشريعة، وليعود رمز الإسلام ناصعا زاهيا باهيا، كما كان طوال أربعة عشر قرنا من الزمان حتى ألغيت الخلافة فى ٣ مارس سنة ١٩٢٤.

وزاد من هذه الأوهام وغالي فيها خلط واقع بين فكرة الحكومة وبين نظام الخلافة الإسلامية، وخلط آخر بين الحكومة الدينية وبين الحكومة المدنية، وخلط ثالث بين الإسلام وبين تاريخ الإسلام.

الحكومة والخلافة

يتعين بادىء ذى بدء فهم التفرقة بين فكرة الحكم فى ذاتها ونظام الحكم فى الواقع، وإدراك الفاصل بين نظام الحكم كيفما يكون هذا النظام - وبين نظام الخلافة ذاته.

مما لاشك فيه أنه توجد ضرورة لقيام نظام وتعيين حكومة ونصب رئيس لأى جماعة ولكل أمة؛ ودون ذلك وبغيره ينتشر الخلل وتقع الفوضى ويعم الإضطراب. **لكن فكرة - أو ضرورة - قيام نظام وتعيين حكومة ونصب رئيس تختلف عن طبيعة النظام وشكل الحكومة ووضع الرئيس.** فالنظم مختلفة وإن كانت تدخل فى معنى النظام. فقد يكون النظام بسيطا وقد يكون معقدا .. وقد يكون مركزيا وقد يكون لامركزيا .. قد يكون فيدراليا وقد يكون كونفودراليا .، وهكذا . وقد تكون الحكومة معينة وقد تكون منتخبة.. قد تكون فردا واحدا وقد تكون مجموعة، وهكذا ، لكنها جميعا تندرج تحت مفهوم الحكومة. وربما كان الرئيس امبراطورا أو ملكا أو أميرا أو رئيسا أو خليفة، وهكذا، وجميعهم ينطوى في فكرة الرياسة.

فالنظام والحكم والرياسة ضرورة لامعدى عنها ولزوم لامندوحة منه، لكن النظم تختلف والحكومات تتباين والرياسات تتغاير - كما أنف البيان. **وضرورة النظام لاتفرض شكلا معينا له، ولزوم الحكم لايقصره على صورة واحدة ، وحتمية الرياسة لاتحدد وضعا فريدا لها؛ إنما تتغير الأوضاع وتتبدل الصور وتختلف الأشكال باختلاف الأوقات واختلاف الناس وتباين الظروف وتفاصل المجتمعات.**

دواعى إنشاء الحكومة وأسباب قيام الرياسة ضرورة مفهومة لا ينكرها إلا عدمى nihilist

ولا يجحدها إلا فوضوى anarchist، غير أنه لاينبغى فى الفهم السليم والجدل الصحيح أن تُصرف الحجج الخاصة بضرورة قيام الحكومة إلى حكومة الخلافة وحدها، أو تُوجه الأسانيد المتعلقة بلزوم وجود رياسة إلى الخليفة دون غيره. فمن الممكن، بل وهو الواقع، أن يكون لكل جماعة ولكل أمة من أمم الإسلام نظام وحكومة ورياسة ليست هى الخلافة الإسلامية. وهذه الرياسات وتلك الحكومات وهاتيك النظم لاتفيد ضرورة قيام الخلافة من جديد، بل على العكس، فإنها تعني إمكان استقرار النظام واستمرار الحكومات ودوام الرياسات بمنأى عن الخلافة الإسلامية، ودون أن تستظل بها أو تحتمى بحماها أو ترفع لافتتها.

الحكومة المدنية والحكومة الدينية

ويثير الإضطراب فى تقييم الخلافة الإسلامية خلط حاصل بين الحكومة المدنية والحكومة الدينية أدى إلى أن يظن كثيرون أن الخلافة نظام دينى لابد منه لتمام الإعتقاد أو لصحته. ولجلاء ذلك لابد من بيان الفارق بين الحكومة المدنية والحكومة الدينية.

فالحكومة المدنية أو نظام الحكم المدنى هو النظام الذى تقيمه الجماعة، مستندا إلى قيمها مرتكزا على إرادتها مستمرا برغبتها، حتى ولو طبق أحكاما دينية أو قواعد شرعية. ذلك أن تطبيق النص الدينى أو القاعدة الشرعية لايجعل الحكم دينيا لايُناقض، شرعيا لا يُعارض؛ بل يظل التطبيق دائما أبدا تطبيق الناس ويظل العمل على الدوام عمل الناس، ليست له عصمة ولا له قداسة.

أما الحكم الدينى، فإنه ليس الحكم الذى يستند على قيم الدين أو أحكام الشريعة أو الحكم الذى يطبق هذه وتلك، إنما يكون الحكم نظاما دينيا حين يضفى على الحاكم صفات دينية أو يسبغ على الرئيس معانى شرعية، بحيث يصبح - فى الحقيقة والواقع - هو الدين وهو الشريعة ؛ مايقوله هو قول الله وما يفعله هو فعل الله وما يحكم به هو حكم الله، لايعارضه أحد وإلا صار مارقا من الدين ولايناقشه شخص وإلا عد خارجا عن الشريعة، يستحق الإعدام دينيا ويستوجب القتل شرعا.

فمناط التفرقة بين الحكم المدنى والحكم الدينى لايكمن فى تطبيق الأحكام الدينية أو تنفيذ القواعد الشرعية، فكلا الحكمين ينفذ هذه القواعد ويطبق تلك الأحكام، وإنما يكمن المناط حقيقة فى صفة الحاكم ووصف الحكم. ففى الحكم المدنى يكون الحاكم شخصا غير معصوم ولامقدس، بينما يكون فى الحكم الدينى معصوما مقدسا، ولو كان ذلك بحكم الواقع De facto خلافا لحكم الدين. وفى الحكم المدنى يكون أمر الحاكم أو قضاؤه غير معصوم ولامقدس، بينما يكون - هذا وذاك - فى الحكم الدينى معصوما مقدسا، وإن كان ذلك بحكم الواقع De facto خلافا لحكم الشرع.

والخلافة الإسلامية ، فى الأصل نظام مدنى . ذلك أنه لا القرآن الكريم ولا السنة النبوية قد أمرا بها أو نظّماها . وإن وُجدت وصايا بالإعتصام بحبل الله والتضامن مع جماعة المؤمنين، فإن هذه الوصايا تتعلق بالدين أو تتصل بوحدة الجماعة ، أو تشير إلى تكوين أمة؛ وقد تُحمل من قبيل التجوز على إيجاد رئيس أو قائد أو إمام ، لكنها لاتحدد شكل الرياسة أو نوع القيادة أو رسم الإمامة، وبالتالى فإن حكم الدين - باعتبار وجود حكم دينى - يكون بإنشاء أمة أو أمم أو نصب رياسة أو رياسات ، لكنه لايكون بتحديد شكل الرياسة فى نظام بذاته هو الخلافة الإسلامية أو غيرها. وقد بدأت الخلافة الإسلامية - بهذا المفهوم المحدد - مجرد رياسة للجماعة التى كانت قد تكونت فى وقتها . وكان الرئيس خالفا للنبى (أى يليه فى الوقت ولايرث حقوقه) ثم انزلقت الخلافة إلى أحداث وتعبيرات انحدرت بها إلى أن أصبحت نظاما دينيا، خلافا لحكم الدين وحكم الشرع. فلقد صار الخالف للنبى خليفة للرسول، ثم خليفة الله، ونور الله ، وظل الله؛ وهى صفات تفاعلت مع الواقع وأثرت فيه فجعلت من الخليفة شخصا معصوما لايُحاسب ، مقدسا لايُساءل.

فإذا كانت الخلافة الإسلامية نظاما مدنيا بحسب الأصل، فلقد انزلقت من خلال التعبير ، وانحدرت من خلال الواقع ، حتى صارت نظاما دينيا بحكم الواقع De facto. وهذا الطابع الذى سرعان ما انتهت إليه الخلافة الإسلامية ليس تطبيقا للدين بل مخالفة له، وليس إعمالا للشرع بل مناقضة لأحكامه.

ونتيجة لانتقال الخلافة من الحكم المدنى إلى الحكم الدينى فلقد أهدرت كل مبادىء الإسلام فى الحرية والعدالة والمساواة، كما سوف يلى فيما بعد . والقول بغير ذلك ادعاء فى غير محلّه وافتراء يرده التاريخ. فالحكم - حتى وإن لم يدّع العصمة والقداسة أو يغتصب هذه وتلك بحكم الواقع - لايكون حكما اسلاميا بمجرد الإدعاء أو الإجتراء أو الإفتراء؛ بل إن اسلامية الحكم تكون دائما وأبدا مرتبطة بالواقع الحى والتاريخ الثابت . فإذا بان من الواقعات وظهر من التاريخ أن الحكم كان يتنكب مبادىء الإسلام الرفيعة ويتنكر لقيمه السامية ، فإنه لايكون اسلاميا قط، مهما تشدق المتشدقون وادعى المدعون وأبطل المبطلون . فالمحك فى إسلامية الحكم فعله لاقوله، وتاريخه الحقيقى لاتاريخه المُختلق، وواقعه الحى لا الأوهام السائرة عنه والأحلام السادرة منه.

الديــن والتــاريخ

وقد يُردّ على ذلك بأن الخلافة الإسلامية تمازجت بالتاريخ الإسلامى وتواشجت مع أحداثه مما يوحد بينها وبين الإسلام، فيجعلها هى الإسلام. وهذا القول خطأ فادح وخلط شديد بين الفكرة وتطبيقها ، وبين الإسلام وتاريخه.

فالفكرة قد تكون واضحة محددة ، لكنها تختلف وتتباين عند التطبيق ، فيكون لها أكثر من تفسير، كما يكون لها أكثر من تطبيق ؛ ولايستطيع أى تفسير أن يزعم أنه وحده هو الفكرة ، كما لايستطيع أى تطبيق أن يحتكرها دون غيره. إن الفكرة غير تفسيرها وغير تطبيقها الذى قد يخطىء وقد يصيب ، وقد يفلح وقد يجنح ، وقد يعتدل وقد يشذ.

والإسلام غير تاريخه. الإسلام هو المبادىء والتعاليم التى بشّر بها النبى (صلى الله عليه وسلم) والكائنة فى القرآن الكريم أو القائمة فى السنّة الثابتة الصحيحة . أما تاريخ الإسلام فهو التاريخ السياسى - من مناظير مختلفة، والتاريخ الإقتصادى - من رؤى متباينة، وتاريخ الحركات الثورية والسرية - من كتابات متنوعة ، وتاريخ المذاهب - من زوايا عدة ، وتاريخ الفكر - من اتجاهات متغيرة .. وهذا التاريخ وقع من بشر ، وسّجله بشر، له أفكاره ومطامعه ومطامحه ودوافعه وأغراضه وأسبابه؛ فهو قد يصيب وقد يخطىء ، وقد يصح وقد لايصح ؛ ذلك أنه عمل بشرى يختلف عن الإسلام ذاته.

فمن تاريخ الإسلام مثلا، أحداث الفتنة الكبرى، وموقعة الجمل ، ووقعة كربلاء ، وموقعة الحَـرّة ، ومساوىء الحجاج بن يوسف الثقفى ، ومظالم الخلفاء الأمويين وغير الأمويين ، وضرْب الكعبة بالمنجنيق، واستباحة دماء وأموال وأعراض المسلمين فى مكة والمدينة ، والصراع بين الأمويين والهاشميين، ثم الصراع بين العباسيين والطالبيين، ومصارع الطالبيين، وفرض الجزية على المسلمين غير العرب، ومحنة خلق القرآن ، والحروب بين طلاب السلطة، وغزو التتار بغداد وتدميرها.. وهكذا ؛ فهل تكون هذه الواقعات - كلها أو بعضها أو غيرها - هى هى شريعة الإسلام ، أم أنها تاريخ للإسلام قد يصح وقد يخطىء، وقد يكون مقبولا وقد يكون مرفوضا!؟

من تاريخ الإسلام كذلك مذهب الخوارج ، والمذهب الحربى ، وأعمال الحشاشين، وآراء القدرية، وأفعال القرامطة، وتفسيرات الباطنية، وغيرها؛ فهل تعد هذه هى هى الإسلام أم أنها مذاهب وأعمال وآراء وأقوال انحرفت عنه فى تقدير البعض ولم تنحرف فى تقدير آخر!؟

إنها جميعا تُقرأ وتُدرس وتُروي على أنها تاريخ الإسلام، لكنه ينبغى أن يكون من المفهوم والمحدد والواضح أنها ليست الإسلام ذاته ، بل لعلها - أو لعل بعضها - يفسد المسلمين ، أو يقيم بينهم الإحن والشقاق ، أو يزرع بينهم الفتن والحروب ، أو يلقى بينهم العداوة والبغضاء، أو يحل لبعضهم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم.

القارىء الواعى والدارس الطُّلعة والسامع اليقظ يمكن أن يدرك أنه وإن كان الإسلام واحدا فى الأصل ، فإن التطبيقات مختلفة والتفسيرات متعددة والصيغ متباينة؛ وأنه كان من الممكن للتاريخ الإسلامى أن يتخذ مجارى أجرى، وأن يتشكل فى صور مختلفة - مثلا - لو أن سعد بن عبادة زعيم الخزرج قد وَلِى أمر المؤمنين بدلا من أبى بكر الصدّيق ، ولو لم يحارب أبو بكر القبائل التى رفضت أن تعطى له الصدقة ، ولو لم يُقتل عثمان بن عفان ، ولو لم

تحدث واقعة التحكيم ، ولو لم يعهد معاوية بالخلافة إلى ابنة يزيد فيجعلها وراثية بعد أن كانت تقوم على المبايعة أو الإختيار شبه المحدد.. وهكذا.

الخلافة الإسلامية - إذن - ليست ركنا من الإيمان ولا حكما من الشريعة، لكنها جزء من تاريخ الإسلام، كان من الممكن أن يقع بصورته التى حدثت ، أو يقع بصورة أخرى مغايرة، أولايقع أبدا إنما يحدث بدلا منه نظام آخر مختلف تماما . والخلط بين الإسلام والتاريخ خطأ فادح وقصور شديد جعل البعض يعتقد - على غير الصواب - أن الخلافة الإسلامية هى الإسلام، ومن ثم ينظر إليها من منظور عاطفى ويحكم عليها بمعيار وجدانى، فيحاول أن ينكر فيها أى خطأ أو يرفع منها أى زلل أو يضيف إليها كل فضيلة حتى يحيطها بهالة من الأوهام أو يضفى عليها صورا من الأحلام تدّعى أن الخلافة الإسلامية هى الإسلام ذاته، وأنها رفعت قيم الإسلام عالية ، وحققت مجتمعا إسلاميا، وقدّمت مجتمعا نظيفا مثاليا، وأنها لذلك رمز الإسلام وعَلَم الشريعة؛ وهذا كله وهم غير صحيح وحلم لم يتحقق إلا فى لحظات متباعدة لا تُحسب ، وفى أماكن متفرقة لايُعول عليها.

أ - فالخلافة ليست هى الإسلام، ولم تخدم الإسلام حقيقة ، بل إنها أضرت به حين ربطت العقيدة بالسياسة ومزجت الشريعة بنظام الحكم، ثم جعلت الحكم وراثيا وصيرته مطلقا مستبدا.

فقد تحولت من أن تكون خالفة للنبى، إلى أن تصبح خلافة للرسول، ثم خلافة لله، ثم نور الله، ثم ظل الله على الأرض ؛ فضيعت حق الإسلام وحق المسلمين، وفرّطت فى حقوق الله وحقوق الناس ، وأدت إلى تشويه ووقف أى نمو للفكر السياسى الإسلامى ولحقوق الأفراد العامة (ثم الخاصة) . فما دام الخليفة مختارا من الله، وما دام قوله هو قول الله وفعله هو فعل الله وحكمه هو حكم الله، فلا مجال لأىّ فكر سياسى ينظم طريقة اختيار الخليفة ، ونظام عمله، وحقوقه والتزاماته، وكيفية عزله.. وهكذا . كذلك لايمكن - بطريقة جدية غير نظرية - وبأسلوب فعلى غير جدلى - تنظيم حقوق المواطنين والتزاماتهم العامة (وربما الخاصة) ؛ إذ لا يوجد لأى فرد كائنا من كان حق أمام الخليفة، وليس على الخليفة أى التزام قبل أى شخص ، لأن الناس جميعا عبيد له وإماء لحضرته، أرواحهم ملكه يزهقها حين يريد ، وأموالهم له يستبيحها كيفما يرى.

ب - والخلافة لم ترفع قيم الإسلام عالية ، بل إن النزاع عليها حولها إلى إرث يختلف حوله الورثة أيهم أحق به. والنزاع الذى نشأ عليها والصراع الذى دار من أجلها بدد الإسلام فرقا ، وضيعه شيعا ، وأوجد كثيرا من الفرق الضالة والمذاهب المُضلة.

ومن جانب آخر، فلقد كانت بيوت الخلفاء - عدا قليل منهم - وفيما بعد الخلافة الراشدة - مغانى ومراقص ومحافل ومقاصف ومشارب ؛ يجرى فيها الغناء ويدور الرقص ويقع اللهو

وتُشرب الخمر وتنتشر المباذل. وقلد الخلفاء وزراؤهم، ثم تبعهم المياسير ، ثم عم الفساد كل مكان.

وقد أدى هذا الفساد الشائع إلى أن يقول مسلم ورع (هو بشر بن الحارث) عن بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، فى أوج الخلافة وعز مجدها : بغداد ضيقة على المتقين لاينبغى لمؤمن أن يقيم بها. وقال شاعر يصف واقع الحال فى بغداد ذلك العصر:

قل لمن أظهر التنسك فى النا ∴ س وأمسى يُعَدّ فى الزهاد

إلزم الثغر والتواضع فيه ∴ ليس بغداد منزل العُبّاد

جـ - والخلافة لم تحقق وحدة العالم الإسلامى، فقد كانت توجد فى وقت واحد خلافات ثلاث: الخلافة العباسية فى بغداد، والخلافة الفاطمية فى مصر، والخلافة الأموية فى الأندلس.

وفى فجر الإسلام وإبان الخلافة الراشدة، وُجدت خلافتان إحداهما لعلى بن أبى طالب والثانية لمعاوية بن أبى سفيان . وفى أوائل عهد الخلافة الأموية وُجِدَتْ إلى جانب هذه الخلافة خلافة أخرى كان مركزها مكة وكانت لعبد الله بن الزبير.

وأدى تقطع البلاد الإسلامية فى أوائل القرن الرابع الهجرى (سنة ٣٣٤ هـ ، سنة ٩٣٥ م) إلى أن كانت فارس والرى وأصبهان والجبل فى أيدى بنى بويه، وكرمان فى يد محمد بن إلياس، والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مضر فى أيدى بنى حمدان ، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج الإخشيدى ، والمغرب وشمال افريقيا فى يد الفاطميين ، والأندلس فى أيدى ملوك الطوائف ، وخراسان فى يد نصر بن أحمد الساسانى، والأهواز وواسط والبصرة فى يد البريديين ، واليمامة والبحرين فى يد أبى طاهر القرمطى، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم؛ ولم يبق فى يد الخليفة العباسى ووزرائه إلا بغداد وأعمالها.

د - والخلافة لم تحقق عزة للإسلام ومجدا للمسلمين بصورة دائمة مستمرة، وإنما كان شأنها فى ذلك شأن أى امبراطورية أو قيصرية أو كسروية ، تمر بها فترات عزة ومجد وانتصار ، ثم تدول بها الأيام فتتحول العزة إلى هوان ويصير المجد إلى فشل وينتهى الإنتصار إلى هزائم.

ويشكو المؤرخ المسلم «المسعودى» مما حدث للاسلام فى عصره فيقول: ضَعُفَ الإسلام في ذلك الوقت وذهب ، وظهر الروم على المسلمين ، وفسد الحج، وانتشر عدم الجهاد ، وانقطعت السُبل ، وفسد الطريق ... ثم يضيف : ان الإسلام كان مستظهرا (أى غالبا) حتى ذلك الوقت، فتداعت دعائمه وهى أسّه.

ويضيف المؤرخ المسلم «المقدسى» قائلا عن بغداد عاصمة الخلافة العباسية :- كانت أحسن شئ للمسلمين، وأجَلّ بلد ... حتى ضعف أمر الخلافة فاختلّت وخف أهلها. فأما المدينة فخراب، والجامع يعمر فى الجُمع، ثم يتخللها بعد ذلك الخراب .. وهى كل يوم إلى ورا .. مع كثرة الفساد والجهل والفسق وجَور السلطان ...!

هـ - والخلافة لم تنشر الإسلام الحق، ولم تخدم المسلمين. ذلك أنها نشرت للاسلام صيغة سياسية عسكرية أساءت اليه وشوهته. ولو لم يتم غزو البلاد التى أسلم أهلها فيما بعد، وتم نشر الإسلام والدعوة إلى الشريعة من خلال الأفراد والجماعات - لاعن طريق السلطة - كما حدث فى نشر الإسلام فى وسط وغرب أفريقيا وفى جنوب شرق آسيا - لكان ذلك أفضل للإسلام وأنقى لقيمه، ونفيا لأى ادعاء يزعم أن الإسلام قد انتشر بحد السيف أو ضغوط السياسة أو إكراه السلطة.

ونشر الإسلام فى ربوع الأماكن المفتوحة - إن كان نجاحا - فإنه لا يُقاس بمدى ما ألحق بالمسلمين من هوان، وماضيع لهم من حقوق، وما جمّد لهم من فكر، ومابذر بينهم من شقاق، وما انتهى بهم إلى فراق.

د - والخلافة لاتعد رمزا للإسلام. فالرمز يجب أن يكون من طبيعة المرموز إليه. وإذ كان الإسلام - فى الأصل - عدالة وحرية ومساواة ورحمة فإنه يتعين أن تتجسد فى أى رمز عنه معانى العدالة والحرية والمساواة والرحمة. فإذا كان ذلك، وكانت الخلافة - كما يبين من واقعات التاريخ وأحداثه - مثالا للمظالم والإستبداد والتفرقة والعسف، فإنها لايمكن أن تكون رمزا للاسلام، ومن يعتبرها رمزا له إنما يسئ إلى الإسلام ويلطخ سمعته ويشوه صورته، إذ يطابق بين العدالة والمظالم، والحرية والإستبداد، والتفرقة والمساواة، والرحمة والقسوة؛ وما أبعد هذه عن تلك !!

تزييف التاريخ

وقد يُرد على ذلك بما قد قيل من أن التاريخ الإسلامى قد زُيف وحُرِّف، وأنه لايمكن الإستناد إليه فى تقييم نظام كنظام الخلافة.

ودعوى تزييف التاريخ هذه دعوى عريضة غير مسبوقة ، مرسلة دون ما تحديد، تمتد - دون أن يدرى من يعتنقها ومن يُطلقها - إلى مصدر التراث الإسلامى ذاته، فتضفى عليه غلالات من الشك وظلالات من الريبة.

فدعوى تزييف التاريخ دعوى حديثة لم يقل بها أحد من القدماء الثقات المشهود لهم بكتابة التاريخ مثل الطبرى، والسيوطى، وابن الأثير وغيرهم . وهى تُرفع فى الآونة الأخيرة من جانب تيار الإسلام السياسى، ومن يلوذ به أو ينتفع منه أو يسعى إليه ، بقصد اسقاط الحجج المقابلة الدامغة التى أثبتت ، من واقع التاريخ ومن صميم الأحداث ، بطلان دعاوى هذا التيار؛ ومن ثم عمد تيار الإسلام السياسى - وقد أخذته الأقوال الموثّقة وأربكته الأحداث الثابتة وهزمته الأسانيد القاطعة - إلى إنكارها جميعا ، فكان بذلك أشبه مايكون بأوديب - فى الأسطورة الإغريقية - يفقأ عينيه بيديه كى لايرى الحقيقة.

وعندما أُطلقت دعوى تزييف التاريخ ، فإنها أطلقت دون أى تحديد وبغير أى تمييز، وبذلك انطلقت كالغمامة السوداء أو كالضباب الكثيف أو كالرذاذ الوبىء تظل وتلف التاريخ الإسلامى كله ، ولاتفلت منه شيئا. فما الذى زُيف وما الذى حُرّف فى هذا التاريخ؛ وماهى الضوابط وماهى الأدلة ؛ هل تناول التزييف والتحريف سلسلة الخلفاء الذين حكموا المسلمين (كما حدث بالنسبة للفراعنة مثلا) فأسقط منهم بعض ممن حكم أو أضيف بعض ممن لم يحكم!؟ هل تغيرت المواقع الحربية فاستُبدلت موقعة بأخرى، أو اختُرعت معركة لم تحدث ، أو حذفت موقعة حدثت فعلا؟ هل مُحيت أعمال الخلفاء جميعا، أو محيت أعمال بعضهم محوا تاما؛ هل حجبت عن الذكر تلك الفرق التى نشأت لدولة سياسية وأغراض حزبية، أو ابتدأت كمجرد احتجاج أو محض موقف أو بعض رأى ثم ولغت فى السياسة والحزبية كالخوارج ، والقرامطة ، والمعتزلة ، والحشاشين ، والقدرية ، والراوندية، والإسماعيلية وغيرها !؟ هل حرقت جميع الكتب التى تضم التفسيرات المتعارضة وتجمع الآراء المتهافتة؟ هل أبيدت ذاكرة الشعب فلم تعد تذكر حادثا صحيحا أو تعى واقعة محددة أو تفهم قولا واضحا!؟

إن دعوى تزييف التاريخ - سواء أدرك مُطلقها أم لم يدرك - دعوى تمتد باللزوم والضرورة إلى مصدر التراث الإسلامى وأساس البيان الشرعى ، لأن هذا وذاك لم يجمّع ولم يُصنّف إلا فى نفس الأمة وبذات الأسلوب الذى جُمعت به أحداث التاريخ. والجرح والتعديل الذى اتّبع فى تقييم رواة أحاديث النبى (صلى الله عليه وسلم) قام به جامعو الصحاح والمسانيد(٣) بمعايير وضعوها بعقولهم، ولم تكن كافية لمنع وجود أحاديث مدخولة وأخرى منحولة. فإهدار التاريخ الإسلامى كله - بعد دمغه بالتزييف والتحريف - يمكن أن يجر معه، إن لم يكن اليوم فغداً ، أصل التراث الإسلامى ذاته ، وهو ما لا يدرك مغبته الكثير !

إن المؤرخ، قد يميل إلى اختيار بعض الواقعات، أو إضفاء أهمية على واقعات أخرى .. ذلك ما لا شك فيه .

والكاتب قد يلون الأحداث بلون يروقه أو يصبغها بصبغة توافقه... ذلك أمر ملحوظ ومفهوم .

والقارىء، ربما يجنح إلى الإقتناع ببعض الروايات، أو يبالغ فى روايات بذاتها، أو يقلل من شأن روايات أخرى.. هذا أمر معروف عن الطبيعة البشرية .

والمستمع، يجوز أن يرمى إلى تأييد بعض الحكايات والروايات والنّكات، ويعزف عن بعضها الآخر .. ذلك حال أى مستمع فى كل آن وفى كل مكان..، أما أن تتضافر الأمة جميعاً ويتوافق الناس كلهم، خلفاء ووزراء وكتاب ورواة وأئمة وعلماء ونسّاخ وغيرهم على تزييف التاريخ كله وتزوير الأحداث كلها، فهذا ما لا يمكن أن يقبله عاقل أو يرضاه عادل . وحتى إذا رضيه هذا وقبله ذاك فالنتيجة المحتومة رد شهادات وأقوال وكتابات وروايات الأمة

كلها، طالما كانت كاذبة باغية مجترئة لا يمكن التفرقة فيها بين الصحيح والمنحول، بين الصادق والمكذوب؛ هذا فضلاً عن الخلاصة الضرورية التي تنتهي إلى رمى الشكوك ونثر الإتهامات ونشر الريب حول مصادر التراث الإسلامى ذاته .

إنه لما يوافق العقل ويصادق المنطق ويصادف الحق أن يكون بعض الكتاب أو الرواة قد لون الأحداث أو صبغ الواقعات بلون يريده أو صبغة تروقه، أو أن يكون قد ضخم من واقعة معينة لغرض فى نفس الحاكم أو لعلة فى نفسه هو، أو أن يكون قد فعل العكس فصغّر من واقعة معينة لذات الغرض أو ذات العلة؛ أو أن يكون أحد قد تجنب واقعة - لأمر أو غيره - فذكرها الآخر. وما كان يحدث إطراداً - من الكتاب أو الرواة - أن يجزىء الكاتب أو الراوى حادثة معينة أو يفتت واقعة بذاتها، فيأخذ منها شذرة أو شظية أو فسيفساءة ثم يترك باقى الشذرات والشظايا والفسيفساء. لكن الاطلاع الواسع العميق المترابط كان، ولا يزال ، يستطيع جمع شذرات الأحداث فى حادثة واحدة وشظايا الواقعة فى بناء كامل .

السمة الحقيقية للتاريخ الإسلامى والصفة الواضحة للمؤرخين المسلمين أنهم لم يعملوا بأسلوب مترابط أو بمنهج متكامل أو بخطة شاملة، تربط الواقعة بكل أجزائها وتمسك الحادثة بكل عناصرها، بل جرى العمل على مجرد التأكيد على شق واحد وترك باقى العناصر ، أو الإلحاح على جزء مفرد والإلتفات عن الأجزاء الأخرى؛ وذلك على نحو ما سلف بيانه من ذكر فتوحات الدولة الأموية دون أن يُقرن ذلك بهتكها حرمة البلدين المقدسين : مكة والمدينة؛ وكذلك ذكر مناقب المأمون دون بيان المساوئ بجانب الحسنات... وهكذا! .. لكن - كما أنف القول- فإن المطّلع الدءوب والقارىء الواعى والكاتب العدل يستطيع دائماً ضم الأجزاء إلى بعضها لتصبح بناء واحدا، وجمع الصور معاً لتكون صورة واحدة، وإزالة الألوان والأصباغ للوصول إلى اللون الطبيعى والصبغة الحقيقية.

والذى لحقه التحريف ووسمه التزييف حقيقة دون أن يجرؤ أحد على تصحيحه هو بعض الأحاديث والحوادث التى نُسبت إلى عصر النبى (صلعم)، وكان ذلك يقع عمداً بقصد تأييد تصرفات تالية أو تبرير اتجاهات حدثت فيما بعد. والعلة فى هذا التزييف والتحريف هى بذاتها العلة فى نحل الأحاديث واختراع الأقوال لتأييد نظام معين للحكم، أو مساندة رأى جديد يُراد فرضه، أو معاضدة حكم استجد ويُقصد تدعيمه، أو وصم فرقة مناوئة أو جماعات معارضة بالزيغ والضلال.. وهكذا. ومن يتتبع بحياد وعدالة هذا التزييف وذلك التحريف يجد أنه كان يصدر على الدوام من السلطة السياسية أو المعارضة السياسية، ويرجع على الأكثر إلى النزاعات الحزبية، فيهدف إلى خلط السياسة بالإسلام، ومزج التحزب بالشريعة، وتأييد موقف حاكم أو تعزيز وضع حزب. وأهم الأحداث التى زُيفت على عصر النبى (صلعم) هى الادعاء - ظلماً وافتئاتاً - بأنه أمر باغتيال كعب بن الأشرف وأبى رافع سلام بن أبى الحقيق

وعصماء بنت مروان وغيرهم. وكان هذا التزييف- بالطبع- يرمى إلى تبرير اغتيال الخصوم غشا واختيانا (وقد دحضناه فى بحثنا عن تاريخ الإرهاب فى الشرق الأوسط المنشور فى كتابنا معالم الإسلام). وغير هذه الواقعات كثير سوف يلى بيان بعضه .

ومع كل ذلك، فإذا كانت دعوى تزوير التاريخ الإسلامى كله وتزييفه بأجمعه محل إصرار وموضع الحاح فإنه لابد أن يكون من المفهوم أن هذا الادعاء لا يعطى أنصاره الحق فى أن يحذفوا من التاريخ ما يشاءون بدعوى تزويره ويرفعوا ما يريدون بحجة تزييفه، ثم انتخاب ما يرون بزعم صحته. فمقتضى الأخذ بهذه الدعوى إسقاط التاريخ الإسلامى كله، لا حدثاً واحداً ولا واقعة معينة ولا فعلاً بذاته ولا قولاً محدداً. ومتى أسقط التاريخ كله فقد عاد الأمر إلى العقل يحكم طبقاً لضوابطه ويقضى وفقاً لمعاييره . وهو أمر لن يضير العقلاء ولن يسيىء إلى المحايدين؛ لأن معايير الفكر السليمة وضوابط العقل الصحيحة سوف تصل من أى طريق، وخلال أى منهج، إلى نفس النتائج التى وصل إليها هؤلاء العقلاء والمحايدون، وإلى ذات الأحكام التى تنتهى إليها عقولهم .

خلاصة البيان، ورجع الجدل، انه إما اعتبار التاريخ كله، وإما حذفه جميعاً، والركون من بعده إلى العقل. فإذا أخذ بالتاريخ، فإنه يكون على أى مؤرخ أو قارىء أو مستمع أن يدأب ويثابر حتى يجمع الأحداث والواقعات فى بناء موحد وبمنهج مترابط وفى لون محايد، قد تكون فى بعض أجزائه قلقلة أو غموض، وقد يكون فى بعض أحداثه تهويل أو يكون فى بعضها الآخر تهوين، لكنه سوف يكون فى مجموعه تاريخاً استطرادياً متتابعاً متكاملاً، إن لم يكن صحيحاً تمام الصحة فهو أدنى إلى الصواب وأقرب إلى الصحة؛ وهذه هى سمة التاريخ دائماً وصفته فى كل آن (وذلك بعض ما يهدف إليه هذا الكتاب).

ميزان التقدير

مما لا شك فيه أن للخلافة بعض عناصر إيجابية، فهى ليست سلباً كلها ، (وقلما يوجد نظام حكم سالب كله)، غير أن ذلك لا يغير من طبيعة أنها نظام سياسى- غير دينى- وأنه كان من الممكن أن يوجد للمسلمين- بعد الخلفاء الراشدين، أو منذ بداية الخلافة- نظام حكم سياسى منظم واضح أفضل ، يحقق ما حققته الخلافة من إيجابيات ويتلافى ما نتج عنها من سلبيات. ووصفها بأنها اسلامية لا يغير موازين التقدير ولا يعدل معايير التقييم فيجعل الحكم عليها خاضعاً للأهواء مشوباً بالعواطف مشرباً بالأمانى . إن الحكم العقلى السليم والتقدير الفكرى الصائب هو الذى يضع المثالب مع المحاسن، ويضم السلبيات إلى الإيجابيات، ليحصل على صورة واقعية وليصل إلى نتيجة سليمة.

وليس ما حققته الخلافة من إيجابيات ضريب وحده، فله أمثلة كثيرة مشابهة من التاريخ.

وعلى سبيل المثال فقد استطاعت روما المدينة- وحدها- أن تقيم الإمبراطورية الرومانية، وتحتل العالم القديم كله، وتستطيل مدة سبعة قرون. وفى العصر الحديث استطاعت انجلترا أن تكون امبراطورية لا تغيب عنها الشمس، وأن تنقل حضارتها إلى شتى أنحاء العالم، وتجعل من تقاليدها تقاليد الملايين، ومن لغتها اللغة الأولى فى العالم كله .

الفتح المادى أمثلته كثيرة، أما المهم حقيقة فهو الفتح الروحى، هدف الإسلام الحقيقى. وإذا كانت الخلافة الإسلامية قد نشرت الإسلام أو حافظت على بيضته، فإن الإسلام كان يمكن أن ينتشر بصورة أنقى وصيغة أرقى لو لم ينتشر بواسطة خلافات عسكرية مستبدة، غيرت من معالم الدين، وحرفت من مفاهيم الناس، وقضت على روح الإسلام فى العدالة والحرية والمساواة والرحمة . ولئن كانت الخلافة قد حافظت على البلاد الإسلامية فقد كان ذلك لفترة، دالت بعدها الأمور وتغيرت الأوضاع فهاجم هذه البلاد واستولى عليها التتار والفرنجة، ثم استعمرت دول أوروبا أغلب بلادها دون أن تستطيع الخلافة (الإمبراطورية) العثمانية حمايتها أو الذّب عنها أو الحفاظ عليها، بل ان هذه الخلافة كانت أواخر القرن التاسع عشر ضعيفة عليلة تسمى رجل أوروبا المريض .

والتقييم الصحيح للخلافة الإسلامية هو بما فعلته بروح الإسلام وشريعته الغّراء وبالإنسان المسلم نفسه. فإذا كانت آثارها فى ذلك سلبية - لأنها بددت روح الإسلام وجمدت شريعته وضيعت الإنسان المسلم وفرطت فى حقوق الناس وأغفلت حقوق الله- فإنها تكون قد أخفقت تماماً وانتهى أمرها بالفشل والخذلان. وكل ما فعلته بعد ذلك ليس إلا عمل امبراطوريات وفعل أباطرة، لم يقصد وجه الله حقاً ولم يهدف إلى رفعة الإنسان أبداً .

هوامش وتعليقات

(١) يراجع :

١- دكتور يوسف مراد. مبادىء علم النفس العام - دار المعارف بمصر .

2- Sigmund Freud, Psychopathology of Everyday life, A pelican Book .
3- Joseph Jastrow, Freud : his dreams and sex theories .
4- Encyclopedia Britannica, 1977, Micro, VIII, p 961 .
5- Encyclopedia Americana, v 24 p 353 .

(٢) يراجع :

١- جوستاف لوبون - روح الجماعات - ترجمة عادل زعيتر - دار المعارف بمصر .
٢- جوستاف لوبون - السنن النفسية لتطور الأمم - ترجمة عادل زعيتر - دار المعارف بمصر .

3- Morris Ginsberg, the Psychology of Society, Londn .
4- R . M Maciver, Sharles Page; Society, an Intraductory Analysis .

(٣) الصحيح (والجمع صحاح) فى كتب الأحاديث هو الكتاب الذى يجمع أحاديث (النبى) على الأبواب (باب الصلاة، باب الزكاة، باب الطهارة وهكذا..) ، والمسند (والجمع مسانيد) تجمع فيه الأحاديث على حسب الرواة من الصحابة، فتجمع الأحاديث التى رواها عمر بن الخطاب - مثلا - عن النبى (صلى الله عليه وسلم) مهما اختلفت موضوعاتها من صلاة أو زكاة أو ميراث. وهكذا فأساس الجمع فى الصحيح وحدة الموضوع، وأساس الجمع فى المسند وحدة الصحابى الراوى.

ومثل الصحاح : صحيح البخارى وصحيح مسلم، ومثل المسند : مسند ابن حنبل .

تاريخ الخلافة الإسلامية



شبه جزيرة العرب
فى العصر الجاهلى(*)

(*) لمن لايريد أن يتعمق فى التأصيل التاريخى أن يتجاوز هذا الفصل إلى الفصل الذى يليه.

لم تكن شبه جزيرة العرب[١]، فى العصر الجاهلى، قبل ظهور الإسلام والرسالة المحمدية، أرضا قاحلة ماحلة، بلا حضارة أو مدنية[٢]، معزولة عن العالم أجمع؛ لكنها كانت - رغم البوادى والمفازى وتناثر البدو وتكاثر الأعراب[٣]، تضم مدنا وقرى، وكانت فى بعضها مدنيات وكانت فى بعضها حضارات ؛ وإن كانت فى مستوى عام يقل عن جيرانها من الفرس والروم والحبشة ومصر. هذا إلى أن بعض الممالك والإمارات كانت قد قامت فى الجنوب وإلى الشرق وفى الشمال من شبه الجزيرة.

ولفظ «جاهلى» لايعنى عدم معرفة الله بإطلاق، أو عدم التحضر عموما، أو انتشار الجهل وإطباقه، لكنه يفيد هذه المعانى جميعا، على نحو مايبين من الشعر الجاهلى ذاته.

أ - فهو قد يعنى عدم المعرفة بشىء أو بشخص . ذلك أن المعهود فى كلام العرب أن الجهل هو عدم المعرفة، يقال جهلت الشىء إذا لم تعرفه . وفى هذا المعنى يقول الشاعر الجاهلى السموءل بن عاديا ء:

سلى، إن جهلت الناس عنا وعنهم ∴ وليس سواء عالم وجهول[٤]

ويقول المثل : نزو الفرّار استجهل الفرار.

ويقول الشاعر سويد بن أبى كامل:

فركبناها على مجهولها ∴ بصلاب الأرض فيهن شجع

ب - كما أن اللفظ قد يعنى الحمية والغضب السريع واقتراف المظالم . وفى ذلك المعنى يقول النابغة الذبيانى (المتوفى سنة ٦٠٤م):

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل ∴ وكيف تصابى المرء والشيب شامل

ويقول مضرس بن ربعى الفقسى:

إنا لنصفح عن مجاهل قومنا ∴ ونقيم سالفة العدو الأصيد

ويقول آخر :

حليم إذا ما الحلم كان جلالة ∴ وأجهل أحيانا إذا التمسوا جهلى

ويقول كعب بن سعد الغنوى (المتوفى سنة ٦١٧ م):

حليم إذا ما سورة الجهل أطلقت ∴ حبَى الشيب للنفس اللجوج غلوب

ويقول عمرو بن كلثوم (المتوفى سنة ٦٠٠م):

ألا لا يجهلن أحد علينا ∴ فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ويقول عنترة العبسى (المتوفى سنة ٦١٥ م) :

وللحلم أوقات وللجهل مثلها ∴ ولكن أوقاتى الى الحلم أقرب.

ويقول :

سأجهل بعد هذا الحلم حتى ∴ أريق دم الحواضر والبوادى

وفى حديث عبد الله بن عباس (بعد الإسلام) فى هذا المعنى، قال : من استجهل مؤمنا فعليه إثمه. أى من استجهل مؤمنا (أى حمله على الجهل) فدعاه إلى شىء من خلقه، فأوقعه فى الخطأ، فعليه هو إثمه وذنبه. وفى حديث الإفك : ولكن اجتهلته الحمية، أى حملته الأنفة والغضب ودواعى الإساءة إلى أن يقع فى الجهل (أى الخطأ). وقد قال النبى (صلى الله عليه وسلم) لأبى هريرة عندما سب شخصا بأمه: إنك امرؤ فيك جاهلية ؛ أى فيك عدم الحلم والغضب السريع واقتراف المظالم.

جـ - أما معنى ألفاظ : جهل وجهالة وجاهلية بفهم دينى يفيد عدم معرفة الله أو إنكاره أو عبادة الأوثان، فيلوح أنه حدث، قبل الإسلام، بهذه المعانى الدينية، ابتداء من جماعة المعرفيين (أو الغنوصيون Gnostices (٥)). وهذه الجماعة - أو الفرقة - غير محددة المنشأ تاريخيا، وهناك من يرى أنها ظهرت بوضوح فى القرن الثانى قبل ميلاد المسيح، وأنها استمرت حتى القرن العاشر الميلادى. وثم آراء على أن هذه الفرقة - أو الجماعة أو النزعة أو الاعتقاد - وإن اندثرت ظاهريا، فإن آراءها وأفكارها باقية منتشرة، حتى العصر الحالى.

وترى هذه الفرقة أن الله معرفة: معرفة ذاتية، وبصيرة داخلية، وخبرة شخصية. وفى تقديرها أنه لايمكن أن يحدث إيمان بالله إلا عن معرفة بصيرة، فلا يصل الجاهل - بهذا المعنى - إلى معرفة الله أبدا ؛ ومن لايعرف الله فهو من ثم جاهل. وعدم معرفة الله جاهلية(٦).

وقد ظهرت أفكار هذه الفرقة فى بداية التاريخ المسيحى، كنحلة مسيحية، كانت لها أناجيل خاصة بها، كُشف عن بعضها مؤخرا، ثم نشر فيما بعد فيما يعرف بمكتبة نجع حمادى(٧)، وهى المدينة التى تم فيها العثور على تلك الأناجيل. وقد جاء فى هذه الأناجيل أن الله نور(٨)، وأن المسيح لم يصلب، وأن الذى عانى الآلام وشوهد على الصليب لم يكن المسيح، بل آخر..مجرد مظهر له وشبيه(٩)، وأن المسيح كان آنذاك يضحك على جهل الآخرين(١٠).

وجاء فى هذه الأناجيل كذلك «لقد كُرهنا واضطُهدنا، ليس فقط من جانب هؤلاء الجهال (الوثنيين)، ولكن كذلك ممن حملوا اسم المسيح»(١١). كما جاء فيها دعوة السيد المسيح إلى

المؤمنين به لكى يشهدوا له، ومن ثم فقد كان هؤلاء - فى المحاكمات التى عُقدت لهم بتهم التجديف والإلحاد - يشهدون للمسيح باعتراف لفظى (أو لغوى) يقولون فيه: أنا مسيحى. وإذ كان يعقب محاكماتهم إعدامهم، فقد اختلط لفظ الشهادة للمسيح witness بلفظ الشهادة (أو الاستشهاد) فى سبيل العقيدة Martyrdom[١٢]، وانتقل التداخل إلى اللغة العربية ذاتها (كما دخل معنى الجاهلية باعتبارها وثنية)، فصار لفظ شهيد يعبر عن الشهادة فى مجلس القضاء أو غيره **«ولايضار كاتب ولاشهيد»** (سورة البقرة ٢: ٢٨٢)، كما يعبِّر عن معنى الاستشهاد فى سبيل الله.

* * *

ومفاد ذلك كله أن شبه الجزيرة العربية - قبل الإسلام- لم تكن منطقة جرداء من المدنية قحلاء من الحضارة، بل كانت فيها مراكز لهذه ومراكز لتلك. وأن ألفاظ الجهل والجاهل والجهالة والجاهلية لم تكن تعنى العطل من الحضارة أو البُطل من المدنية، لكنها كانت تفيد ما هو ضد العلم، كما كانت تدل على سرعة الغضب والحدة واقتراف المظالم مما هو ضد الحلم والسِّلم والتروى وحسن الأخلاق. ثم اكتسب اللفظ معنى دينيا - بتأثير فرقة المعرفيين (الغنوصيون) - فصار يعنى الوثنية أو إنكار الله وعدم الشهادة له. واستمر هذا المعنى الى مابعد الإسلام، فصار ثم مفهومان للجاهلية: الشرك والوثنية من جانب، وجاهلية (أو حدة) الخلق من جانب آخر.

ولبيان طبيعة العرب فى العصر الجاهلى، وأثر ذلك على فهمهم للإسلام وعملهم به، فإن الأمر يقتضى تناول ذلك من مناظير متعددة تبحث الحالة السياسية، والحالة العقلية، والحالة الاجتماعية، والحالة الدينية.

الحالة السياسية

كان عرب شبه الجزيرة العربية ينقسمون الى فريقين: اليمنيون أو القحطانيون (اليقطانيون) من جانب، والعدنانيون أو النزاريون أو المضريون أو المعديون من جانب آخر [١٣]. وبين هذين الفريقين يدور التاريخ العربى، والإسلامى، فى صراع مستمر وتنافس متصل وتنازع متبادل.

وكان القحطانيون (أو اليمنيون) يقيمون أصلا فى الجنوب، فى أرض اليمن، أكثر مناطق شبه جزيرة العرب خصوبة وخضرة وازدهارا. وفيها أقيمت عدة ممالك، منها مملكة معن ومملكة حضرموت التى كانت عاصمتها مدينة سبأ الشهيرة.

وكان العدنانيون (المكيون) يقيمون حول مكة، حتى اجتمع الأمر الى قبيلة قريش بزعامة قصىّ بن كلاب، فاستقرت فى مكة ذاتها، وأقامت نظاما سياسيا، سيلى بيانه.

وعندما انهار سد مأرب (بعد سيل العرم من ٤٤٧ - ٤٥٠ م ثم ٥٣٢م) خربت مملكة سبأ

(نسبة إلى عاصمتها) فتركها كثير من القحطانيين وهاجروا إلى الشمال، فمكثت قبيلة منهم (تدعى بنى خزاعة) فى مكة فترة، ثم تركتها، واستقر بعض القحطانيين فى المدينة وانتهوا الى قبيلتى الأوس والخزرج، كما ذهب بعضهم إلى الشمال الأقصى فى سوريا، وبعض آخر إلى الشمال الأدنى من بلاد العرب.

وفى هذه المنطقة الأخيرة تكونت إمارة (أو مملكة) الغساسنة التى كانت توالى، وتخضع، للروم البيزنطيين (الامبراطورية الرومانية الشرقية). وكان هؤلاء البيزنطيين يركنون إلى هذه الإمارة لتحول بينهم وبين غارات البدو الأعراب، بينما كان الفرس يعولون فى نفس الغرض على مملكة (أو إمارة) الحيرة.

وكانت إمارة الحيرة هذه تقع فى منطقة العراق الحالية، فتقف كسد منيع بين الامبراطورية الفارسية، والبدو الأعراب.

وثم تقسيمان لعرب شبه الجزيرة.

ففى التقسيم الأول: عرب عاربة (وهم قبائل عاد وثمود وطسم إلى آخر ذلك)، وقد بادوا. وعرب متعربة (وهم اليمنيون القحطانيون) يُعدون عربا من الدرجة الثانية؛ وعرب مستعربة (وهم العدنانيون) ويعتبرون عربا من الدرجة الثالثة.

وفى التقسيم الثانى: عرب عاربة هم اليمنيون القحطانيون (وهم عرب من الدرجة الأولى). وعرب مستعربة هم العدنانيون (وهم عرب من الدرجة الثانية).

وكان العرب يميزون بعضهم عن بعض، فيضع عرب اليمن القحطانيون عمائم صفر ويرفعون رايات صفر، بينما يضع عرب عدنان (المكيون) عمائم حمر ويرفعون رايات حمر. وكان كل فريق يرفع راياته فى الحرب التى كانت دائما أبدا مستعرة بينهما.

وإلى هذا التقسيم يشير أبو تمام وهو يصف الربيع فيقول:

محمـــرّة مصـفـرّة فكـأنـها ∴ عُصَب تيمّن فى الورى وتمضّر(١٤)

ومنذ قصى بن كلاب استقرت قريش فى مكة وكونت عصبة (وكانت من قبل تدعى قبيلة النضر بن كنانة) .. وقد أنشأ قصى هذا دارا سميت دار الندوة كانت مركز النشاط السياسى والاجتماعى والقبلى، وصار لقريش نظام سياسى وإدارى ينقسم إلى الحجابة، والسقاية، والرفادة، والندوة، واللواء، والقيادة، والمشورة، والأشناق، والقبة، والسفارة، والإيسار والأزلام، والحكومة.

وكانت قبيلة قريش قد انقسمت إلى فرعين (بطنين) كبيرين وثمانية فروع (بطون) أخرى أقل شأنا. والفرعان الكبيران هما بنو هاشم، وبنو أمية (عبد شمس)، أما الفروع الأخرى فهى نوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم. ونظرا للتنافس الشديد على الرياسة (أو الملك أو الإمارة) بين الفرعين الكبيرين بنى هاشم وبنى أمية، وعدم قدرة أحدهما على

السيطرة على الآخر، ومن ثم على الآخرين، ليصبح له وحده الرياسة والسيادة والملك والإمارة، فقد قسمت قريش نظامها السياسى والإدارى بين جميع الفروع؛ ربما فى انتظار فرصة أو زعامة أو قيادة ترجع لأحد الفرعين الكبيرين السيطرة وتجمع الكل تحت إمارة أو مُلك واحد.

والحجابة، هى سدانة البيت الحرام، أى تولية مفتاح بيت الله (الكعبة)، وكانت لبنى عبد الدار، وانتهت فى عهد النبى إلى عثمان بن طلحة.

والسقاية، هى سقى الحجاج كلهم الماء العذب، ونبذ التمر والزبيب والشراب لهم، وكانت لبنى هاشم.

والرفادة، هى إطعام الطعام لسائر الحجاج، إذ كانت تُمد لهم الأسمطة فى أيام الحج. وكانت لبنى نوفل.

والندوة، هى الإشراف على دار المشورة التى تجتمع فيها قريش، وغيرهم من العرب، من أهل الرياسة، ممن بلغ من العمر أربعين عاما. ولم يكن يُعقد نكاح (زواج) لقرشى إلا فيها. وكانت الندوة فى بنى عبد الدار.

واللواء، كان راية معقودة على رمح ينصب علامة على اجتماع الجيش لحرب الأعداء، وكان اسم الراية «العقاب»؛ وكان اللواء لبنى أمية.

والقيادة، هى إمارة الجيش ورياسة الحرب، وكانت تعطى لمن يُندب لذلك وإلا فلبنى أمية حيث كان اللواء .

والمشورة، هى جمع الشورى، وكانت لبنى أسد.

والأشناق، وهى فرض الديات والمغارم، وكانت لبنى تيم (ومنهم أبو بكر الصديق).

والقبة، وهى ماتودع فيه تجهيزات الجيش، والأعنّة (خيول الحرب) وكانت لبنى مخزوم (ومنهم خالد بن الوليد).

والسفارة، هى الإصلاح بين الناس والتوسّط بين القبائل أو بين البطون وكانت فى بنى عـــدى(ومنهم عمر بن الخطاب).

والإيسار والإزلام، وهى ضرْب الميسر وإخراج الأزلام، وكانت لبنى جمح.

والحكومة، هى القضاء بين الناس والفصل فى الخصومات- بالاحتكام - والإشراف على الأموال المحجّرة (أى الموقوفة على المعبودات)، وكانت لبنى سهم.

وهذا التوزّع فى الاختصاصات بين فروع قبيلة قريش كان فى حقيقته تقسيما للسلطات بينهم جميعا، لما سلف بيانه من عدم ظهور زعيم قوى أو رئيس مُطاع يجمع الكل تحت لوائه ويحشرهم فى كنفه. ويقال فى ذلك إنه لم يظهر أحد على هذه الشاكلة والقوة منذ عهد عمرو ابن لحىّ (وهو من خزاعة) . وقد بلغ عمرو هذا فى العرب من الشرف مالم يبلغه عربى قبله ولابعده فى الجاهلية، وذهب شرفه فى العرب كل مذهب حتى صار قوله دينا متبعا لايُخالف .

ويقال - فى كلام البعض - إن عمرا صار للعرب ربا (أى سيدا)، يتخذون مايراه لهم شرعة ومنهاجا، وهو أول من نصب الأصنام حول الكعبة، إذ جاء لكل قبيلة بصنم لمعبودهم ووضعه فى الكعبة ليجمعهم جميعا، ويجعل من كعبة مكة مثابة للعرب كلهم. وكان الحجاج يلبون قائلين «لبيك اللهم لبيك، لبيك لاشريك لك لبيك» لكنّ عمرا أضاف إلى التلبية «إلا شريكا هولك، تملكه وما ملك» فتبعه العرب فى ذلك، وظلت تلك هى تلبية الحجاج حتى أعادها الإسلام الى صيغتها الأولى. وفيما قيل عن عمرو هذا أنه كان له تابع من الجن يوحى إليه(١٥).

ورغم ما أنف بيانه، فقد كان لفظ «الملك» معروفا لدى قريش وعند العرب. وهو لفظ يطلق على الملك، وعلى الأمير (غالبا)، وعلى الرئيس. من ذلك ملكة سبأ وامرؤ القيس ملك الحيرة (الذى لقب نفسه فى نص وجد على قبره، ونقش سنة ٣٢٨ م : ملك العرب كلهم)، هذا فضلا عن ملوك الغساسنة فى الشمال.

وقد ورد لفظ «ملك» فى الشعر الجاهلى مرارا، بمعناه ذاك، فقد قال عبيد بن الأبرص الأسدى (المتوفى سنة ٥٥٥م):

أنـت المليـك عليـهُم ∴ وهـمُ العبـيـد إلـى القيـامـهْ

وقال زهير بن جناب الكلبى :

ونادمت الملوك من آل عمرو ∴ وبعدهم بنـى عبـد السـمـاء

وقال أوس بن حجر :

أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا ∴ لدى الملـوك ذوى أيـد وأفضـال

وعلى الرغم من شيوع لفظ «الملك»، فإن عرب نجد والحجاز كانوا يستعملون فى معناه لفظى «السيد» و«الأمير». أما فى أنحاء اليمن فقد كانوا يطلقون على الرئيس أو الزعيم أو الحاكم لفظ «القيل». وبيان اشتقاق هذا اللفظ - مقارنة بسائر اللغات السامية - يفيد أن معناه الأصلى إنما هو القائل أو المتكلم . ولذلك يُرى أن الرئيس سُمىّ زعيما لأنه يزعم عن جماعته أى يقول عنهم، ومن ثم دُعى قيل أو مقول(١٦). وهذا التقدير الشائع فى اللغات السامية - ومنها العربية - يربط بين الرئيس والقول ويجمع بين المُلكْ والزُّعم، فيفترض أن الرئيس هو من يقول عن جماعته وأن الملك هو من يزعم عنهم، وهكذا. وهذا الفهم يشترط فى الملك أو الحاكم أو الأمير أو الرئيس أو الزعيم قدرة فائقة على التعبير، وفصاحة واضحة فى القول، وطلاقة ظاهرة فى الحديث.

أما الحكومة فلم تكن تفيد فى العصر الجاهلى (وفى صدر الإسلام) معنى سياسة أمور الناس، وإنما كان يُقصد بها - على نحو ما أنف بيانه - وظيفة الفصل فى الخصومات،

والقضاء بطريق التحكيم فى الأنزعة، كما كانت تعنى الحكمة . وفى هذا المعنى يقول النابغة الذبيانى:

فكن كأبيك أو كأبى بـــــراء .·. تصادفك الحكومة والصواب

ويقول ذو الإصبع العدوانى:

بعد الحكومة والفضيلة والنهى .·. طـــاف الزمـــان عليهم بأوان

وقول هزيلة (من طسم) ..

لعمرى لقد حكمت لامتورعا .·. ولا فهـما عنـد الحكومة عالما

وخلاصة الحالة السياسية فى شبه جزيرة العرب - فى العصر الجاهلى - أنه كانت بها أكثر من مملكة (أو إمارة) وأكثر من ملك (أو أمير)، إلا منطقة الحجاز، وبالذات مكة. ذلك أنه نظرا للصراع الحاد والتنافس الشّديد بين الهاشميين والأمويين، وقيام شبه توازن بينهما، فإنه لم يقم فيهم ملك، وإنما توزعت الرياسات والإمارات على كافة بطون قريش، على ماسلف إيضاحه.

على أن فراغ الرياسة وخلو الزعامة لم يمنع قريش من أن تتطلع دائما إلى قائد وقائل، يوحّد كلمتها ويجمع شملها ويرفع شأنها؛ وكان مثّلها فى ذلك عمرو بن لحى (من خزاعة التى سيطرت على مكة قبل قريش) أو مثل قصى بن كلاب الذى جمع قريشا تحت لوائه ومكن لها من السيطرة على مكة وشغْل مكان متميز فى شبه جزيرة العرب.

وإلى جانب هذا التطلع من قريش الى ملك أو أمير، فإن المؤرخين يرصدون قيام حركة كبيرة بين زعماء الحجاز - فى القرن السادس الميلادى (وهو القرن الذى ولد فيه النبى صلى الله عليه وسلم سنة ٥٧٠م) - أفضت إلى صراعات ونضالات حيث كان كل واحد منهم يطمع فى أن يستأثر بالحكم ليتمكن من أن يشيد أركان مملكة جديدة(١٧).

وتطلع قريش إلى مُلك أو إمارة، من جانب؛ وطمع زعماء الحجاز فى الملك والإمارة من جانب آخر، أمران كان لهما أثر بالغ شديد النتائج بعيد المدى على فكرة النبّوة ثم على نظام الخلافة الإسلامية. ذلك أن العرب - تحت تأثير هذين الاتجاهين - لم يستطيعوا استيعاب فكرة النبوة أو تمثل مبدأ الوحى، وإنما نظروا إليهما بمنظار الملك وحكموا عليهما بتأثير الإمارة.

وفى هذا المعنى يقول عبدالله بن الزبعرى:

لعبـت هاشـم بالملك فلا .·. خبر جاء ولا وحى نزل.

ويقول الوليد بن يزيد، الخليفة الأموى (٧٠٧ - ٧٤٤م) والذى حكم من ١٢٥ هـ /٧٤٣م إلى ١٢٦ هـ / ٧٤٤م.

تلعب بالنبوة هاشمي .'. بلا وحي أتاه ولا كتاب

وإذا كانت النبوة ذاتها قد فُهمت من جانب القرشيين، وغيرهم، على أنها ملك وإمارة ؛ فلا غرابة أن تكون الخلافة فى تقديرهم ملكا صريحا وإمارة محضة. ومن هذا المنزع، فإن الصراع والتنافس بين الهاشميين والأمويين - على سيادة قريش والإمارة عليهم - سرعان ماظهر مع نظام الخلافة، واحتد واحتدم باسم الدين وتحت لواء الشريعة، حتى أصبحت الخلافة الإسلامية، بل والتاريخ الإسلامى نفسه، وحتى وقت قريب، بيانا ونتائج لهذا التنافس وذلك الصراع.

الحالة العقلية

قيل قديما : إن الشعر ديوان العرب(١٨)، بمعنى أن الشعر كان دائما سجلا واقعا حيا لأخلاقهم وعاداتهم وعقليتهم وعقائدهم، وفى جملة واحدة: إن الشعر كان ذات أنفسهم. وليس يعنى هذا أن كل الناس كانوا على مستوى الشعراء وفهمهم، أو كانوا عى عقيدتهم؛ لكنه يفيد تعبير الشعر عن طبائع الناس وعوائدهم وتفكيرهم، كما أنه غالبا مايسفر عن حقيقتهم.

فالشعر - فى لغة العرب - يعنى العلم. يقال «ليت شعرى» أى ليت علمى. وأشعره بالأمر أى أعلمه به، ومن ثم فالشاعر هو العالم ؛ ويقصد به من يشعر (أى يعلم) بما لايشعر به (أى يعلم به) غيره. وقد جاء فى القرآن الكريم لفظ «يشعركم» بمعنى «يعلمكم» «ومايشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون» (سورة الأنعام ٦:١٠٩)(١٩)

ولأن الشعر ديوان العرب كما سلف، ولأن الشاعر يعلم مالايعلمه غيره، فإن استكناه الشعر الجاهلى واستجلاء أفكار الشعراء يكون أمرا لازما، لامحيص عنه ولامعدى منه، لبيان الحالة العقلية فى العصر الجاهلى.

وقد حوى الشعر الجاهلى آراء مؤمنة بالله، وآراء ملحدة، وآراء عدمية.

أ - فمن الشعر الذى حمل الإيمان بالله وعبر عنه:

يقول امرؤ القيس (المتوفى سنة ٥٦٥م) :

تلك السحاب إذا الرحمان أرسلها .'. روى بها من محول الأرض إيباسا

تلك الموازين والرحمان أنزلها .'. رب البرية بين الناس مقياسا

ويقول :

أرى إبلى والحمد لله أصبحت .'. ثقالا إذا ما استقبلها صعودها

ويقول حاتم الطائى (المتوفى سنة ٦٠٥م).

إلههمُ ربى وربى إلههم .'. فأقسمت لا أرسو ولا اتمعد

ويقـول :

لا أخذل المولى وإن كـان خاذلا .·. ولا أشـتم ابن العم إن كان مفحمـا

لحى الله صعلوكا مناه وهمـه .·. من العيش أن يلقى لبوسا ومطعما

ويقول :

أ أفضح جارتى وأخون جـارى .·. معـــاذ اللـــه أفعـل ماحيـــيت

ويقول :

أتانى من الديان أمـس رسالـة .·. وعذرا بحـى مايقـول مواسـل

ويقول :

نظرت بعينه فكففت عنه .·. محافظة على حسبى ودينى

ويقول النابغة الذبيانى (المتوفى سنة ٦٠٤م) فى وصف ملوك غسان:

محلتهم ذات الإله ودينهم .·. قويم فما يرجون غير العواقب

ويقول:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة .·. وليس ورا ء الله للمرء مذهب

ويقول :

فلما رأى أن ثمرّ الله مالـه .·. فأصبح مسرورا وسد مناقره

......

ولما وقاهـا اللـه ضـربة فأسـه .·. وللبـر عـين لاتغـمض ناظره

فقـال تعالى نجعل الله بيننـــا .·. على مالنا أو تنجزى لى آخره

فقالت معاذ الله أفعل إننـــى .·. رأيتك مسحورا يمينك فاجره

ويقول قس بن ساعدة(المتوفى سنة ٦٠٠م):

الحمـــد للـــه الـــذى .·. لـم يخـلق الخلـق عبـث

ويقول المتلمس (المتوفى سنة ٥٨٠ م) :

واعلم علم حق غير ظن .·. وتقوى الله من خير العتاد

ويقول طرفة (المتوفى سنة ٥٦٤ م) :

لتنقبن عنى المنية إنْ .·. نّ الله ليس لحكمه حكم

ويقول ورقة بن نوفل (المتوفى سنة ٥٩٢ م):

بدينــك ربــا ليس ربا كمثلـه .·. وتركك جنّات الجبال كما هـيا

وإدراكك الدين الذى قد طلبته .·. ولم تك عن توحيد ربك ساهيا

أدين لرب يستجيب ولا أرى .·. أدين لمن لايسمع الدهر داعيا
أقول إذا صليت فى كل بيعة .·. تباركت قد أكثر باسمك داعيا

ويقول أعشى قيس (المتوفى سنة ٦٢٩ م) :

وذا النصب المنصوب لاتنسكنه .·. ولاتعبد الأوثان والله فاعبدا

ويقول :

لأعطاه رب العرش مفتاح بابها .·. ولو لم يكن باب لأعطاه سلما

ويقول المثقب العبدى (المتوفى سنة ٥٨٧ م) :

وأيقنت إن شاء الإله بأنه .·. سيبلغنى أجلادها وقصيدها

ويقول عدى بن زيد (المتوفى سنة ٥٨٧ م):

سعى الأعداء لا يألون شرا .·. عليك ورب مكة والصليب

ويقول :

ناشدتنا بكتاب الله حرمتنا .·. ولم تكن بكتاب الله ترتفع

ويقول سلامة بن جندل (المتوفى سنة ٦٠٨ م) :

كم من فقير بإذن الله قد جبرت .·. وذى غنى بوأته دار محروب

ويقول ذو الإصبع العدوانى (المتوفى سنة ٦٠٢ م):

لولا أواصر قربى لست تحفظها .·. ورهبة الله فيما لايعادينى
الله يعلمنى والله يعلمكم .·. والله يجزيكم عنى ويجزينى

ويقول الحصين بن الحمام (المتوفى سنة ٦١١ م):

أعوذ بربى من المخزيا .·. ت يوم ترى النفس أعمالها
وخفت الموازين بالكافر .·. ين وزلزلت الأرض زلزالها
وسُعِّرت النار فيها العذاب .·. وكان السلاسل أغلالها

ويقول عنترة العبسى (المتوفى سنة ٦١٥ م) :

قسما بالذى أمات وأحيا .·. وتولى الأرواح والأجساما

ويقول :

يقصون ذا الأنف الحمى وفيهم .·. حلم وليس حرامهم بحلال

ويقول :

إذا حمى الوغى نروى القنا .·. ونعف عند تقاسم الأنفال

ويقول :

مـــا ء الحياة بـذلة كجهـنم .·. وجهـنم بالعز أطيب مـنزل

ويقول الحارث بن الكلزة :

وفعـلنا بهم كما علم اللـه .·. ومـا إن للخـائنين دمـاء

ويقول مويلك المزموم يرثى أمرأته:

صلى عليك الله من مفقودة .·. إذ لا يلائمك المكان البلقع

ويقول آخر :

صلى الاله على صفى مدرك .·. يوم الحساب ومجمع الأشهاد (٢٠)

ويقول أمية بن أبى الصلت (المتوفى سنة ٦٢٤م):

كل دين يوم القيامة عنـ .·. ـد الله إلا دين الحنيفة زور

ويقول :

إلـه العالمين وكل أرض .·. ورب الراسـيات من الجبـال

بناها وابتنى سبعا شدادا .·. بـلا عمـد يُرين ولارجال

وسـوّاها وزينهـا بنـور .·. من الشمس المضيئة والهلال

ويقول :

إلـى اللـه أهـدى مدحتى وثنائيا .·. وقولا رصينا لاينى الدهر باقيا

إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه .·. إلـه ولا رب يكـون مدانيـا

ألا أيهـا الانسـان إيـّاك والـردى .·. فإنـك لاتخفـى مـن اللـه خـافيا

ويقول لبيد (المتوفى سنة ٦٧١ م):

ألا كل شىء ما خلا الله باطل .·. وكـل نعـيم لا محـالة زائـل

ويقول :

وكل امرىء يوما سيعلم سعيه .·. إذا كُشفت عند الإله الحصائل

ويقول :

إن تقـوى ربنـا خـير نفـل .·. وبـإذن اللـه ريثى وعجل

أحمـد اللـه، فـلا نـد لـه .·. بيـديه الخير ماشاء فعل

من هداه سـبل الخير اهتدى .·. ناعم البال ومن شاء أضل

ويقول عمرو بن كلثوم (المتوفى سنة ٦٠٠م) :

معاذ الإله أن تنوح نساؤنا .·. على هالك أو أن تضج من القتل

ويقول زيد بن عمرو بن نفيل (المتوفى سنة ٦٢٠ م) :

عذت بمن عاذ به إبراهيم .·. مستقبل الكعبة وهو قائم

ويقول :

لاهمّ إنى حرم لاحلة .·. وإن دارى أوسط المحلة
عند الصفا ليس به مضلة

ويقول :

فلا العزّى أدين ولا ابنتيها .·. ولاصنمى بنى طسم أدير
أربا واحدا أم ألف رب .·. أدين إذا تقسمت الأمور
ولكن أعبد الرحمن ربى .·. ليغفر ذنبى الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها .·. متى ماتحفظوها لاتبوروا

ويقول :

أسلمت وجهى لمن أسلمت .·. له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحاها فلما رآها استوت .·. على الماء أرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمت .·. له المزن تحمل عذبا زلالا

(ب) ومن الشعر الملحد والعدمى مايقوله الأعشى المتوفى سنة ٦٢٩م).

إستأثر الله بالوفاء وبالعـ .·. ـدل وولّى الملامة الرجلا

ويقول آخر :

حياة ثم موت ثم بعث .·. حديث خرافة يا أم عمرو

ويقول زهير بن أبى سلمى (المتوفى سنة ٦٢٧م).

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب .·. تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

(جـ) ومن الشعر الذى يحمل ألفاظا دينية وتعبيرات دينية مثل : الوحى، الشريعة، النذير، خليل الله، البر، النوافل، مكارم الأخلاق، قصد السبيل، جبريل وميكال، سنّة وغيرها.

يقول زهير بن أبى سلمى (المتوفى سنة ٦٢٧م).

لمن الديار غشيتها بالفرفر .·. كالوحى فى حجر المسيل المخلد

ويقول :

دار لأسماء بالغمرين مائلة .·. **كالوحى** ليس من أهلها أرم

ويقول عدى بن زيد (المتوفى سنة ٥٨٧م):

ينتاب بالعرق من بقعان معهده .·. ماء **الشريعة** أو فيضا من الأجم

ويقول دريد بن الصمة (المتوفى سنة ٦٠٣ م):

فالطعن منى فى الوغى **شريعة**

ويقول ورقة بن نوفل (المتوفى سنة ٥٩٢ م):

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم .·. أنا **النذير** فلا يغرركم أحد

ويقول:

تلاقى **خليل الله** فيها ولم تكن .·. من الناس جبارا إلى النار هاديا

ويقول زهير بن أبى سلمى (المتوفى سنة ٦٢٧ م):

ومن يومى لايذمم **ومن يُهد قلبه** .·. إلى مطمئن البر لايتجمجم

ويقول النابغة الذبيانى (المتوفى فى سنة ٦٠٤ م):

لولا الهمام الذى ترجى **نوافله** .·. لقال راكبها فى عصبة سيروا

ويقول امرؤ القيس (المتوفى ٥٦٥ م):

وكل **مكارم الأخلاق** صارت .·. إليه همتى وبه اكتسابى

ويقول عبيد يغوث (المتوفى ٥٨٥ م):

أحقا **عباد الله** أن لست سامعا .·. نشيد الرعاء المقربين المثاليا

ويقول أمية بن أبى الصلت (المتوفى سنة ٦٢٤ م):

أمين **لوحى القدس جبريل** منهم .·. **وميكال** ذو الروح القوى المسدد

ويقول خالد بن عتبة الهذلى:

ولاتجزعن من سيرة أنت سرتها .·. فأول راض سنّة من يسيرها

ويقول نصيب :

كأنى **سننت** الحب، أول عاشق .·. من الناس إذ أحببت من بينهم وحدى

ويقول لبيد (المتوفى سنة ٦٧١ م):

ومن معشر **سَنّت** لهم آباؤهم .·. ولكل قوم **سُنّة** وإمامها

ويقول المتلمس (المتوفى سنة ٥٨٠ م) :

لأورث بعدى **سُنّة** يقتدى بها .·. وأجلو عن ذى شبهة أن أتوها

ويقول الحصين بن حمام (المتوفى سنة ٦١١م) :

وخفت الموازين بالكافرين .·. **وزلزلت الأرض زلزالها**

ونادى مناد بأهل القبور .·. فهبوا لتبرز أثقالها

ويقول :

فواعجبا حتى خصيلة أصبحت .·. موالى عز لاتحل لها الخمر

ويقول عنترة العبسى (المتوفى سنة ٦١٥ م) :-

وبعد العسر قد لاقيت يسرا .·. وملكا لا يحيط به الكلام

ويقول :

قسما بالذى أمات وأحيا .·. وتولّى الأرواح والأجساما

ويقول امرؤ القيس (المتوفى سنة ٥٦٥ م) :-

ومن الطريقة جائر وهدى .·. قصد السبيل ومنه ذو دخل

ويقول زهير بن أبى سلمى (المتوفى سنة ٦٢٧ م) :-

سألنا فأعطيتم وعدنا وعدتم .·. ومن أكثر التسآل يوما سيحرم

ويقول كعب بن سعد الغنوى (المتوفى سنة ٦١٧ م) :-

فإن تكن الأيام أحسنّ مرة .·. إلى فقد عادت لهن ذنوب

ويقول النابغة الذبيانى (المتوفى سنة ٦٠٤ م) :-

ألم تر أن الله أعطاك سورة .·. ترى كل ملك دونها يتذبذب

ويقول رؤية بن العجاج :-

ومسهم مامس أصحاب الفيل .·. ترميهم حجارة من سجيل

ولعبت طير بهم أبابيل [٢١]

ويقول الأعشى :-

واستشفعت من سراة الحى ذائقة .·. فقد عصاها أبوها والذى شفعا

ويقول امرؤ القيس :-

أتت حجج بعدى فأصبحت .·. كخط زبور فى مصاحف رهبان

ويقول أوس بن حجر :-

وباللات والعزى ومن دان دينها .·. وبالله، إن الله منهن أكبر

وإلى جانب هذا الشعر الوفير الزاخر كانت ثَمّ نماذج من النثر ذى التفاعيل الحرة والإيقاعات المرسلة، تقع فيما بين موازين الشعر وسجع الكهان، أنس لها الناس وارتاحوا، فحفظوها وتمثلوا بها، خاصة مع وجود الإيقاع وقيام المقابلات وانتصاب التوازنات، ولجوئها إلى

الاستشهاد بالظواهر الطبيعية من نجوم وأمطار وأراض وبحور، وغيرها، ودعوتها الناس إلى عبادة الله وتقواه، وما إلى ذلك.

وأشهر هذه النماذج النثرية ما يُروى عن قس بن ساعدة الإيادى (المتوفى سنة ٦٠٠ م) والذى سمعه النبى(صلى الله عليه وسلم) قبل الرسالة فى سوق عكاظ، وكان يُعجب به وبقوله أشد الإعجاب فيردده عليه أبو بكر الصديق الذى كان يحفظه عن ظهر قلب، وهو يقول :

«أيها اناس اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا . إنه من عاش مات. ومن مات فات. وكل ماهو آت آت. مطر ونبات. وأرزاق وأقوات . وآباء وأمهات. وأحياء وأموات . وجمع وشتات. وآيات بعد آيات. ليل موضوع. وسقف مرفوع. ونجوم تغور. وأراض تمور. وبحور تموج . وتجارة تروج . وضوء وظلام. وبر وآثام. ومطعم ومشرب . وملبس ومركب . ألا إن أبلغ العظات، السير فى الفلوات، والنظر إلى محل الأموات.. إن فى السماء لخبرا . وإن فى الأرض لعبرا . ليل داج . وسماء ذات أبراج . وأرض ذات رتاج . وبحار ذات أمواج. مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون. أرضوا بالمقام فأقاموا. أم تُركوا هناك فناموا. أقسم بالله قسما حقا . لا آثما فيه ولا حانثا. إن لله دينا هو أحب إليكم من دينكم الذى أنتم عليه.. تَباً لأرباب الغفلة. من الأمم الخالية. والقرون الماضية. يامعشر إياد . أين الآباء والأجداد . وأين المريض والعواد. وأين الفراعنة الشداد. أين من بنى وشيد وزخرف ونجد، وغره المال والولد. أين من بغى وطغى. وجمع فأوعى. وقال أنا ربكم الأعلى. ألم يكونوا أكثر منكم أموالا. وأطول منكم آجالا. طحنهم الثرى بكلكله. ومزقهم بتطاوله . فتلك عظامهم بالية . وبيوتهم خاوية . عمرتها الذئاب العاوية. كلاّ بل هو المعبود...»

وقد قال أحد معاصرى قس بن ساعدة عنه :« دنوت منه وسلمت عليه فرد السلام، وإذا بعين خرارة فى أرض خوراء ومسجد بين قبرين .. قال (قس)، هذا قبر أخوين لى كانا يعبدان الله معى فى هذا المكان لايشركان بالله شيئا.

* * *

وهكذا، فإن شبه جزيرة العرب بعامة، وأرض الحجاز بخاصة، كانت قبل البعثة المحمدية زاخرة بأفكار وآراء وأقوال كثيرة وواضحة ومحددة عن الله، وتوحيد ذاته، وصفاته، واليوم الآخر ؛ كما كانت ثم ألفاظ وعبارات وصيغ دينية متداولة بين الجميع ببساطة وطلاقة مثل : أسلمت، وسنة، وشريعة، ووحى، ونذير، ونوافل، وذنوب، وجهنم، وحلال، وحرام، وشفاعة ومصحف، والله أكبر. وزلزلت الأرض زلزالها، وأبرزت أثقالها، وبعد العسر يسرا، وعدنا وعدتم (أو عدتم وعدنا)، وصلى الله (أو الإله) على فلان، وليس كمثل الله شىء. إلى آخر ذلك.

وقد كان لكل أولئك أثر هام على فهم العرب (أو بالأحرى الكثير منهم) لرسالة النبى

محمد (صلى الله عليه وسلم) وعلى تقديرهم لها، حتى من هؤلاء الذى بشروا بها وكانوا منتظرين لها عاملين بما دعت إليه.

فأمية بن أبى الصلت قال :-

ألا نبىٌّ منا فيخبــرنا   .'.   مابعد غايتنا فى رأس محيانا

ومع ذلك فعندما قابل النبى (صلى الله عليه وسلم) وقرأ عليه النبى أوائل سورة يس أعرض وتأبّى ولم يسلم. وفيما بعد قال عنه النبى (صلى الله عليه وسلم) لقد أسلم شعر أمية ولم يُسلم قلبه . فشعره كله إسلام فى إسلام، ومع ذلك فقد رغب عن الإيمان بالرسالة المحمدية . وزيد بن عمرو بن نفيل (ابن عم عمر بن الخطاب) كان أول من ذكر لفظ الإسلام فى الشعر العربى، وكانت تصرفاته كلها (على نحو ماسوف يلى فيما بعد) إسلاما فى إسلام، ومع ذلك فإنه لم يؤمن برسالة النبى (صلى الله عليه وسلم) مع أنه أدرك الرسالة وتوفى بعدها بفترة .

ولقد جرى بين العرب قبل البعثة النبوية قول يقول «لقد أظل عهد نبى»، ومع ذلك فعندما جاء النبى (صلى الله عليه وسلم) لم يسلموا ولم يسلّموا به، ولعل ذلك راجع إلى انتشار أفكار التوحيد والدين والإسلام والألفاظ والعبارات السالف بيانها على ألسنة الشعراء وفى ديوان العرب وفى وجدان الناس، مما جعل هؤلاء المترددين فى الإيمان بالنبى (صلى الله عليه وسلم) أو العازفين عن الاعتقاد فى رسالته يصدرون فى تصرفاتهم عن اعتبار هذه الرسالة جزءاً من أعمال الشعراء وامتدادا لأقوال الحكماء، صيغت فى أسلوب مغاير للقالب الشعرى ومقارب لأسلوب قس بن ساعدة، وظنوا أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قصد بدعوة الناس إلى الإيمان به رسولا لله ونبيا لهم أن يصبح سيدا عليهم وملكا فيهم، ومن ثم فقد ظلوا أمدا محجوبين عن استيعاب فكرة النبّوة، واستمروا أبدا معزولين عن تشرب مبدأ الرسالة؛ ونظروا إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) نظرة من يرجو سيادة باسم الله، ويطلب ملكا بدعوى النبوة.

ولو أنصَف هؤلاء وهؤلاء لأدركوا أن ورود ألفاظ دينية فى قصيدة لشاعر أو وجود صيغ مشتركة فى الشعر والقرآن لايقدح فى رسالة النبى (صلى الله عليه وسلم) ولا ينال من إعجاز القرآن . فالقرآن نزل بلغة عربية وكان من الضرورى أن تتضمن مفرداته ألفاظا عربية وأن تحتوى آياته على صيغ شائعة، لكنه - مع ذلك - جماع كل قول وفصل أى خطاب، وإعجازه فى شموله وإحاطته وفى تركيبه ذاته . ومن جانب آخر، فإن الشعراء كانوا يطلقون قولا أو رأيا أو مثلا لكنهم لم يعملوا أبدا على إيجاد الحالة الوجدانية العامة التى تجعل من أفكارهم معتقدا كاملا شاملا، وهذا بذاته هو الفارق الهام بين الشاعر والنبى، بين الحكيم والرسول . فالنبى أو الرسول لايكتفى بقول شارد أو برأى واحد. لكنه يعمل جاهدا على نشر الدعوة وعلى تكوين الجماعة المؤمنة، ويجاهد فى ذلك مهما وجد عنتا أو صادف إرهاقا أو تعرض للأذى.

غير أنه مما لاشك فيه أن الأذهان المختلطة والأفهام المضطربة فى استيعاب رسالة النبى (صلى الله عليه وسلم) وتمثل دعوته وتشرب روح الدين، كانت ذات أثر حاسم ومباشر فى

تحول الخلافة إلى ملك، وصيرورتها سلطانا أرضيا ونزوعها إلى السيطرة المادية والانبساط السلطانى والانتشار التملكى، وتنكبها روح الدين وصميم الإسلام.

لقد سلم الناس للنبى طوال حياته، وما إن توفاه الله حتى ظهرت نزعات التأمّر وبدت رغبات التملك ؛ وشيئا فشيئا تحولت الخلافة إلى ملك عضوض وانتهت إلى إمارة دنْيوية.

الحالة الاجتماعية

كانت الحالة الاجتماعية، فى شبه جزيرة العرب، قبل البعثة المحمدية، أخلاطا متنافرة وأمشاجا متناثرة، لا انسجام بينها ولاتوافق أو تقارب. ذلك أن سكان شبه الجزيرة كانوا مختلفين اختلافا شديدا فى أحوال الحضارة والمدنية والبداوة.

ففى مكة، كانت تقيم قبيلة قريش[٢٢]، وكان رجالها يعملون بالتجارة أو يشتغلون بخدمة الكعبة والحجاج؛ وكانوا لذلك يشعرون بتميز خاص واعتزاز بأنفسهم. فمع وجود أكثر من كعبة فى منطقة شبه الجزيرة، مثل كعبة الطائف، وكعبة نجران فى اليمن وغيرهما [٢٣]، فإن وجود مكة فى طريق القوافل، واتجاه سادة قريش الى وضع أصنام لمعبودات البلاد والقبائل الأخرى داخل الكعبة فى مكة؛ هذا وذاك جعل من تلك الكعبة - بالذات - كعبة للناس جميعا ومثابة لكل أهل شبه الجزيرة، يمرون بها فى روحاتهم وغدواتهم ضمن القوافل، أو عندما يقصدون مكة للتجارة، ويجدون فيها أربابهم؛ فيجد أهل الطائف معبودهم اللات، ويجد أهل المدينة معبودهم العزى.. وهكذا. ومؤدى ذلك أن صارت مكة أشبه مايكون بمجمع (بارثينون parthenon) لأرباب العرب، وصارت كعبتها متميزة على باقى الكعبات حتى جبّتهم، وصار أبناء قريش بذلك مُستعْلين على غيرهم، يرون أنهم رجال الله وأنهم سدَنة بيت الله.

وشأن التجار، ورجال الدين، فإن المكيين كانوا يقولون عن غيرهم ممن يقيمون فى مدن (أو بالتعبير القرآنى قرى) أخرى، ويعملون بالزراعة إنّهم أكّاريون، أى حراثين للأرض، أى زراعا، أى فلاحين، وكانوا من ثم يستعلون عليهم. وفى حديث أبى جهل عندما طُعن فى وقعة بدر أنه قال: «لولا أن قتلنى أكارى» . أى أنه لم يكن يأسف لموته، بل يحزن لأن أكّاريا (فلاحا من أهل المدينة) هو الذى قتله.

وكان أهل يثرب (المدينة) - على سبيل المثال - كشأن أهل المدن (القرى) صناعا وزراعا، أهل استقرار وعمل. وكانوا من هذا المعنى ينظرون إلى أهل مكة نظرة دنيا. وقد روى أن بعض المنافقين من الأنصار - فى عصر النبى - كانوا يقولون عن أهل مكة إنهم : الجلابيب[٢٤]، مما يفيد أن هؤلاء كانوا يرتدون الجلابيب ويختلفون بها عن أهل المدينة الذين كانوا يرتدون الحُللْ، وما يعنّى اتجاه أهل المدينة (أو على الأقل من كانت فيهم حمية الجاهلية) إلى الحط من شأن أهل مكة، والنظر إليهم على أنهم أقل منهم حضارة وأدنى مستوى.

وقد استمر هذا الصراع الحضرى بين أهل المدينة (القحطانيون) وأهل مكة (العدنانيون)

زمنا طويلا جدا، وصبغ التاريخ الإسلامى بصبغته، وكان له أثر حاسم على فكرة الخلافة ونظام الحكم فى الإسلام.

ومن أمثلة هذا الصراع أن أهل المدينة ظلوا طوال قرون وجود العرب فى الأندلس فى خلاف دائم مع أهل مكة، يصفون ذوقهم بأنه ذوق «بلدى» نسبة إلى البلد أو البلد الأمين (اسم مكة فى القرآن الكريم) إشارة بذلك إلى أنه ذوق غير مصقول، فيه خشونة وجفاف[٢٥]. كما كان أهل مكة - من جانب آخر. يعتبرون أنهم هم «الناس» وأولادهم هم «أولاد الناس» أى الارستقراطية أبناء الذوات (ذوو الحيثية) وأبناء العلية؛ آخذين لفظ الناس من أنه اللفظ الذى كان يطلق على القرشيين (أبناء قبيلة قريش)، وربما كان ذلك مأخوذا من لفظ «الناسة»[٢٦] وهو أحد أسماء مدينة مكة ؛ فإن نُسبوا إلى الناسة كانوا هم الناس.

وإلى جانب أهل الحضر (أو المدر) الآخرين فى شبه الجزيرة العربية، الذين كانوا يستقرون فى مدن (قرى) مثل الطائف وخيبر وغيرها، كان يوجد أهل الوبر أو الأعراب أو الأعاريب أو العربان الذين كانوا ينتشرون فى البادية[٢٧]. وكان هؤلاء - بلا شك - شأن أهل البدو البّدائيين، أقل كثيرا فى درجات التحضر وأدنى بمراحل فى سلم التمدن. وفيهم يقول القرآن الكريم : «الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله»(سورة التوبة ٩: ٩٧)، ويقول: «قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم» (سورة الحجرات ٤٩:١٤).

وأغلب هؤلاء الأعراب لم يدخلوا الإسلام- كما يقول القرآن - طائعين مختارين للدين ذاته، لكنهم فعلوا ذلك تسليما لسلطة النبى وسلطان المؤمنين من المهاجرين والأنصار، فظلت نظرتهم - من ثم - إلى مقام النبوة نظرة محكومين إلى حاكم، وتابعين إلى سيد، ورعايا إلى ملك، وهى نظرة سوف يكون لها أثرها الخطير فى تحديد معنى الخلافة، والخلط بينها وبين الملكية أو القيصرية أو الامبراطورية.

وليس أدل على تقدير وتفكير هؤلاء الأعراب من أنهم - حتى فى عصر النبى - كانوا يتوقعون المغانم من دخولهم الإسلام. كما كانوا يفهمون الصدقة (الزكاة) على أنها إتاوة ويكرهون أداءها، حتى لقد طلب بعضهم من النبى أكثر من مرة وضعها عنهم أنفة منهم وكبرياء، لولا أن ألزمهم بها القرآن بالآية «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم» (سورة التوبة ٩: ١٠٣)

وبعد وفاة النبى رفض كثير من هؤلاء الأعراب إعطاء الصدقة (الزكاة) إلى الخليفة أبى بكر، اعتبارا منهم بأن هذه الصدقة بنص الآية المنوه عنها خاصة بالنبى وحده، وأن حكمها رُفع عنهم بموته، وهى من ثم تُعد إتاوة إن دفعوها لغير النبى[٢٨]. وقد حاربهم أبو بكر على تفسير له مغاير حتى استسلموا لرأيه وعادوا يدفعون الصدقة (الزكاة) له. غير أنه كانت لهذه

الحرب، ولفهم الأعراب ولتخلفهم الحضارى أثر بالغ على الاتجاه الحربى أو العسكرى فى الإسلام، وعلى فكرة الخلافة ذاتها ورياسة المسلمين عموما.

وأبلغ وصف لهؤلاء الأعراب البدو أهل البادية والوبر، ماجاء فى شعر للقطامى (ولو أنه عاش فى العصر الأموى)، إذ يقول:

فمن تكن الحضـارة أعجبته .·. فأى رجـال بـادية ترانـا؟

ومن ربط الجحاش فإن فينا .·. قنـا سُلُباً وأفراسا حسـانا

وكنّ إذا أغرن على قبيـل .·. فأعوزهن نهب حيث كـانا

أغرن من الضّباب على حلال .·. وضَّبة أنـه من حـان حـانا

وأحيـانا على بكـر أخينـا .·. إذا مـا لـم نجـد إلا أخـانـا

ومن هذا الشعر الذى قيل فى العهد الأموى يبين حقيقة خلق الأعراب أو البدو البدائيين (أهل الوبر)، حتى فى العصر الإسلامى، وكيف أنهم - على عكس ما يقال - قد يتحللون من أى خلق أو رابطة أو قيم أو مثل، حتى ولو كانت الأخوة أو الدين - إذا ما كان فى ذلك سلب أو نهب.

ومن هؤلاء الأعراب نشأت جماعات الصعاليك[٢٩]، وهم فقراء ولصوص معا. كانوا يعيشون جائلين فى القفار والبوادى متحللين من كل رابطة أو خلق، مستخفّين بأى مبدأ أو قيمة، طالبين رزقهم من الصيد والغزو والنهب والسلب.

وفى هؤلاء الصعاليك يقول حاتم الطائى:

لحى اللـه صعلـوكا مناه وهمـه .·. من العيش أن يلـقى لبوسا ومطعمـا

ولله صعلـوك يسـاور همـه .·. ويمضـى على الأحداث والدهر مقدما

ويقول:

عُنينا زمـانا بالتصعلك والغنـى .·. كما الدهر فى أيامه العسر واليسر

ويقول:

ولن يكسب الصعلوك حمدا ولا غنى .·. إذا هو لم يركب من الأرض معظما

ويقول تأبط شرا الفهمى المتوفى سنة ٥٩٠ م:

قليل التشـكى للمهـم يصيبـه .·. كثير الهوى، شتى النوى والمسـالك

يظـل بمومـاة ويمسـى بغيـرها .·. جحيشا ويعرورى ظهـور المهـالك

إذا حـاص عينيـه النوم لـم يـزل .·. له كالئ من قلـب شيحـان فاتـك

ويجعل عينيه ربيئة قلبه .·. إلى سلة من حد أخلق صائك
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدى .·. بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك

ويقول عنترة العبسى:

لحى الله صعلوكا إذا جن ليله .·. مصافى المشاش آلفا كل مجزر
يعد الغنى من دهره كل ليلة .·. أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح طاويا .·. يحت الحصى عن جنبه المتعفر
قليل التماس الزاد إلا لنفسه .·. إذا هو أمسى كالعريش المجور
فذلك إن يلق المنية يلقها .·. حميدا، وإن لم يستغن يوما فأجدر

وهذا الطبع الصعلوكى الذى يتحلل من النظام والروابط ويتعلل بالعدمية والفوضوية كان منتشرا راسخا فى الأعماق، مستقرا كامنا فى النفوس، وإن بدا على السطح فى صور واضحة أو أوضاع ظاهرة؛ وقد كان من أهم الأسباب التى أدت الى خلط الرياسة بالدين وصبغ الخلافة بالشريعة . ذلك لأن أصحاب مثل هذه الطباع - كما يقول عبد الرحمن بن خلدون بحق - لايحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة . وبتعبير آخر، فإن مثل هؤلاء الصعاليك الفوضويين العدميين - وأمثالهم وأضرابهم - وهم كثير، لايدينون لسلطة إلا إذا اصطبغت بالدين، ولايتطامنون لرياسة إلا إذا اختلطت بالشريعة، ولا يخضعون لأحكام إلا إذا كانت مقدسة.

الحالة الدينية

أ - كانت شبه جزيرة العرب، قبل البعثة المحمدية، تموج بكثير من المعتقدات والشرائع.

وجلىّ مما سلف إيراده من الشعر الجاهلى أنه كان لدى كثير من العرب إدراك لوجود إله واحد للكون هو الله، وأنه كانت لكل قبيلة - مع هذا - أو إلى جانب هذا - معبود خاص جعلت له تمثالا، أى صنما.

فكانت اللات (وهى فى الغالب تأنيث لكلمة الله) معروفة فى آثار تدمر والنبط، وكانت تُمثل فى صخرة فى الطائف، وكانت تعبدها ثقيف.

وكانت الُعزى تمثل فى شجرات فى وادى نخلة عن يمين الذاهب من مكة إلى العراق، وكانت تعظمها قريش وبنو كنانة.

وكانت مناة [٣٠] إلهة قضاء الموت، وكانت تتمثل فى صخرة على ساحل البحر تراق عليها دماء الذبائح، وقد كانت تعظمها قبائل الأزد والأوس والخزرج.

وكان هُبَل مصنوعا من العقيق، فى هيئة إنسان.

وكان ثم تمثال لأساف (فى صورة رجل يقال إنه ابن عمرو) على الصفا، وآخر لنائلة (فى هيئة أنثى يقال إنها بنت سهل) على المروة[٣١].

وفى سبيل قريش لتثبيت مكانتها بين العرب، وترسيخ شأن الكعبة (التى آمنوا بأن إبراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام هما اللذان أقاماها) بينهم لتكون مثابة لهم جميعا، فقد عمدت إلى وضع أصنام لهذه الأرباب ولغيرها من أرباب العرب حول الكعبة، لتضمهم إليها وتربطهم بها[٣٢].

وكان العرب يتخذون هذه التماثيل (أو الأصنام) شفاعة لله. ويبين ذلك بجلاء مما جاء فى سبب تنزيل ونسخ آيتين من سورة النجم. ذلك أن النبى (صلى الله عليه وسلم) كان قد تلى على كبراء قريش سورة النجم فقال: «والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وما غوى..... أفرأيتم اللات والعزى. ومناة الثالثة الأخرى» (تلك الغرانيق العلا. وإن شفاعتهن لترتجى) ثم أكمل السورة كلها وسجد فى آخرها، فسجد القوم (من القرشيين) - الذين لم يكونوا قد آمنوا به - جميعا ؛ ورفع الوليد بن المغيرة ترابا إلى جبهته فسجد عليه (لعدم إمكانه السجود على الأرض)، وقالوا قد عرفنا أن الله يحيى ويميت، وهو الذى يخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، فإذا جعلت (والقول للنبى) لها نصيبا فنحن معك. غير أن جبريل عليه السلام قال للنبى (صلى الله عليه وسلم) بعدئذ إنه لم يوح إليه بالجملتين (تلك الغرانيق «الطيور البيض». العلا، وإن شفاعتهن لترتجى) وأوحى الى النبى مايفيد نسخهما. ثم نزلت فى ذلك الآية «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته (تلاوته)[٣٣] فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته» (سورة الحج ٢٢ : ٥٢).

وكان بين العرب من يصلى، بصلاة لا تُعرف . كما كان بعضهم يصوم ويتحنث أى يتحنّف. وكان من هولاء عبد المطلب جد النبى (صلى الله عليه وسلم) الذى كان يتحنث فى شهر رمضان، ويصومه نفس الصيام الذى فرض فى القرآن على المسلمين فيما بعد . وكان العرب يعتمرون ويحجون بنفس الشعائر التى فُرضت على المسلمين بعد ذلك، فيما عدا الاضافة - التى سلف بيانها - إلى التلبية، إذ كانت هذه الاضافة «إلا شريكا هولك، تملكه وما ملك»، قيل إن الذى أضافها هو عمرو بن لحى (من بنى خزاعة)، ثم نسخها الإسلام ورفعها من التلبية.

وظهرت قبل البعثة النبوية بفترة جماعة سمت نفسها : الحنيفية . والحنيفية لفظ مأخوذ من لفظ حنيف العبرى (חנף) [٣٤] وكان اليهود يطلقونه على كل من يختتن دون أن يعتنق اليهودية، وأطلقه العرب على الشىء أو الشخص المستقيم. وقيل إن من كان على دين ابراهيم فهو حنيف عند العرب، وقيل الحنيف من سنته الاختتان، فلما جاء الإسلام سموا المسلم

حنيفا[٣٥]، وقد قرأ البعض الآية الكريمة «إن الدين عند الله الإسلام» بقراءة تقول: «إن الدين عند الله الحنيفية»[٣٦].

وفى معانى الحنيفية، والحنيف، قيل :

تعلـــم أن سيهديـــكم إليـــنا ∴ طـريــق لايجــور بكــم حنــيف

وقيل :

وأدركن أعجازا من الليل بعدما ∴ أقـام الصلاة العـابد المتحـــنف

وقيل :

أقامــت بــه كمقــام الحنيــــ ∴ ــف شهرى جمـادى وشهـرى صفر

وكان أشهر هؤلاء الحنيفية ورقة بن نوفل، وأمية بن أبى الصلت، وقس بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل وعثمان بن الحويرث، وعبيد الله بن جحش. وزيد هذا هو أول من ذكر لفظ الإسلام فى شعره، على نحو ما انف بيانه؛ كما أنه قال للنبى (صلى الله عليه وسلم) قبل البعثة: كيف تأكلون ماذُبح على النُّصب؛ وكان يسند ظهره الى الكعبة ويقول : ليس فيكم من هو على ملة إبراهيم غيرى[٣٧]. وقيل إن عبد المطلب جد النبى (صلى الله عليه وسلم) كان من الحنيفية.

ب - وكانت اليهودية منتشرة فى شبه جزيرة العرب قبل البعثة المحمدية بقرون، وكانت ثم مستعمرات يهودية فى تيماء، وفى فدك وفى خيبر وفى وادى القرى وفى يثرب . وقد كانت أهمها جميعا يثرب هذه التى أصبحت مدينة النبى، أو المدينة اختصارا . وكان اليهود فيها ثلاث قبائل رئيسية هى: بنو النضير، وبنو قينقاع، وبنو قريظة.

ويرى بعض الباحثين أن اليهودية فى بلاد العرب لم تكن تطبق شريعة التلمود بدقة، وإنما بتأويل اقتضته ظروف الحال.

وكان لهؤلاد اليهود كتاب مقدس، هو العهد القديم، الذى يطلق عليه اسم «التوراة»، وكانوا هم يشيرون إليه بلفظ «الكتاب» ويؤمنون أنه قد أوحى به من الله إلى أنبيائهم كلمة كلمة. وكانوا يصلون خمس صلوات كل يوم، اختُصرت إلى ثلاث صلوات، فى أول النهار، وفى وسط اليوم، وعند الليل. وكان لهم دعاء يتلونه - كما جاء فى التلمود (فى المشنا: أى النّصوص) - عندما يظهر الخيط الأبيض من الخيط الأزرق، قبل طلوع الشمس . وكانوا يصومون يوم عاشوراء (يوم كيبور) فى اليوم العاشر من شهر تشرين، وكانوا مطالبين بالإحسان وإعطاء الصدقة (zedakah زَدَقَه). وعند الصلاة - وحيثما كانوا - كان عليهم أن يوجهوا وجوههم إلى بيت المقدس. وكانوا يعتقدون أن اللغة العبرية - التى كانوا يقرءون بها التوراة والتلمود - هى لغة الجنة، أو اللسان المقدس، مع أن هذه اللغة لم تنشأ إلا فى القرن التاسع قبل الميلاد (بعد موسى عليه السلام بأربعة قرون) ولم تصبح لغة حديث إلا فى القرن الثالث الميلادى . وكان يؤذن لنسائهم أن يدخلن المجمع (الكنيس) يوم السبت بشرط وضع الحجاب[٣٨].

وفى التاريخ اليهودى واقعة هامة جدا، ذلك أن الملك اليهودى يوحنان هوركانوس أرغم طوائف بنى أدوم (الأدوميون) على اعتناق اليهودية صاغرين ؛ وكانت حجته فى ذلك أن الأدوميين إخوة لهم فى الجنسية (أى أنهم من جنس واحد)، إذ لم تكن بينهم فروق ظاهرة فى العقلية أو التقاليد، ومن ثم فقد أراد الملك بإرغام هؤلاء الأدوميين على اعتناق اليهودية أن يزيل الفارق الدينى ويوحد الجميع تحت عبادة إله[٣٩] واحد . وهذه الواقعة صارت مثلا في التاريخ، ونموذجا فى الواقع، لتوحيد شعب مُعين أو جماعة من جنس واحد، بإرغامهم جميعا على اعتناق عقيدة واحدة وعبادة إله واحد.

وقد كان ليهود المدينة أثر كبير فى التاريخ الإسلامى، ذلك أنهم لفتوا أنظار الأوس والخزرج إلى قرب ظهور نبى، فلما صادف بعض من هؤلاء النبى (صلى الله عليه وسلم) فى مكة سارعوا إلى بيعته (مبايعته) قبل أن يبايعه اليهود، ورغبة منهم فى أن يتميزوا على هؤلاء بنبى عربى، كما يفخر اليهود بأنبيائهم العبرانيين. ولما هاجر النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة استبشر اليهود به، وظنوا أنه سوف يكون نصيرا لهم - وهم أهل الكتاب - على الأوس والخزرج الذين كانوا مشركين. وقد حرروا مع النبى (صلى الله عليه وسلم) صحيفة للتعاون فى المدينة (سوف يأتى بيانها تفصيلا فى الفصل التالى) . ثم حدث بعد ذلك خلاف بينهم وبين النبى (صلى الله عليه وسلم) لأسباب كثيرة، منها رغبة النبى فى إسلامهم حيث كان يقول : «لو آمن بى عشرة من اليهود لآمن بي اليهود[٤٠] وهو اتجاه للنبى (صلى الله عليه وسلم) لتوحيد الشرائع كلها فى شريعة واحدة، ما أمكن ؛ غير أن اليهود رفضوا الإيمان بالإسلام والتصديق بالنبى (صلى الله عليه وسلم)، لاعتقادهم أنه لارسول بعد موسى عليه السلام، وأن الأنبياء يكونون من بنى إسرائيل.

ولقد كان هؤلاء اليهود يعتقدون أن النبى (صلى الله عليه وسلم) خاص بأمته من العرب الأميين (أو الأمميين أى غير اليهود)، وتصوروه كأحد أنبياء بنى إسرائيل المتأخرين أشعيا وإيليا ودانيال وزكريا وحزقيال وملاخى ويوحنا، هاديا ومبشرا ونذيرا، لا يحكم أبدا ولا يحارب قط . فلما استبانوا له صورة غير ما تصوروه، ربطوا بين النبى (صلى الله عليه وسلم) وبين سليمان بن داود عليهما السلام، وهما عندهم (اليهود) ملكان وليسا نبيين، ثم أذاعوا وأشاعوا هذا الربط والفهم ليصوروا الإسلام على أنه سياسة وليس دينا .

وهذا الفهم وذاك الربط كانا ذا أثر كبير على عقلية المسلمين وفهمهم للخلافة، سواء تم من خلال اليهود الذين كانوا قد أسلموا، وأسلم بعضهم رياء ورئاء ، ليكيدوا للإسلام من داخله، أو تم من سوء فهم بعض العرب للواقع وللمشابهة الإسرائيلية . وقد شاب ذلك معنى الخلافة بكثير من الخطأ وكان له أثر بليغ فى صبغها - فيما بعد - بصبغة الملك .

(جـ) وكانت للمسيحية مراكز عدة فى شبه جزيرة العرب، تفرقت بين النساطرة فى الحيرة (أرض العراق)، واليعاقبة فى غسان وسائر قبائل الشام، هذا فضلا عن الصوامع فى وادى القرى .

وكانت أهم هذه المراكز كلها نجران، التى كانت فيها كعبة نجران قبل أن تتنصّر، ثم صارت الكعبة فيما بعد بيعة . وقد أثرت المسيحية على بعض العرب حيث كان القسس والرهبان يردون الأسواق يعظون ويبشرون(٤١).

وكانت بعض فرق المسيحية غير صحيحة الاعتقاد من جانب الفرق الأخرى، كتلك الفرقة التى كانت تعبد مريم (أم المسيح) والتى تدعى بالمريمانية، وترى أن الثالوث المقدس يتكون من الله والمسيح ومريم. وإلى هذه الفرق أشار القرآن فى تصحيحه لما تعتقده وتدين به.

ومع انتشار المسيحية، فإن اليهودية فى شبه جزيرة العرب، وقبل البعثة النبوية، كانت ذات أهمية بالغة، وكان كثير من أفكارها قد انتشر بين العرب، خاصة مع تقديرهم العقلى الذى يميل إلى بساطة التوحيد وينأى عن التعقيد الفلسفى للاهوت المسيحى ؛ حتى أن بعض الباحثين يرى أنه لولا ظهور الإسلام لاعتنق العرب اليهودية.

ومما يلاحظ- نتيجة لما سلف - أن أول إشارة للمسيحية والسيد المسيح فى القرآن الكريم لم تجئ قبل السنة العاشرة من البعثة النبوية .

(د) وكانت فى بلاد العرب شريعة أخرى هى الصابئة، وكان مركزها حران (فيما بين النهرين، أى فى أرض العراق) واستمرت حتى القرن العاشر الميلادى . وقد ورد ذكر الصابئين فى القرآن مرتين :«إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون» (سورة البقره ٢:٦٢، وبتبديل آخر فى سورة المائدة ٥ : ٦٩).

وترى الصابئة أن لكل شئ - من الكواكب وغيرها - روحانية، كما كانت تصلى ثلاث صلوات فى اليوم، أولها قبل طلوع الشمس بقليل، والثانية عند الظهر، والثالثة مع الغروب . وكانت صلواتهم ركوعا وسجودا (٤١).

ويلوح أن لهذه الفرقة صلة بالديانة المصرية القديمة، لأن صلاة أخناتون كانت ركوعا وسجودا كذلك، هذا فضلا عن ارتباطها بحركة الشمس التى كان اخناتون يرى فيها مظهرا لقوة الله . يضاف إلى ذلك أنهم - مثل المصريين - كانوا يمتنعون عن أكل الثوم والباقلاء وبعض البقول ؛ كما كانوا يعظمون الأهرام والنبى إدريس (أوزوريس المصرى)(٤٣).

ولا يُعرف - على وجه التحديد - اشتقاق اسمهم، وقيل إنه من اللفظ العبرى صباؤت، بمعنى الملائكة أو الجنود السماوية ؛ كما قيل إنه من لفظ سابى المصرى .

(هـ) وكانت فى شبه جزيرة العرب فرق قليلة متناثرة تدين بالمجوسية أو تدين بالمانوية، وكلتاهما من بلاد فارس . والمانوية تنسب لمانى الذى بشر بها فى القرن الثالث الميلادى وأعلن نبوته سنة ٢٤٢ م ، وهى متأثرة بالبوذية والغنوصية تأثرا واضحا .

وكان مانى يعترف بكل الرسالات السابقة عليه، ويزعم أنه كان نوحا فى عصر نوح،

وإبراهيم فى عهد إبراهيم، وموسى فى زمن موسى، وعيسى فى وقت عيسى؛ كما كان يقول إنه الخاتم الذى تنتهى به الرسالات جميعا [٤٤] .

* * *

وهكذا، يبين أن أحداث التاريخ ومفاهيم الناس واعتقادات الشعوب لاتصدر عن أمر واحد أو سبب مفرد أو رأى مطلق، وإنما يحدث ذلك نتيجة لتضافر كثير من الأمور وتشابك عديد من الأسباب واختلاط وفير من الآراء.

وقد تحددت نظرة كثير من العرب لرسالة النبى ثم للخلافة من بعده بمسائل متنوعة وأمور متغايرة جعلتهم محجوبين عن إدراك مفهوم النبوة معزولين عن استيعاب صميم الرسالة، يرون الملك أكثر مما يرون النبوة، ويلحظون جانب الحكم بأظهر مما يلاحظون جانب الدين.

وكان من العوامل التى وطأت لهذه النظرة ومهدت لذاك الاتجاه، وجود إمارات وأمراء وممالك وملوك فى شبه جزيرة العرب، على مدى تاريخها؛ والنظر إلى الرئيس على أنه أمير أو ملك؛ والخلط بين القول والقيل والزعم والأمر والرياسة؛ وقيام نظام إدارى فى مكة موزع بين بطون قريش لاينقصه إلا ظهور ملك أو غلبة أمير ليصبح دولة موحدة قوية تسود بلاد العرب جميعا. هذا بالاضافة إلى انتشار الفكر الدينى والمفردات الدينية والتوحيد بالله لدى شعراء العرب، وارتفاع شأو الحنيفية، مما حمل المخطئون على الظن بأن النبى أحد هؤلاء، وأنه عندما يبشر بأنه وحده - دونهم - رسول الله ونبيه إنما يفعل ذلك بقصد الغلبة وبهدف التملك، وخاصة أن طباع العرب - وفيهم الأعراب الذين كانوا يشكلون أغلبيتهم - لايمكن أن تخضع لسيادة أو ترتضى إمارة أو تقبل حكما إلا إذا انطوى على صبغة دينية، وقد عزز ذلك فيهم انتشار أسلوب الصعلكة وغلبة الاتجاهات العدمية والنزعات الفوضوية.

وإلى جانب ذلك كله فإن الإسرائيليات من جانب، واليهود الذين اعتنقوا الاسلام ليكيدوا له من الداخل من جانب ثان، كانت لهما آثار سلبية بعيدة المدى.

وبهذه الأسباب، وغيرها مما سيلى بيانه، اهتز إدراك كثير من العرب لرسالة النبى، واضطرب فهمهم عن فكرة الخلافة وعن طبيعة نظامها وعن شخص الخليفة.

التعليقات والهوامش

(١) يراجع :

١- Encyclopedia Britannica, Macro, 1977. Vol 8 p 214.

٢- Encyclopedia Americana, Vol 2, p 159.

٣- الأستاذ أحمد أمين - فجر الإسلام - الجزء الأول ص ١ وما بعدها.

٤- دكتور حسن إبراهيم حسن - تاريخ الإسلام السياسى - الطبعة الأول سنة ١٩٣٥ - ص ١٩ وما بعدها.

٥- الأستاذ ميخائيل شاروبم - الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث - الطبعة الأولى سنة ١٨٩٨ - الجزء الثانى - ص ٢ وما بعدها.

(٢) المراجع السابقة.

(٣) العرب خلاف العجم، والأعراب غير العرب. فالأعرابى هو البدوى ويجمع اللفظ على أعراب أو أعاريب (ويطلق عليهم - كذلك - لفظ العربان). والعربى إذا قيل له ياأعرابى غضب؛ ذلك لأن الأعرابى هو البدوى صاحب النجعة والانتواء وارتياد الكلأ وتتبع مساقط الغيث (المطر). فهو من ثم لاينزل بالمدن ولايقيم بالقرى ولايتصل بالحضر إلا لقضاء حاجة ثم يعود إلى حاله. وما جاء فى القرآن عن الأعراب : «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا» وكذلك : «الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ماأنزل الله» هاتان الآيتان عن قوم من بوادى العرب قدموا على النبى إلى المدينة طمعا فى الصدقات لا رغبة فى الإسلام، فسماهم القرآن : الأعراب.

وكان العرب زمن النبى - وما بعده - يرون أن من رجع بعد الهجرة إلى موضعه من البادية والإقامة فيها مع الأعراب من غير عذر كالمرتد. وفى الحديث، ثلاث من الكبائر منها التعرب بعد الهجرة، أى العودة إلى البادية والإقامة فيها مع الأعراب بعد أن كان مهاجرا إلى المدينة (يراجع لسان العرب، مادة عرب).

(٤) الشعر الوارد فى هذا الكتاب مأخوذ أكثره من الكتب التالية : الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى؛ جمهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى؛ ديوان الحماسة لأبى تمام؛ دراسة الشعراء : امرؤ القيس والأعشى والنابغة وزهير والحطيئة للأساتذة محمد حسن نائل المرصفى وإبراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى - الطبعة الأولى سنة ١٩٤٤ - الصادرة عن المكتبة التجارية الكبرى؛ تاريخ ابن الأثير؛ معجم البلدان لياقوت؛ شرح ديوان أمية بن أبى الصلت - دار مكتبة الحياة ببيروت؛ شعراء النصرانية فى الجاهلية للأب لويس شيخو - نشر مكتبة الآداب سنة ١٩٨٢؛ مجموعة كتب الروائع الصادرة فى بيروت سنة ١٩٣٧؛ جورجى زيدان تاريخ آداب اللغة العربية، رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى.

(٥) يراجع :

١- Encyclopedia Britannica, ibid, Vol 8 p 214.

٢- Encyclopedia Americana, Vol 12 p 824.

٣- Hans Jones, The Gnostic Religion, Second Edition, Beacon Press, Boston.

Elaine Pagels, The Gnostic Gospels, Vintage Books. -٤

(٦) المراجع السابقة :

The Nag Hammadi Library, Edited by : James M. Robinson. (٧)
Harper & Row, Publishers.

(٨) تراجع الكتب المذكورة فى هامش رقم ٤.

The Gnostic Gospels, ibid, p. 87, 89, 100 (٩)

ibid, p 87. (١٠)

ibid, p 123. (١١)

ibid p 10, 99, 108. (١٢)

(١٣) المراجع المذكورة فى هامش رقم "١" بالاضافة الى كتاب "تاريخ اليهود فى بلاد العرب" للدكتور اسرائيل ولفنسون أستاذ اللغات السامية بدار العلوم - نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٢٧.

(١٤) فالتيمن تفعيل لفظ اليمن، والتمضر تفعيل لفظ مضر، فالألوان الحمر والصفر فى ورود الربيع تشير فى تقدير الشاعر الى الرايات الحمر لليمنيين والصفر للمضريين.

(١٥) على بن برهان الدين الحلبى - السيرة الحلبية - دار المعرفة ببيروت - المجلد الأول - ص ١٦.

(١٦) الأستاذ كارل نالينو - تاريخ الآداب العربية - دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٤ ص ٨١.

(١٧) تاريخ اليهود فى بلاد العرب - المرجع السابق - ص ٨٩.

(١٨) ابو الهلال العسكرى - كتاب الصناعتين - الطبعة المصرية سنة ١٣٢٠ وفيها يقول : الشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها ومستنبط آدابها ومستودع علومها».

(١٩) لسان العرب ماده "شعر". وثم رأى على أن لفظ "شعر" مأخوذ من اللغة العبرية، من لفظ "شير" بمعنى الترتيلة أو التسبيحة القدسية، ومن يرجع ذلك يرى أنه لم يرد فى اللغة العربية لفظ «شعر» بمعنى ألف البيت أو القصيد؛ وكل مافيها شعر بمعنى قال الشعر، وثم فارق بين هذا وذاك. يراجع فجر الإسلام، المرجع السابق، ص٦٦.

(٢٠) وفى رثاء حسان بن ثابت للنبى (صلى الله عليه وسلم) قال :

صلى الاله ومن يحف بعرشه .·. والطيبون على المبارك أحمد

يراجع شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصارى، ضبط وتصحيح عبد الرحمن البرقوقى، ونشر المكتبة التجارية الكبرى ص٩٩.

(٢١) وقد أوردت بنت الشاطىء فى جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٨/٥/٩، الآيات الخاصة بزلزلة الأرض (للحصين بن الحمام) وقالت كأن الشاعر نظر فيها الى سورة الزلزلة، لأنها إسلامية اللفظ والمعنى والروح . وهذا يصدق بالطبع على باقى الشعر المماثل والسالف بيانه فى المتون.

(٢٢) قيل فى اسم قريش : انه من التقريش أى جمع القروش، كما قيل انه تصغير لسمك القرش المتوحش.

(٢٣) مثل كعبة شدّاد الإيادى وكعبة غطفان والكعبة اليمانية (بيت ذى الخلصة)، وكعبة ذى غابة الملقب بالقدس. يراجع الهمدانى : الإكليل جزء ٨ ص ٤٨، الزبيرى : تاج العروس سنة ١٣٠٦هـ، ص ٢٧١، الكلبى: كتاب الأصنام سنة ١٩٢٤ ص ١٦. دائرة المعارف الاسلامية عن الكعبة باعتبارها «بانثيون» شبه الجزيرة فى العصر الجاهلى.

(٢٤) السيرة الحلبية - المرجع السابق - ص ٥٩٦.

(٢٥) د. دوزى - تاريخ مسلمى أسبانيا - الجزء الأول، الحرب الأهلية ترجمة دكتور حسن حبشى، نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - سنة ١٩٦٣ ص ١٦٤.

(٢٦) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى - تاريخ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - نشر دار المعارف بمصر - الجزء الثانى - ص ٢٨٤.

(٢٧) يراجع هامش رقم ٣.

(٢٨) الامام القرطبى - الجامع لأحكام القرآن - طبعة دار الشعب - ص ٣٠٨٣، المراجع المبينة فى هامش رقم ١، السيرة الحلبية - المرجع السابق.

(٢٩) تاريخ الآداب العربية - المرجع السابق - ص ٥٧ ومابعدها ، ص ١٤٠ ومابعدها.

(٣٠) منى كان الها للخمر، ورد ذكره فى العهد القديم، فقد جاء فى سفر أشعيا «وأما الذين تركوا الرب ونسوا جبل قدسى فرتبوا الى جد (صنم كنعانى) ومائدة وملأوا لمنى خمرا ممزوجا» فصل ٦٥ : ١١.

(٣١) يراجع تاريخ الاسلام السياسى - المرجع السابق - صفحة ٨٤ - ٨٥، الكافى تاريخ مصر القديم والحديث - المرجع السابق صفحة ١٧ - ١٩.

(٣٢) السيرة الحلبية - المرجع السابق - ص ١٦.

(٣٣) تاريخ الطبرى - المرجع السابق - ص ٣٤٠، ٣٤١.

(٣٤) تاريخ اليهود فى بلاد العرب - المرجع السابق - ص ٧٩، Abraham 1. Katch, Judaısn in Islam. Sepher - Hermon Press, New York. p. 108.

(٣٥) لسان العرب - مادة حنف Yehezkel Kaufmann, The Religion of Jsrael, Schocten Books, New York

(٣٦) أبو بكر عبد الله بن أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى - كتاب المصاحف - دار الكتب العلمية ببيروت - الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥ - ص ٧٠ هامش رقم ١. والقراءة مروية عن مصحف عبد الله بن مسعود.

(٣٧) السيرة النبوية - ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى المتوفى بمصر سنة ٢١٣ هـ) وتحقيق طه عبد الرءوف سعد، نشر مكتبة الكليات الأزهرية بمصر - الجزء الأول ص ٢٠٦ ومابعدها حيث جاء بها «زيد بن عمرو بن نفيل لم يقبل يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة، وقال أعبد رب ابراهيم...

.. وقد .. قدمت الى النبى سفرة أو قدمها اليه (الى زيد) النبى فأبى عبد الله أن يأكل منها وقال لست آكل ماتذبحون على النصب..

.. وقال (زيد) عند استقبال الكعبة : لبيك حقا حقا، لبيك تعبدا ورقا..

عذت بما عاذ به إبراهيم .'. مستقبل القبلة وهو قائم

وإلى جانب هؤلاء الحنيفية - وأحيانا قبلهم - قام فى العرب أناس يدعونهم الى عبادة الله الواحد الأحد منهم من اعتبر نبيا ضيعه قومه مثل خالد بن سنان.

وجاء فى سيره ابن هشام - المرجع السابق - أن «فيميون» نزل فى نجران ومر عليه عبد الله بن التامر .. فجعل يجلس اليه ويسمع منه حتى أسلم، فوحد الله وعبده وجعل يسأله عن شرائع الاسلام. ص ٢٩. ثم صار عبد الله التامر هنا يدعو الناس فيقول «ياعبد الله أتوحد الله وتدخل فى دينى .. فيقول نعم، فيوحد الله ويسلم. ص ٢٩ كذلك.

(٣٧) تاريخ اليهود فى بلاد العرب - المرجع السابق، Judaism ın Islam, ibid. p 3, 112, 128. and the Introductıon. the Religion of Israel, ibid.

(٣٩) تاريخ اليهود فى بلاد العرب - المرجع السابق - ص ٧٩
(٤٠) المرجع السابق ص ٣٧، صحيح البخارى - الجزء الثانى - ص ٥١.
(٤١) المراجع المشار اليها فى هامش رقم ١.
(٤٢) أبو الفتح محمد عبد الكريم الشهرستانى - الملل والنحل - الجزء الثانى - ص ٦١-١٠٣، الموسوعة العربية الميسرة ص ١١١٢، الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث - المرجع السابق - ص ١٩.
(٤٣) أوزوريس - أهم أرباب (سادة) قدماء المصريين - هو النبى ادريس. وأصل اسمه يسر، ومعناه غير معروف تماما، لكنه أصبح يعنى : قوة أو قدرة أو عزم، وقد صار نطقه - فى بعض اللهجات - يسرا أو أسير أو أوزير، وهذا النطق الأخير أصبح عند الاغريق أوزريس كعادتهم فى اضافة الياء والسين الى آخر الكلمات للتنوين، وقد نقل الاسم الى العرب باستبدال الدال بالذال، وهو تحول عادى فى نطق العرب لبعض الألفاظ غير العربية، وبذلك أصبح الاسم «ادريس». وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم مرتين «واذكر فى الكتاب إدريس انه كان صديقا نبيا.. ورفعناه مكانا عليا»، «واسماعيل وإدريس وذا الكفل، كل من الصابرين» وورد ذكره فى تاريخ الطبرى - الجزء الأول ص ١٧٢ ومابعدها؛ اليعقوبى ١:٨ - ٩، ١٦٦، ابن الأثير ١:٤٤؛ الديار بكرى (تاريخ الخميس ص ٦٦)؛ الثعلبى (عرائس المجالس ص ٥٠، ٥١) وفيها أن ادريس (أوزريس) أول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبس المخيط وأول من نظر فى علم النجوم. وجاء فى «اخبار العلماء بأخبار الحكماء» للقفطى، ان إدريس (أوزريس) «أقام ومن معه بمصر وأنه دعا الناس الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والى طاعة الله عز وجل، وعرفهم السياسة المدنية وعلمهم العلوم. وهذا القول قريب مما ذكره بلوتارك عن أوزريس.
ويلاحظ أن بعض المؤرخين يخلطون بين إدريس واخنوخ ويظنهما شخصا واحدا، لأن اسم ادريس لم يرد فى ثبت الانبياء الوارد فى التوراه، والواقع أنهما مختلفان، فاخنوخ عاش فى بلاد مابين النهرين فى حين أن ادريس (أوزريس) أول ملك لمصر، وأول نبى ورسول فيها، منذ عهود ماقبل التاريخ (حوالى ٦٠٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح).
ولتفصيل أكثر يراجع :-
١- E.A. WALLIS BUDGE, The Gods of the Egyptians. Dover Publisher. Vol 2 p 113.
٢- E.A. Wallis Budge, Osiris. Dover Publisher 2 vol.
٣- ايزيس وأوزوريس، رسالة بلوتارخوس، ترجمة الدكتور حسن صبحى بكرى عن اليونانية، نشر الألف كتاب - كتاب رقم ٢٣٥ - مطبعة دار القلم.
(٤٣) The Gnostic Religion, ibid, p. 206.



عهــــد النــبى
(٦١٠ - ٦٣٢م)



على ما سلف تفصيله فى القسم السابق، فلقد كان فى شبه جزيرة العرب - قبل بعثة النبى (صلى الله عليه وسلم) - اتجاهان أو تطلعان . أولهما: يتوجه إلى ظهور ملك للعرب كلهم؛ وثانيهما: يتشوف إلى بزوغ نبىّ للعرب جميعاً.

والاتجاه الملكى، أو التطلع إلى ملك، كان يسود بين رؤساء القبائل كما كان ينتشر بين العامة. وكان مثله فى ذلك امرؤ القيس ملك الحيرة الذى لقب نفسه (سنة ٣٢٨م) ملك العرب كلهم؛ هذا فضلاً عن ملوك اليمن الذين كانوا يبسطون نفوذهم على أرض الحجاز خاصة. وقد رُوى فى ذلك أن عبد المطلب (جد النبى) توجه لتهنئة سيف بن ذى يزن الحميرى لأستنقاذه اليمن من الحبشة - بعد مولد النبى بعامين- فقال له «أنت أبيت اللعن.. ملك العرب الذى له تنقاد، وعمودها الذى عليه العماد... نحن أهل حرم الله وسدنه بيته... وفد التهنئة...»[1]

وإلى جانب هذه الملوك، فإن التطلع كان يمتد إلى - أو يشمل على - عمرو بن لُحىّ (من خزاعة التى ملكت مكة قبل قريش) والذى قيل عنه إنه كان رباً (أى سيداً) للعرب، لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة، ولا يستن لهم سنة إلا انتهجوها طريقاً؛ وشُهر أنه قد كان له تابع من الجن يوحى إليه [2] . كما كان التمنى (بظهور ملك) يتمثل بقصى بن كلاب الذى جمع قريش فى مكة (حوالى سنة ٤٠٠ م) ، وبسط نفوذهم على الكعبة، حتى أصبح رجالها يسمون رجال الله، وجيران بيت الله، وصفوة الخلق.. كما صار زوار الكعبة يسمون ضيوف الرحمن.. وهكذا، مما جعل لقريش نفوذاً حقيقياً بين العرب ومركزاً ممتازاً فيهم [3] .

والاتجاه النبوى، أو التشوف إلى نبى، كان يدور بين الشعراء ، وجماعة الحنيفية؛ كما كان يجرى كذلك بين كثير من الناس. وقد أنف بيان نماذج من أشعار الشعراء ومن آراء الحنيفية؛ وهى تقوم- جميعاً- على فكرة التوحيد لله، ومكارم الأخلاق، وتحريم أكل ما ذُبح على النُصب، وتجنب شرب الخمر، ونبذ التشفع بالأصنام، والصوم، والحج، والتطهر، وما إلى ذلك مما جاء به الإسلام فى رسالة النبى (صلى الله عليه وسلم) .

وقد ركز بيت من الشعر لأمية بن أبى الصلت هذا التشوف إلى ظهور نبى، فى قوله :

ألا نبى منا فيخبرنا ∴ ما بعد غايتنا فى رأس محيانا

ولعل هذا التشوق الحاد إلى نبى عربى كان هو السبب فى، أو النتيجة إلى، ظهور عدة أنبياء سابقين على النبى (صلى الله عليه وسلم) ، دعوا كذلك إلى الإسلام .

فقد ظهر من يدعى فيميون، ونزل فى نجران، ومر عليه عبدالله بن الثامر فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم ، فوحد الله وعبده، وجعل يسأل (فيميون) عن شرائع الاسلام . ثم تولى عبدالله بن الثامر هذا دعوة الناس إلى الاسلام فكان يقول لمن يدعوه «يا عبدالله : أتوحد الله وتدخل فى دينى!» ، فإن قال نعم وحّد الله وأسلم (٤) .

وكذلك ظهر خالد بن سنان، وهو الذى قال عنه النبى (صلى الله عليه وسلم) فيما بعد، إنه نبى ضيّعه قومه .

وكان زيد بن عمرو بن نفيل قد استعمل لفظ الاسلام فى شعره- قبل البعثة النبوية مباشرة- على نحو ما سلف الإلماع إليه- وإن لم يدع النبوة؛ بينما قيل إن أمية بن أبى الصلت (وهو من الطائف) كان يتوقع النبوة لنفسه، فلما اصطُفى لها النبى محمداً نفس عليه ذلك .

ومن المتنبئين أبو قيس بن أنس الذى ترهب ولبس المسوح، وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة، وتطهر من الحائض من النساء؛ وكان يقول :

فأوصيكم بالله والبر والتقـــى .·. وأعراضكم، والبر بالله أوّلُ
وإن قومكم سادوا فلا تحسدونهم .·. وإن كنتم أهل الرياسة فاعدلوا

ويقول :

سبحوا الله شرق كل صبـــاح .·. طلعت شمسه وكل هـــلال
عالم السر والبيان لدينـــا .·. ليس كل ما قال ربنا بضـلال
يا بنى الأرحام لا تقطعوهـــا .·. وصلوها قصيرة من طـــوال
واتقوا الله فى ضعاف اليتامى .·. ربما يستحل غير الحـلال (٥)
واجمعوا أمركم على البر والتقو .·. ى وترك الخنا وأخذ الحـــلال

ومما لا ريب فيه أنه لم يكن ثم خيط دقيق حاد واضح ظاهر بين الأتجاهين : الملكى والنبوى، بل إنهما كانا متداخلين متقاطعين مختلطين متشابكين، مما أوجد لدى الناس، وفى التاريخ، فهما غائماً وإدراكاً غامضاً وحكماً مهتزاً لما هو من النبوة وما هو من الملك؛ ما يكون من الرسالة وما يكون من الرياسة، ما يصدر عن الدعوة وما يصدر عن الإمارة، ما مبعثه الهداية وما مبعثه الزعامة.

ويلوح أن غالب الناس- فى عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) - كانوا يتصورون نوعاً من المزج بين النبوة والملك، بين الرسالة والرياسة، بين الدعوة والإمارة، بين الهداية والزعامة؛ فينتظرون نبياً ملكاً، ويتوقعون رسولاً أميراً، ويتصورون قائلاً قائداً. وإلى هذا يشير القرآن إذ يقول على لسانهم «وقالوا لولا نُزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» (سورة الزخرف ٤٣ : ٣١) يقصدون بذلك أنهم كانوا يريدون أن تكون الرسالة فى الوليد بن المغيرة كبير مكة أو فى عروة بن مسعود الثقفى كبير الطائف (٦) . وقد رد عليهم القرآن فهمهم هذا بالآية الكريمة «الله أعلم حيث يجعل رسالته» (سورة الأنعام ٦ : ١٢٤).

وهذا الخلط بين النبوة والملك، بين الرسالة والرياسة، بين الدعوة والإمارة، بين الهداية والزعامة أثر على فهم المؤمنين والمسلمين فى عهد النبى، ثم فى عهود الخلفاء والأمراء من بعده، وكان له أثره الحاسم فى أن تتحول الخلافة إلى مُلك عضوض، وأن تصبح إمارة مطلقة، وتصير حكما مستبداً.

فالمؤمنون القحاح قليل، وفى هذا يقول القرآن الكريم «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين» (سورة يوسف ١٢ : ١٠٣). وهؤلاء المؤمنون نظروا إلى رسالة النبى من جانبها الصحيح، فرأوها نبوة، ورسالة، ودعوة، وهداية؛ ومن ثم جاهدوا دونها بأموالهم وأنفسهم ، يريدون وجه الله، ويتطلعون لإعلاء الحق، لا ينظرون إلى غنائم ولا يجنحون إلى الأسلاب ولا يطمعون فى السبايا. **أما المسلمون- غير المؤمنين- من الأعراب والبدو والصعاليك والمؤلفة قلوبهم والمنافقين والطلقاء (الذين أطلقهم النبى عند فتح مكة)، هؤلاء جميعاً- وقد كانوا أكثر الناس- مالوا بنظرتهم إلى جانب الملك وجنحوا بنفوسهم إلى الطمع فى الغنائم والجشع فى الأسلاب، وقصدوا الحصول على الثروات وجمع السبايا ومقارفة السلطان.**

وهذا الاتجاه الملكى الدنيوى المطماع يظهر بجلاء فى المؤلفات الاسلامية التى كُتبت بعد عصر النبى (صلى الله عليه وسلم) بفترة طويلة، حين كان الاتجاه قد استقر وغلب واستتب، فعاد إلى الماضى يعيد تشكيله من جديد وصياغته مرة ثانية وصبه فى قوالبه الذاتية، بمنظاره هو ومفاهيمه الخاصة، ثم ينزل عليه خفايا نفسه ويسقط فوقه طوايا ذاته؛ ومن ثم يصور النبوة ملكاً، ويجعل الرسالة إمارة، ويشكل الاسلام سياسه، ويصوغ الشريعة حزبا، ويلوّن الإيمان حــربا.

فقد جاء فى سيرة ابن هشام أنه «كان فى حجر باليمن ... كتاب بالزبور كُتب فى الزمان الأول يقول : لمن ملك ذمار؟ (اسم مدينة) : لحمير الأخيار. لمن ملك ذمار؟: للحبشة الأشرار. لمن ملك ذمار؟ : لفارس الأحرار. **لمن ملك ذمار؟ لقريش التجار** (٧) .

وجاء فيها أن ثابت بن قيس قال أمام النبى (صلعم) : ثم كان من قدرته (قدرة الله) **أن جعلنا ملوكاً** واصطفى من خير خلقه رسولاً (٨) .

وجاء- كذلك- أن أم النبى آمنة بنت وهب حُدثت (من الغيب) فقيل لها : إنك حملت بسيِّد هذه الأمة .

وورد فى تاريخ الطبرى أن الكاهن سطيح- وهو كاهن اليمن- قال لربيعة بن نصر- الذى كان قد رأى رؤيا هالته وفظع بها- ... «**إن مُلك اليمن سينقطع برجل** (من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر) **يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر.** ثم أضاف - لتأكيد ذلك : نعم والشفق والغسق، والفلق إذا اتسق، إن ما أنبأتك به لحق» (٩) .

كما ورد فيه أيضاً أن كاهنا يدعى السائب قال لكسرى الفرس : لئن صدق ما أرى

ليخرجن من الحجاز سلطان يبلغ الشرق، تخصب عنه الأرض كأفضل ما خصبت عن مُلك كان قبله. (١٠) .

وفى سيرة ابن هشام أن رجلاً عاير امرأته فقال لها : إنك تمنين (تتمنين) محمداً ملك الحجاز (١١) .

هذا فهم يتكلم عن الملك والسيادة والسلطان ولا يتحدث عن النبوة والرسالة والدعوة، وهو - بلا شك- فهم البدو والأعراب والصعاليك الذين أصبحوا - فى فترة - غالب المسلمين، والذين يقول فيهم القرآن أنهم مسلمون (على الظاهر) غير مؤمنين (فى الباطن) ، ويقول إنهم لا يعرفون حدود ما أنزل الله «الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله» (سورة التوبة ٩ : ٩٧) ، «ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء» (سورة التوبة ٩: ٩٨) ، «قالت الأعراب آمناً قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم» (سورة الحجرات ٤٩ : ١٤) .

وهذا الفهم العليل والتقدير الكليل هو الذى شكل مفهوم الخلافة ومضمون الحكم فيما بعد. وعلى سبيل المثال فقد رُوى أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال عن على بن أبى طالب إنه **أبو الأملاك** (أى أبو الملوك) كما روى نفس القول عن عبد الله بن عباس ، بل وأضيف أنه قال عنه إنه أبو الخلفاء كذلك، وقال العباس (عم النبى) إن النبى قال له: سيملك هذه الأمة بعددها (عدد بعض النجوم) من صلبك». (١٢)

وواضح - فى التقدير السديد - أن هذه الأقوال قد رويت (وانتُحلت) بقصد تثبيت ملك العباسيين - بحديث للنبى ، من جانب العباسيين وأنصارهم ؛ أو لتقويض هذا الملك - بحديث للنبى كذلك - من جانب العلويين وأشياعهم. والقول - فى هذه الصيغة أو تلك - يجعل من العباسيين ملوكا، ويصور ولايتهم على أنها مُلك.

المحمـــد

شاع - فى شبه جزيرة العرب قبل البعثة النبوية ، بل وقبل ميلاد النبى «صلى الله عليه وسلم» قول يردد انه «قد أظل عهد نبى » ، كما ذاع أن النبى المنتظر « محمد » ، فبدأ البعض - لأول مرة فى تاريخ العرب - يطلقون على ابنائهم اسم «محمد» طمعا فى أن يكون هو النبى المنتظر .

وليس يُعرف على وجه التحديد كيف ظهر القول بأنه «قد اظل عهد نبى» وهل يعود إلى تكهنات الكهان أو رؤى العرافين أم حسابات المنجمين أم أقوال اليهود أم اعتقاد المسيحيين (بالمجىء الثانى للسيد المسيح) ؛ أم أن ذلك كان نتيجة شيوع الأفكار الدينية فى شعر الشعراء ، وذيوع دعوى النّبوه بين بعض المصلحين.

و«محمد» كإسم ، لم يكن معروفا للعرب ، والذى كان معروفا لهم اسم «محمود». فمن قبيلة بنى قينقاع اليهودية كان يوجد محمود بن سبحان ومحمود بن دحيه، فضلا عن غيرهما(١٣).

وفى ظهور اسم محمد يقال إن محمد بن عدى كان قد سئل كيف سماه أبوه فى الجاهلية محمدا؛ «فقال: سألت أبى (فى ذلك) فقال : خرجت رابع أربعة من تميم نريد الشام، فنزلنا عند غدير عند دير ، فأشرف علينا الديرانى (من الدير) وقال: إن هذه للغة قوم ماهى لغة أهل هذه البلد . فقلنا له: نحن قوم من مضر (مضر بن ربيعة).. فقال : إن الله سيبعث فيكم نبيا وشيكا .. فسارعوا إليه ، وخذوا حظكم ترشدوا ، فإنه خاتم النبيين. فقلنا: وما اسمه ؟ قال: محمد .. فأضمر كل واحد منا إن رزقه الله غلاما سماه محمدا».(١٤)

والذين يُعرفون ممن سُموا «محمدا» غير النبى - لطمع آبائهم أن يكون فيهم النبى ثلاثة: محمد بن سفيان بن مجاشع (جد الفرزدق الشاعر) ومحمد بن أجيحة بن الحلاج بن الجريش، ومحمد بن حمران بن ربيعة(١٥) (ولم يُذكر فى هؤلاء محمد بن عدى الذى روى الرواية السالفه عن رجل الدير). وقيل إن من أدرك الإسلام ممن اسمه محمد ، هم محمد بن ربيعة ومحمد بن الحارث ومحمد بن مسلمه . وقيل إن هذا الأخير ولد بعد ميلاد النبى (صلى الله عليه وسلم) بأكثر من خمسة عشر عاما.

وخلافا لذلك فقد عدّ البعض ممن سُمّى بمحمد ستة عشر ، ونظمهم فى قوله:

إن الذين سموا باسم محمد ∴ من قبل خير الخلق ضعف ثمانِ
ابن البراء مجاشع بن ربيعة ∴ ثم ابن مسلم يحمدى حرمانى
ليثى السليمى وابن أسامة ∴ سعدى وابن سواءة همدانى
وابن الجلاح مع الأسيدى يافتى ∴ ثم الفقيمى هكذا الحمرانى(١٦)

وورد فى السيرة الحلبية أن عبد المطلب جد النبى سماه عندما ولد «قُثَم» بمعنى مَجْمع الخير، على اسم عم له كان قد توفى وهو صغير(١٧)؛ حتى قالت أمه آمنة بنت وهب إنها أخبرت فى المنام أن اسمه محمدا. وقد دعى ذلك بعض المستشرقين من كتاب السيرة النبوية إلى الزعم بأن اسم محمد كان اسما نبويا، أى اتخذه النبى لنفسه عندما بدأ رسالته. غير أن المستفاد مما سلف أنه إذا كان عبد المطلب قد سمى النبى حقا باسم «قثم» ، فقد عاد وسماه «محمدا» كطلب إمه؛ أما لأنها أخبرت بذلك فى المنام ، وإما لأنها أمّلت أن يكون هو النبى المنتظر ، فكان .

وفى تقييم الرواية التى ذُكرت عن نشوء اسم محمد ، فإنه يغلب أنها رواية مصنوعة، أو على الأقل داخلتها الصنعة ، وخاصة أن اسم محمد بن عدى الذى نُسبت إليه ليس من

الأسماء التى وردت فى كتب السيرة بيانا لمن كان اسمهم محمدا. يؤيد هذا النّظر أن البشارات عموما تكون بالصفة ولاتكون بالإسم. فعندما تشير التوراة إلى السيد المسيح بأنه عادل ومنصور ، فإن المقصود بذلك أن من صفاته أن يعدل وأن ينتصر، دون أن يعنى هذا أن اسمه عادل أو أن اسمه منصور، فإذا كانت ثم إشارة بالنبى المنتظر فإنها تكون بصفته محمدا ، لا باعتبار أن ذلك اسمه (ولهذا فإن البشرى بالنبى فى القرآن جاءت باسمه أحمد لا محمد) . ويقصد بالصفة أنه هو الذى حُمِّد مرة بعد مرة حتى صار محمدا ؛ غير أن العرب - وهم أمة أمية - قلبوا الصفة فجعلوها إسما، ومن ثم سُمِّى به قبل النبى (صلى الله عليه وسلم) عدد من الأولاد، كما سمى به النبى ذاته.

وفى مظان التاريخ فإن «المحمد» كصفة وردت فى صحائف ومدونات ونقوش المصريين القدماء عن أوزوريس (إدريس النبى عليه الصلاة والسلام) ؛ وكان ذلك على وجه التحديد فى أناشيد ايزيس عنه، وفى كتاب الموتى، حيث أطلق عليه وصف «المحمد» وقيل إنه هو الذى حُمِّد[١٨].

ولأن المصريين القدماء كانوا يعتبرون عصر أوزوريس (إدريس) هو العصر الذهبى فى مصر، فقد تطلعوا دائما الى عودته ليحكمهم من جديد، ويملأ الأرض عدلا بعد ما ملئت جورا؛ خاصة بعد انهيار الأسرة السادسة ، وانتشار عصر الاقطاع والفوضى . وأشهر النبوءات التى تطلعت الى عودة أوزوريس (إدريس) ليحكم مصر من جديد نبوءة إيبور التى قال فيها عن المخلّص أو المنتظر: إنه «يبرّد لهيب (الحريق الاجتماعى) ويقال إنه راعى الناس جمعها. قلبه خال من الشر. فإذا كانت قطعانه قليلة العدد قضى يومه فى جمعها، لأن قلوبها محمومة . ألا ليته قد تبين أخلاقهم منذ الجيل الأول! إذن لقضى على الشر، ولمد ذراعه لمقاومته ، ولسحق بذرته وما يخرج منها.. أين هو اليوم، هل هو نائم بالصدفه؟! أنظر إن قواته لاتُرى»[١٩].

وربما لانتشار الأفكار المصرية فى العالم القديم، ومنه شبه جزيرة العرب ، ولوجود جماعة الصابئة فى حران وهى ذات أصول مصرية ، ولذيوع عقيدة المعرفيين (الغنوصيون Gsnos-tics)وهى ذات أصول مصرية، كذلك ؛ ربما لكل هذه الأسباب جميعا أو لبعضها أن شاع بين الرهبان والمتنبئين وبين أتباع هذه العقائد والجماعات أن المخلص «محمد» أى أن صفته أن يكون محمدا ، فأذاعوا القول ثم صارت الصفة اسما ، فسمى البعض أبناءهم محمدا، على نحو ما سلف.

ومن جانب آخر، فإن لفظ محمد باليونانية يكتب هكذا π 8 0 ι χ λ γ ι ρ ο ς بينما أن من قال السيد المسيح إنه سوف يرسله من بعده يكتب π α ρ α χ λ γ ι ρ ο ς [٢٠] وهو اللفظ الذى ترجم إلى المعزى consolator أو المدافع أو المحامى Advocator؛ وقال بعض

الكتاب العرب إنه من الجائز أن يكون اللفظ هو المعزى وقد حرف الى المُقرى. وظاهر من مقارنة ترجمة اللفظين أن الخلاف بينهما يسير. فإذا حدث أن كانت هناك نسخة أو أكثر من الإنجيل تكتب اللفظ بشكله الأول الذى ترجمته «المحمد» (تأثرا بصفة ادريس أو بمعنى المخلّص أو المنتظر) ، أو أن بعض أهل الكتاب ممن لايجيد القراءة باليونانية قد قرأ اللفظ بنصه الثانى خطأ منه فقال إنه المحمد، أو أن الكتابة فى ذلك الوقت لم تكن دقيقة واضحة بتنقيط وتشكيل فكُتب اللفظ باليونانية بما يُقرأ: المحمد، ويُقرأ، المعزى أو المدافع؛ إذا حدثت هذه الأسباب - كلها أو بعضها - فإنه يمكن أن يقال إن المنتظر هو المحمد ، وتعد الكتب التى لاتقطع بذلك كتبا محرفة ، فى تقدير من يؤمن أن اللفظ الذى ورد فى الإنجيل هو المحمد.

* * *

هذا ، وقد كانت العرب تطلق أوصافا على بعض الناس الذين يشتهرون بينهم بعمل معين أو صفة خاصة ، من هذه الأوصاف : الفضل، والكامل ، والعدل ، والأمين.

فيقال إن بين من عقدوا حلف الفضول ثلاثة لُقّب كل منهم بـ «الفضل»، وهذا من أسباب تسمية الحلف حلف الفضول؛

وأطلق لفظ الكامل على سويد بن صامت؛

وأطلق لفظ العدل على أبى ربيعة بن المغيرة؛

وأطلق لفظ الأمين على أبى قبيس ، لحفظه ما استودع ؛ ثم أطلق على النبى (قبل الرسالة) لامانته فى عمله وقوله[٢١].

النبـــى فى مــكـة

على نحو ما وضح مما سبق بيانه، فقد كانت قبيلة قريش تسيطر على مدينة مكة، وتهيمن على الكعبة بيت الله (حتى فى العصر الجاهلى)، وقد استطاعت بوسيلة أو أخرى أن تجعل منها مثابة للعرب جميعا . وكانت قريش موزعة فى عشرة بطون أو فروع (أو أحياء)، ويشتد التنافس المحموم بين الفرعين الرئيسيين منها: بنى هاشم (الهاشميون) وبنى أمية (الأمويون أو عبد شمس). وكان هذا التنافس مما حال دون قيام رياسة موحدة لهم، أو إمارة قوية عليهم، أو مُلكا راسخا فيهم.

وهذا التنافس الشديد بين الهاشميين والأمويين كان له أثر بالغ على فهم العرب لمعانى النبّوة وتقديرهم لمضامين الرسالة ، ثم كان من شأنه - على ماسوف يلى تفصيله - أن قوّض مفاهيم الخلافة الإسلامية ودمّر معانيها المرتجاة؛ وتحول بها إلى ملك عضوض وإمارة مستبدة وسلطان أرضى.

وعن هذا التنافس ، وأثر النبوة عليه قال أبو جهل (عمرو بن هشام بن المغيرة): تنازعنا

نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا؛ حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه!؟[٢٢]

من ذلك يبين مدى الصراع بين الهاشميين والأمويين على السلطة والسيادة، وكيف أن هولاء رأوا فى نبوة النبى الهاشمى ما يَطُفُّ بالميزان إلى جانب خصومهم ، وبذا بدا للمتنازعين على السلطة أن الرسالة الإسلامية وسيلة للملك، واعتبروا أن النبوة تكأة للإمارة ، واعتقدوا أن الدعوة توطئة للرياسة ، وعبّروا (الأمويون) عن ذلك صراحة ، إذ قال عبد الله بن الزبعرى فى هذا المعنى:

لعبت هاشم بالملك فلا .·. خبر جاء ولا وحى نزل

وقال الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخليفة الأموى (٧٠٧ - ٧٤٤ م):

تلعّب بالنبوة هاشمى .·. بلا وحى أتاه ولا كتاب

* * *

وكانت قريش - على ما أنف - تدين بعبادة الله الواحد الأحد، غير أنها لدواعى التجارة وتوحيد العرب وجمعهم تحت لوائها، وحشرهم حول كعبتها، اعتبرت أن أرباب القبائل والقرى وسيلة لهم يتشفعون بها إلى الله، ووضعت لها جميعا تماثيل (أصنام) في الكعبة. وكان النبى (صلى الله عليه وسلم) واضحا محددا فى ترديد رسالة الإسلام بأن اتخاذ هذه الأصنام شفاعة إلى الله شرك به سبحانه. وفيما عدا واقعة الإشارة إلى الأصنام بأنها «تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى»، والتى سرعان ما قيل للنبى إنها لم تُوحَ إليه فنُسخت من القرآن تماما؛ فيما عدا هذه الواقعة المفردة، فقد ظل الإسلام على صرامته فى عدم قبول أى واسطة أو شفاعة للـــه.

وآذى هذا الاتجاه التوحيدى الصارم مشاعر القرشيين، وكبارهم على وجه أخص، خشية أن يؤدى إلى بوار مدينتهم وكساد تجارتهم، فضلا عن أنه ربما يكون قد آذى مشاعرهم الدينية ولوكانت خاطئة . وقد شكوا إلى أبى طالب عم النبى (صلى الله عليه وسلم)، فخاطب أبو طالب النبى فى ذلك، وورد الحديث بينهما فى الكتب التى دُونت بعد تاريخ الواقعة بفترة طويلة، والتى تدل على أنه إما أن فهم أبى طالب نفسه أو تقدير معاصريه أو فهم الكتاب والمؤرخين قدْ لوّن الواقعة بصورة تجعلها مؤسسة على اعتبار أن الرسالة ملك، وأن الدعوة ســـياسة .

فلقد ورد فى كتب السيرة والتاريخ الإسلامى أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال لعمه حين خاطبه فى أمر الرساله واستياء القرشيين :«... أولا أدعوهم إلى ما هو خير لهم ...؟ **أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم** ...(قَالَةَ) لا إله إلا الله». وفى قول آخر :«... **كلمة تدين لهم بها العرب وتؤدى بها العجم الجزية**».[٢٣]

فالمسأله فى هذا القول - المنسوب إلى الرسول - أن كلمة (أو قالة) لا إله إلا الله إنما هى سبيل لكى تدين العرب لقريش» (أى لرياستها وإمارتها وملكها)، وأن يتملك هؤلاء العرب غيرهم من العجم ويفرضون عليهم الجزية؛ وليس فيها أى إدراك حقيقى للدين الإنسانى الشامل، أو قصد شريف لنشر الشريعة السمحاء .

وهذا المعنى ذاته تردد فى قول للعباس (عم النبى) عندما سأله أعرابى عنه فرد عليه قائلا: «هذا محمد بن عبدالله يزعم أن الله أرسله به (الدين) **وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه»**. وقد ردد القول ذاته بعض المنافقين فى معركة الخندق أو الأحزاب (فى المدينة)- فيما بعد - حين قال **يعدُنا محمد (صلى الله عليه وسلم) كنوز كسرى وقيصر** ولا يستطيع أحدنا أن يذهب إلى الغائط». ففى هذا القول وذاك لم يُذكر أى شئ - ولا تلميحا إن لم يكن تصريحا - عن هداية الروم والفرس أو نشر الإسلام بينهم أو دعوتهم إلى الدين القويم أو التبشير بينهم برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم)، وإنما يقتصر الأمر على التملك وفرض الجزية وانتهاب الكنوز؛ وهو فهم - بلا أدنى شك - بنزع منازع الملك ويجرى مجارى السلطان، ولا يتجه اتجاه الدين أو ينحو نحو الشريعة.

وفيما روى أن النبى (صلى الله عليه وسلم) عندما رغب فى نشر دعوته ، بعد أن نزلت الآية» «وأنذر عشيرتك الأقربين» (سورة الشعراء ٢٦: ٢١٤)، جمع عشيرته هذه وقدم لهم طعاما ثم قال لهم : يابنى عبد المطلب، إنى بُعثت إليكم بخاصة، وإلى الناس بعامة ، وقد رأيتم من هذا الأمر ما رأيتم ، فأيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ووارثى؟ وفى رواية أخرى : على أن يكون أخى وصاحبى ووارثى وخليفتى!(٢٤)

والتلفيق فى هذ النص ، أو إعادة صياغته بمفهوم السلطة والملك، ومنظور الخلافة والوراثة، أمر جلى بين . ذلك أن النص ينسب إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) أنه كلم عشيرته الأقربين - بنى عبد المطلب - عن «الأمر» لا عن الدين. والأمر - فى القرآن الكريم - يغلب أن يكون الرياسة والسلطة. وهو يجعل ممن يبايعه أخًا له وصاحبا ووارثا (وفى رواية : وخليفة)، فى حين أن النبى هو الذى قال إن الأنبياء لا يورثُون ؛ هذا فضلا عن أن النبوة أصلا لاتُورث، إذ هى اصطفاء من الله سبحانه وتعالى لمن يشاء من البشر، وإنما يمكن توريث السلطة والخلافة - كما حدث فى التاريخ الإسلامى فيما بعد . وإذا فُرض وكان الحاضرون جميعا قد بايعوا النبي، فكيف يكون الجميع - أو حتى بعض منهم - وارثا له أو خليفة له؛ وماذا يرث وفيم يُستخلف!؟

إن هذا النص ، وغيره ، من النصوص التى وُضعت، أو نُحلت ، أو عُدِّلت، أو أعيدت صياغتها ، على ضوء الأحداث التالية فى الإسلام لوفاة النبى ، وبعد غلبة الاتجاه السلطانى والنزعة الملكية، وإصرار كل من يطالب بالسلطة - إن كان خارجها - أو يحمى سلطانه - إن

كان فى السلطة - على إعادة صياغة الأحداث وتحريف الأقوال وتبديل الوقائع وإضافة العبارات - كيما تلائم دعواه أو تساند سلطانه . وهى جميعا - فى هذا الجانب أو ذاك - تفهم الدين على أنه سياسة وتنظر إلى الشريعة على أنها تحزب ؛ وتستعمل كلامنهما سببا للملك وسندا للسلطان ودعوى للمغانم ؛ وتستغل المفاهيم المحرفة والمعانى المزيفة والأقوال المنحولة فى سبيل السلطة والمال والنفوذ لاغير.

وعندما اشتد أمر النبى (صلى الله عليه وسلم) على قريش ندبت لمحادثته عتبة بن ربيعة فذهب إليه وقال له «إن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لانقطع أمرا دونك، **وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا**. وإن كان **هذا الذى يأتيك رئيا من الجن** لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك». «وقد رد عليه النبى (صلى الله عليه وسلم) بتلاوة آيات من القرآن الكريم، فعاد عتبة إلى قريش وقد اربد وجهه فقال لهم : خلوا بين هذا الرجل وما هو فيه... فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم[٢٥]...».

ودلالة هذه الواقعة .. كسابقاتها ولاحقاتها - أنها تقطع بأن العرب لم يستوعبوا فكرة النبوة ولم يتمثلوا مبدأ الوحى، واعتبروا أن النبى يتخذ من هذه طريقا إلى الملك ومن تلك سبيلا إلى السيادة . فمندوب قريش إليه يحدثه عن السيادة عليهم والملك فيهم؛ هذا فضلا عن أنه يرى فى الوحى الذى يأتى النبى رئيا آى جنيا، ويعرض عليه علاجه من هذا العارض الشيطانى أو المس الجنّى. ولعل عتبة فى ذلك - وباقى قريش - كانوا يستحضرون فى أذهانهم ما كان يقال عن عمرو بن لُحَىّ (الخزاعى)، رب (سيد) العرب وسلفهم القديم فى إمارة مكة، من أن له جنيا أو رئيا يوحى إليه.

وبعد فتح مكة (رمضان سنة ٨ هـ) وقف النبى (صلى الله عليه وسلم) يستعرض جيوش المسلمين بألويتهم ، لواء بعد لواء ، ووقف أبو سفيان الأموى والعباس عم النبى يشاهدان الاستعراض ؛ فقال أبو سفيان للعباس «لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما»، فرد عليه العباس قائلا «إنها النبوة وليس الملك يا أبا سفيان، فقال أبو سفيان «أما هذه (أى النّبوة) فمازال فى نفسى منها شىء». [٢٦]

هذا هو رأى أبى سفيان كبير الأمويين ، بعد أن أعلن إسلامه. وهو رأى واضح صريح بأن النبى مَلِكٌ أنشأ مُلكا ، وليس رسولا أرسى دعائم الدين ورسَّخ قواعد الشريعة. ولعل أبا سفيان - بل غالبا مايكون - قد أورث هذا الاعتقاد إلى أولاده وأحفاده وعشيرته من بعده . ولئن كان معاوية بن أبى سفيان حذرا حريصا ماكرا لئيما فلم يصدر عنه مايفيد تأكيد هذا المعنى أو إظهاره صراحة، فإن ابنه يزيد ثم خلفاءه من بعده لم يحرصوا على إخفاء آرائهم ولم يعملوا على ستر معتقداتهم، ولم يحفلوا بمشاعر المسلمين ، ولا بالإسلام ذاته ، وهم يعلنونها صريحة واضحة حينا ، وتعريضا وتلميحا حينا آخر.

فهذا يزيد بن معاوية الخليفة الأموى (٦٤٥- ٦٨٣م) بعد موقعة الحرة[٢٧] (سنة ٦٣ هـ) التى دمر فيها المدينة ، واستباح أعراض النساء، وفض بكارات العذارى، وقتل آلاف الرجال، وعبث بمسجد الرسول ، واتخذه مكانا لخيوله ببولها وروثها : ها هو ذا - فرحا جذلا - يقول ما قال ابن الزبعرى المشرك بعد غزوة أحد:

ليت أشياخى ببدر شهدوا .·. فزع الخزرج من وقع الأسل

ثم يضيف :

لأهلّوا واستهلوا فرحا .·. ولقالوا ليزيد لا فَشَل

أى أن يزيد الأول - خليفة المسلمين وأمير المؤمنين- يرى أن وقعة الحرة هذه ، بكل ما فيها من فظائع وجرائم وعدوان على الحرمات وإهدار للقيم الدينية وخروج على الإسلام ونبو عن الشريعة - يرى فى ذلك كله ما يفرحه ويسعده انتقاما لمشركى مكة الذين قُتلوا أو هُزموا فى غزوة بدر.

وها هو الوليد الثانى ، خليفة المسلمين وأمير المؤمنين وحامى حمى الإسلام ورافع راية الشريعة ، يقول فى غير خجل ودون ما خوف أو حياء:

تلعّب بالنبوة هاشمى .·. بلا وحى أتاه ولا كتاب

وهو قول حاد المعنى جارح الفهم صارخ الزعم بأنه لم تكن ثم نبوة ولا وحى ولا كتاب ، وإنما كان ذلك كلّه تلعّبا لأغراض السياسة وتوسلا لأهداف السلطان.

لذلك ولغيره مما سوف يلى فيما بعد ، فإن الخلافة الأموية لم تكن إلا امبراطورية أعرابية بيزنطية؛ فهى لم تكن اسلامية إلا بالاسم دون الواقع ، ولم تكن شرعية إلا بالمظهر دون الجوهر.

النبى فى المدينة

كانت فى يثرب (المدينة) عدة قبائل ، وبطون، يهودية أشهرها بنو قريظة وبنى النضير وبنو قينقاع. وكانت فيها قبائل عربية أشهرها الخزرج والأوس (وهما من اليمن أى قحطانيين). وكان اليهود يملكون الآطام (الحصون) والمزارع وكثيرا من الصناعات ؛ بينما كان العرب من الأوس والخزرج يعملون لديهم ؛ وبين هؤلاء وهؤلاء ، نوع من الموالاة. وقد وقع نزاع متصل بين اليهود والعرب، كما حدث صراع شديد بين الأوس والخزرج أشهره ماسمى بيوم البُعاث (وهى وقعة انتصرت فيها الأوس على الخزرج) . وفى حرب هذا اليوم كانت بنو قينقاع اليهودية تحارب فى صف الخزرج حلفاءهم ومواليهم ضد باقى اليهود من بنى النضير وبنى قريظة موالى الأوس[٢٨].

وكان ليهود يثرب - لدى العرب - سمعة وشهرة وصيت فى أمور الدين (اليهودى). مع أن العلماء يرون أنهم لم يكونوا يطبقون هذه الشريعة على أصولها ، بل بتغيرات وتعديلات اقتضتها ظروف معيشتهم فى بلاد العرب. ونظرا لتقدير عرب قريش ليهود يثرب فقد أرسلوا اليهم عقبة بن أبى مُعيْط والنضر بن الحارث يستفتونهم فى أمر النبى [٢٩]. ويلوح أن اليهود كانت تميل إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) وتعتقد أنه بدوره سوف يميل إليهم وينصرهم على أهل الكفر والشرك من مواليهم فى يثرب وغيرهم فى باقى بلاد العرب، هؤلاء الذين كانوا فى صراع متصل وجدال مستمر معهم. ولعل ما أكد لديهم هذا الاعتقاد أن آيات القرآن الكريم - فى العهد المكى - كانت تمتدح بنى إسرائيل، وتردد قصة موسى مع آل فرعون ونصر الله لبنى اسرائيل على من عاداهم.

وقد كان ليهود يثرب هؤلاء - ربما لما سلف بيانه - أثر كبير فى هجرة النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة ؛ وخاصة أنهم دأبوا على أن يذكروا لعرب المدينة كلما اختلفوا معهم أنه قد أظل زمان نبى ، وأنهم (اليهود) سوف يحاربون العرب تحت إمرة هذا النبى ويبيدونهم تماما كما بادت قبائل سابقة، فلما قابل وفد من الأوس والخزرج النبى فى مكة ودعاهم إلى الإسلام ، عادوا إلى المدينة وذكروا ذلك لعشيرتهم فاتفقوا على مبايعة النبى - قبل اليهود - لكى يكون نصيرا لهم (للعرب) على اليهود، وكيما يتميزوا بنبىٍّ عربى كما يفخر اليهود بأنبيائهم العبرانيين.

ولعلة فى نفس كلٍّ ، فقد رحب الجميع بهجرة النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى يثرب ، وهو يؤمل أن يكسبه فى صفه ضد أعدائه ومنافسيه.

ويُروى أن أهل المدينة - قبل هجرة النبى - كانوا قد نظموا الخرز ليتوجوا عبد الله بن أبىّ بن سلول زعيم الخزرج ملكا على المدينة، فلما جاء النبى انصرف القوم عن عبد الله هذا وعما كانوا قد اتفقوا عليه بشأنه.

وعبد الله بن أبى بن سلول شخصية هامة لها أثرها في التاريخ الإسلامى فى فكرة النفاق - وربما التّقية كذلك - وفى فكرة الملك والخلافة فى الإسلام[٣٠]. فمما يقال عنه إنه لم يكن يختلف عليه فى شرفه اثنان، وأن الأوس والخزرج لم تجتمع قبله ولا بعده على رجل من الفريقين. ونظرا لأنه كان يرى أن النّبى والمهاجرين قد سلبوه بالهجرة حقه فى أن يكون ملكا، فقد عادى النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وكان يشير إليه بقوله «إبن أبى كبشة»[٣١]، كما كره المهاجرين وأطلق عليهم - مع غيره - وصف «الجلابيب»، كناية عن احتقارهم والزراية بهم. وحتى بعدما أسلم فقد صار رأس المنافقين ، وظل يبذر بذور الفتنة بين المسلمين من مهاجرين وأنصار ، وهو ما أثمر فى حينه وآتى أكله ناضجا بعد فترة.

والإعراض عن تتويج عبدالله بن أبى بن سلول ملكا على المدينة - وهو مايجمع عليه أكثر

المؤرخين وينكره القليل - أمر له دلالة خطيرة فى فهم الإسلام على أنه ملك وإمارة وسيادة وسلطان يتعارض مع وجود ملك آخر أو أمير غير النبى، أو سيد للمدينة خلافه .

ورغم مايقال عن شرف عبدالله بن أبى بن سلول وسيادته، فإنه يقال كذلك إنه كان فى المدينة - فى عهد النبى - دار للبغاء اتخذها عبدالله هذا وجلب إليها ستا من الإماء، وفيه وفيهن نزل قوله تعالى: «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء» (٣٢) (سورة النور ٢٤:٣٣).ومغزى ذلك أن الشرف والرياسة والزعامة لم تكن - فى ذلك الوقت - وبين العرب - تتعارض مع إدارة بيت للدعارة أو تتنافى مع إكراه الفتيات على البغاء؛ هذا فضلا عن أن الواقعة تدل على أنه حتى فى عصر النبى، وأثناء التنزيل ذاته، وفى فورة الإسلام وحمية الإيمان، كانت ثمة بيوت للدعارة وأماكن للبغاء، فى نفس المدينة التى يقيم فيها النبى والمسلمون من المهاجرين (الذين وفدوا من مكة) والأنصار (من أهل المدينة)؛ وفى ذلك نزل القرآن بحظر إكراه الفتيات على البغاء.

ومن يقرأ كتب السيرة، وعلى الأخص سيرة ابن هشام (وهى تهذيب لسيرة ابن اسحاق) يروعه أن يجد الكاتب المؤرخ وهو يسرد أحداث حياة النبى (صلى الله عليه وسلم) خلال فترة وجوده بالمدينة، لايتكلم إلا عن السرايا والمغازى والوقائع والاغتيال وماشابه ؛ وهو أمر يقطع بأن كتاب السيرة (النبوية) إنما فعلوا ذلك تحت تأثير فكر واع أو غير واع ، وتقدير فهم شعورى أو غير شعورى، ببروز الملك على النّبوة ورجحان الإمارة على الرسالة، فمما لاشك فيه أن النبى (صلى الله عليه وسلم) كان خلال وجوده فى المدينة يبشر برسالته بالتى هى أحسن ، ويدعو الى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل فى شئون الدين بالرفق والحلم والسماحة، ويعمل على تطبيق أحكام الشريعة بالعقل والاقناع والقدوة ، ويرى أن جهاد النفس أكبر من جهاد الحرب؛ لكن كل ذلك غاب عن كتاب السيرة وغرب من أفق المؤرخين المسلمين فألحوا على جانب الحروب وركزوا على وقائع الغزو وأبرزوا حالات السرايا دون أن يواكب ذلك مسايرة منهم لسير الدين وتطور تطبيق الشريعة ، ونتيجة لذلك فلقد بدت كتب السيرة والتاريخ الإسلامى وكأنها تكتب عن قائد حربى لا عن رسول الله، وتتحدث عن ملك عسكري لا عن نبى مصطفى من السماء؛ وتلح على وقائع قتالية ولا تومئ الى جدال فكرى، وتؤكد على غزوات وسرايا ولاتؤكد على حوار بالحسنى ونقاش بالعقل واقناع بالدليل، إلا عرضا ولماماً.

* * *

وحدث أن بعض المسلمين - تغيظا منهم وحنقا على مشركى مكة - وبتحريض من حمزه بن عبد المطلب عم النبى - اعترضوا قافلة للقرشيين كانت آيبة من الشام إلى مكة برياسة أبى سفيان . وقد أفزع ذلك القرشيين وهالهم بشدة، خوفا على قوافلهم التجارية التى تروح وتجئ فيما بين مكة والشام، وتمر على المدينة؛ ولأنهم رأوا فيما حدث خروجا على التقاليد العربية

وجنوحا على الأعراف المألوفة . ذلك أن السلب والنهب وغزو الآمنين (غير المحاربين) وقطع الطرق على القوافل أمر يقتصر- فى تقديرهم وتقاليدهم وأعرافهم - على الصعاليك والأعراب الفوضويين العدميين، الذين - كما أنف البيان - لايقرون تقاليد ولا يحترمون أعرافا ولايخضعون لأى قواعد أو أصول؛ فإذا وقع ذلك من نفر - من المؤمنين - ومن قبيلة قريش - فإنه يكون خطرا داهما وخطبا فادحا، على التجارة وعلى الأخلاق سواء بسواء .

ونتيجة لذلك، ولعدم تقدير القرشيين لحقيقة أهداف المهاجرين وطبيعة نواياهم- فقد حشدوا جيشا منهم توجه إلى المدينة لمحاربة المسلمين ومنعهم من تكرار ماحدث فوقعت موقعة بدر (رمضان سنة ٢هـ) التى انتصر فيها المسلمون على القرشيين من أهل مكة. وكانت لهذا الانتصار آثار بعيدة المدى جدا عريضة الانتشار إلى أبعد حد، على طبيعة المسلمين وروح الإسلام ونظام الحكم وفكرة الخلافة. والمهم، فى هذا الصدد، أن المسلمين المهاجرين - بعد وقعة بدر - استعادوا ثقتهم بأنفسهم واصابهم زهو الأنتصار وأخذتهم نشوة الإحساس برضاء الله عليهم . ومع ذلك، أو ربما بسببه، فإن النبى (صلى الله عليه وسلم)- بثاقب نظره وحقيق حنكته - أدرك أن هذه الوقعة سوف تليها وقائع أخرى، وأن قريشا سوف تعمد إلى الانتقام، وأنه ليس من صواب الرأى أن يجابهها فى الغزوات والحروب المقبلة جماعة المهاجرين وحدهم؛ ومن هنا لجأ إلى عقد حلف بين من ارتضى من قبائل وبطون يثرب لكى يواجه بهم جميعا أهل مكة القرشيين فى أى نزال مقبل، محتمل بل متيقن .

وهذا الحلف، أو المعاهدة، والتى تسمى «صحيفة» نصها الآتى :-

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا الكتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحده من دون الناس. المهاجرون من قريش على ربعتهم (أى على وضعهم الأول). يتعاقلون بينهم (أى لهم نظامهم وعوائدهم) وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنوعوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى. وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الحرث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النبيت على ربيعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالقسط والمعروف بين المؤمنين. وأن المؤمنين لايتركون مفرحا بينهم، وان يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل . ولايحالف مؤمن مولى مؤمن

دونه. وأن المؤمنين المتقين على من بغى أو ابتغي وسيلة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين. وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم. ولايُقتل مؤمن فى كافر ولايُنصر كافر على مؤمن. وأن ذمة الله واحدة يجبر عليهم أدناهم وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

وأنه من تبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة (المساواة) غير مظلومين ولامتناصرين عليهم . وإن سلم المؤمنين واحدة : لايسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم. وأن كل غازية غزت معنا تعقب بعضها بعضا. وأن المؤمنين يبوء (أو يبئ) بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله . وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه. وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن . وأنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلىٰ أن يرضى ولى المقتول. وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه . وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا (الفتنة أو اضطراب) ولا يؤويه . وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامه ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شئ فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد (صلى الله عليه وسلم).

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين . وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته . وأن ليهود بنى النجار مثل ماليهود بنى عوف . وأن ليهود بنى الحرث مثل ماليهود بنى عوف . وأن ليهود بنى ساعدة مثل ماليهود بنى عوف . وأن ليهود بنى جشم مثل ماليهود بنى عوف . وأن ليهود بنى الأوس مثل ماليهود بنى عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته . وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم . وأن لبنى الشطنة مثل ماليهود بنى عوف . وأن البر دون الإثم . وأن موالى ثعلبة كأنفسهم . وأن بطانة يهود كأنفسهم . وأنه لا يخرج منهم أحد الا بإذن محمد (صلى الله عليه وسلم) . وأنه لا ينحجز على ثار جرح، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبرّ هذا .

وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم . وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه . وأن النصر للمظلوم . وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم . وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها . وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . وأن الله على أتقى قريش ولا من تضرها . وأن بينهم النصر على من دهم يثرب . وإذا دعوا إلى صلح

يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين . على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم . وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفه»(٣٣).

وهذه الصحيفه ذات أثر هام جدا على الفكر السياسى الإسلامى وعلى نظام الحكم ونظام الخلافة، مما يقتضى تحليلها ، وتحديد ما تضمنته، وما هدفت إليه ؛ وخاصة أن صياغتها وما جاء فيها من تكرار وإحالة وألفاظ غير مألوفة وأسلوب غريب عن المعتاد حالا؛ كل ذلك يجعل فهمهما عسيرا بعض الشئ .

أولا – فهذه الصحيفة تشبه إلى حد كبير حلف الفضُول (٣٤) الذى كان قد عُقد بين قبائل العرب المتطاحنة، والذى أخذت فيه قريش على نفسها أن ترد كل مظلمة إلى أهله، لافرق فى ذلك بين قرشى وغيره، والذى كان موطئا – أو فهما – لاعتبار العرب أمة واحدة . وكان الذى دعا إلى هذا الحلف الزبير بن عبد المطلب (عم النبى) بعد حرب الفجار، وحضره النبى (صلى الله عليه وسلم).

ثانيا – وهى (الصحيفة) لم تشر إلى القرآن الكريم أو تعاليم الإسلام ولم تنبن على ما جاء فيهما من قيم وأحكام، ولا حتى فيما ورد بين العرب من غير اليهود؛ مع أن ما جاء فيها عن التضامن والتكافل ونصرة المظلوم والحجز على يد المعتدى ... إلى آخر ذلك، كل هذا مما تضمنه بوضوح آيات من القرآن الكريم لم تذكرها الصحيفة ولم تشر إليها قط. وفيما عدا البسملة فى بدايتها، والصلاة والسلام على النبى فى ثناياها، فإنها تكاد تكون – فى مضمونها وسياقها وألفاظها وعباراتها – وثيقة عربية (شبه جاهلية) وليست إسلامية . ولا يغير من هذا ما ورد فيها عن «ذمة الله»، وعن أن المهاجرين والانصار أمة واحدة، وعن التفرقة بين المؤمنين والكفار . ذلك أن الشعر الجاهلى درج على نسبة الأشياء إلى الله – على نحو ماسلف بيانه فى الفصل السابق – إذ يقول الشعراء: بيت الله، يمين الله، شاهد الله، كتاب الله، بلاد الله... وهكذا . ومن جانب آخر، فإن اعتبار القبائل المتحالفة أمة واحدة أمر حاصل من قبل، جاء فى حلف الفضول . والصحيفة ألحقت اليهود بالمؤمنين، ومن ثم فهى لم تقتصر على جماعة المؤمنين لتجعل منهم وحدهم أمة (جماعة) واحدة . أما التفرقة بين المؤمنين والكفار فإنها لم تحدد وصفا لكلٍّ، فإذا كانت الصحيفة قد تضمنت التحالف مع بعض اليهود فإنها تكون قد قصدت بالكفار أهل قريش وحدهم؛ وربما كان ذلك على معنى كفرهم (إنكارهم وجحودهم) حقوق المؤمنين دون أن تعنى الإصطلاح الشرعى الذى ساد فيما بعد .

ثالثا –وهى تُبقى كل بطن (قسم من قبيلة) فى وحدته الخاصة، مما يجعلها حلفا بين بطون متعددة، أى حلف قبلى لا يذيب القبائل والبطون فى أمة واحدة ذات تقاليد وقواعد موحدة؛ وإنما جعلت البطون تكون أمة، بالمعنى العام، وفى نطاق الإطار الرئيسى والمبادئ المطلقة، مع احتفاظ كل بطن بذاتيته وعصبيته وعاداته وتقاليده وأحكامه ونظامه.

رابعا - وهى تقر بقاء كل جماعة على ربعتهم - أى على وضعهم الأول أو على منازلهم أو على سجيتهم - دون أن تضمهم جميعا فى نظام إسلامى جديد وتقاليد اسلامية مستحدثة وأخلاقيات إسلامية مبتدأة .

خامسا - وقد أقامت حلفا بين المسلمين ومن يرتضى من اليهود، على أن يكون كل على شريعته (دينه)؛ ونسبت اليهود إلى مواليهم من بطون الأوس والخزرج فقالت يهود بنى النجار ويهود بنى عوف .. الى آخره؛ وجعلت لهم حقوقا، كما فرضت عليهم التزامات، لا ترتكن إلى الإسلام ولا ترتكز على القرآن .

وشمل ماجاء عن اليهود نصف الصحيفة - إلا قليلا - مما يدل على أهمية التحالف معهم.

سادسا - وقد جعلت نفقة كل من جماعة المسلمين واليهود عليهم، وجعلت لكل (بما فيهم اليهود) حصة من غنائم الحرب.

سابعا - وقد خلت الصحيفة من البطون الكبيرة فى الأوس والخزرج وقبيلة بنى قينقاع اليهودية.[٣٥]

ثامنا - وقد فرقت بين المسلمين ، والمؤمنين ، والمؤمنين المتقين. ولعلها تقصد بالمسلمين من أسلم ظاهريا دون أن يدخل الإيمان قلبه، أو تعنى الإشارة إلى الإسلام بالمعنى العام الذى بشر به جميع الأنبياء . وتعنى بالمؤمنين النسبة إلى الايمان، بأعتباره شريعة محمد، على نحو ما جاء فى القرآن الكريم «ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل» (سورة البقره ١٠٨:٢)، «ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله» (سورة المائدة ٥:٥)، «ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان» (سورة الشورى ٥٢:٤٢).

وإذا كانت هذه التفرقة بين المسلمين والمؤمنين أمرا مفهوما له سنده فى آيات القرآن الكريم، فإن التفرقة بين «المؤمنين» «والمؤمنين المتقين» تفرقة غريبة غير واضحة، تضع المؤمنين فى درجات دون أن توضح سبب التفرقة أو نهج التدريج.

لكل أولئك فإن بعض المؤرخين ينكرون هذه الوثيقة، كما أن بعضهم يرى أن تعديلا قد لحق بها فى عصور التدوين [٣٦]. ويرى بعض الكتاب والمؤرخين المسلمين أن الرسول «إنما كتب هذا الكتاب قبل أن تفرض الجزيه، وإذ كان الإسلام ضعيفا، وكان ليهود إذ ذاك نصيب من المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين كما شرط عليهم فى هذا الكتاب النفقة معهم فى الحروب.[٣٧]» وهذا تقرير فاسد وفهم عطن وتحليل آسن لأنه يصور المسلمين على أنهم انتهازيون وصوليون، يرون أن أى غاية تبرر، أى وسيلة وأنهم تحالفوا مع اليهود حالة كانوا (المسلمون) ضعافا ثم انقلبوا عليهم عندما قويت شوكتهم .

ويتخذ بعض الكتاب المحدثين - من أنصار الإسلام السياسى - هذه الصحيفة دليلا على أن النبى كان سياسيا وأن الإسلام دين سياسى[٣٨]، دون أن يفطنوا إلى ماسبق بيانه من

ملاحظات على الصحيفة، وبغير أن يتنبهوا إلى أن السياسة لا تكون من الدين أبدا، وأن اعتبار الإسلام دينا سياسيا ليس إلا فهم جاهلى وترديد لآراء وأقوال أعداء الإسلام مثل أبو سفيان وابن الزبعرى والوليد بن عبد الملك وغيرهم ممن كانوا يرون ويقولون إن النبوة سبيل للسياسة، والرسالة سبب للتملك، والشريعة طريق للتحزب، والجهاد وسيلة للمغانم.. وهكذا.

ولئن كانت الصحيفة قد حررت بمعرفة النبى حقا، وبذات النص السالف تفصيله - وهو أمر يشك فيه البعض لما أنف - فإنها تكون وثيقة عربية قبلية، تضمنت الأسلوب والنهج والنظام السابق على الإسلام؛ لأن الإسلام لم يكن قد أسفر بعد عن قواعده التنظيمية ولا طرح بناءه التكوينى ولا فصل إطاره الخاص .

الخلاف مع اليهود :

وعلى الرغم من هذا الحلف بين المسلمين واليهود، وأحلاف أخرى غيره، فقد وقع خلاف بين الطرفين أدى إلى نتائج دموية، لعل أثرها لم يزل قائما حتى العصر الحالى .

وقد نشب الخلاف لأسباب متعددة من أهمها أن النبى (صلى الله عليه وسلم) كان راغبا فى أن يؤمن به يهود يثرب (ويهود خيبر)- لرفعة سمعتهم وعلو صيتهم - مما كان لابد أن يؤثر فى التسارع بنجاح رسالته والتأثير على أهل مكة القرشيين؛ ولعل النبى قصد أن يكوّن المسلمون مع اليهود أمة واحدة، ذات دين واحد وشريعة واحدة . وقد أبى اليهود ذلك، اعتقادا منهم أنه لا رسول بعد موسى عليه الصلاة والسلام، وأن الأنبياء تكون من بنى إسرائيل لا من العرب، وأن النبى خاص بالعرب ورسالته مقصورة على غير أهل الكتاب منهم . يضاف إلى ذلك ما زعمه بعض أحبار اليهود من أن القرآن الكريم تضمن آراء وأفكارا وصيغا والفاظا محرفة عن اليهودية (ولم يهضموا - وحتى الآن - أن العكس هو الصحيح)، هذا فضلا عما أشاعه البعض من أن النبى (صلى الله عليه وسلم) كان يحصل على معلومات ناقصة ومبتورة وشائهة عن التوراة والإنجيل من شخص نصرانى يدعى جبر؛ وفى ذلك يقول القرآن الكريم «لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين» (سورة النحل ١٦:١٠٣)، أى أن لسان جبر هذا لم يكن عربيا حتى ينقل عنه النبى آيات القرآن العربية البليغة .

وقد وسع شقة الخلاف حتى جعل الاتفاق مستحيلا حدوث واقعتى اغتيال لشخصيتين يهوديتين : كعب بن الأشرف أحد كبار بنى النضير، وأبو رافع سلام بن أبى الحقيق(٣٩)، وقد كان كل منهما شاعرا اتّهم بهجاء النبى . وكان كعب بن الأشرف من أصحاب النفوذ والبطش بالسيف واللسان، لا على اليهود فحسب بل على قريش أيضا . وقد كان أبوه عربيا من عرب طى وأمه يهودية من بنى النضير، فلما توفى أبوه وهو صغير حملته أمه إلى أخواله فنشأ فيهم وسار أمره . وكان شاعرا فارسا له مناقضات مع حسان بن ثابت (شاعر النبى فيما بعد) وغيره فى الحروب التى كانت بين الأوس والخزرج قبل الهجرة . وقد علم بعض أفراد من قبيلة

الأوس أن كعبا هذا يهجو النبى بشعره، فأرادوا قتله تقربا إلى النبى وتوددا إليه، وزعموا أن النبى قال : من لى بكعب بن الأشرف !؟ فذهبت جماعة منهم فيهم أبونائلة أخو كعب من الرضاعة واغتالوه بليل . ونظرا للتنافس المستمر - حتى بعد الإسلام - فيما بين الأوس والخزرج فإنه لما أغتالت الأوس كعب بن الأشرف، قالت الخزرج : والله لا تذهبون بها فضلا علينا أبدا ، فتذاكروا فيما بينهم عدوا للنبى يغتالونه حتى يتساوون مع الأوس، رأسا برأس، واغتيالا باغتيال، فذكروا أبا رافع سلام بن أبى الحقيق وزعموا أنهم استأذنوا النبى فى اغتياله، أو أنه قال - كذلك - من لى بأبى رافع !؟ وذهبت جماعة منه فاغتالته .

ومع أنه بدأت تظهر وتشيع دعوى سياسية مفتعلة خاطئة تزعم أن التاريخ الإسلامى كله قد زيف وحرف، لتتوسل بذلك إلى إعادة صياغته بمعايير سياسية توافق أهدافها وموازين حزبية تساعد أغراضها وقوالب شخصية تبرر أعمالها؛ مع ذلك، أو من أجل ذلك، فإن هذه الدعوى لاتنكر واقعتى الاغتيال المشار إليهما بل تتخذهما سندا لتدفع الشباب الغر البرئ إلى اغتيال خصومها غدرا واختيانا ، وغشا وعدوانا ، زعما بأن هذه هى سنة النبى التى أقرها وعمل بها ووردت أحاديث بشأنها . وفى التقدير الصحيح، فإنه يتعين على كل مسلم أن يترفع بالنبى (صلى الله عليه وسلم) عن الموافقة على واقعات الاغتيال، بل والأمر بها صراحة أو ضمنا ، كما أنه ينبغى على كل إنسان أن يطهر تاريخ الدين من مثل هذه الواقعات - مهما قيل عن دوافعها واسبابها؛ والرائد فى ذلك طبيعة النبوة وصفات النبى نفسه وما جاء فى القرآن الكريم وما تضمنته كتب التاريخ الإسلامى ذاتها .

ومهما يكن من أمر، فإنه كان من شأن واقعات الاغتيال أن فاصلت بين اليهود والمسلمين، بعد أن رأى اليهود فيها بادرة ظهور اتجاه حربى ومسلك عدوانى ومنهج ارهابى، مما دفعهم إلى الاعتقاد بأن الاسلام سياسة وليس دينا(٤٠)، وأنه تحزب لا شريعة . وهوالأمر الذى عمل بعض المسلمين - دون وعى منهم - وما زالوا يعملون - واعين أو مغرضين أو غافلين - على الإلحاح عليه وتأكيده فى كل مناسبة .

حكومة النبى

هل كانت للنبى (صلى الله عليه وسلم) حكومة ؟ وماكنه هذه الحكومة - إن كانت !؟

هذان هما السؤالان الهامان، الذان يتعين تحديد الإجابة عنهما قبل التصدى لموضوع الخلافة الإسلامية؛ لأن الإجابة الصحيحة والواضحة والمحددة هى التى سوف تبلورمفاهيم الخلافة ومضامين الحكم فى الإسلام .

وبادئ ذى بدء، تجدر الإشارة إلى أن لفظ «الحكم» لم يكن يفيد فى العصر الجاهلى، وفى عصر النبى؛ فى الشعر الجاهلى، وفى القرآن الكريم، معنى السلطة السياسية؛ لكنه يعنى

القضاء فى الخصومات أو الرشد والحكمة. بينما كان يُعبِّر عن سياسة أمور الناس بلفظ «الأمـــر» .

ولقد سبق بيان الشعر الجاهلى الذى حدد اللفظ فى هذين المعنيين . وفى القرآن الكريم - وفيما يعنى بلفظ الحكم القضاء فى الخصومات : «فإن جاءوك فاحكم بينهم أو اعرض عنهم» (سورة المائدة ٥:٤٢)، «وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث» (سورة الانبياء ٢١ : ٧٨)، «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» (سورة النساء٤:٥٨). وفى معنى الحكمة «ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما» (سورة يوسف ١٢:٢٢)، «ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما» أى حكمة (سورة الشعراء ٢٦ : ٢١).

أما عن لفظ الأمر - بمعنى إدارة شئون الناس - ففى القرآن الكريم : «وشاورهم فى الأمر» سورة آل عمران ٣:١٥٩، «وامرهم شورى بينهم» سورة الشورى ٤٢ : ٣٨، «حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر» سورة آل عمران ٣ : ١٥٢ .

وفى فهم الرعيل الأول من المؤمنين لفظا «الحكم» و «الأمر» بالمعنيين السالفين، يقول أبو بكر الصديق بعد وفاة النبى (صلى الله عليه وسلم): إن محمدا مضى لسبيله ولابد لهذا الأمر من قائم يقوم به . وعندما شارف أجله قال «وددت يوم سقيفة بنى ساعدة أنى قذفت هذا الأمر فى عنق أحد الرجلين (يعنى عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح) فكان أميرا وكنت وزيرا، وقال «وددت لو أنى كنت سألت رسول الله فى الأمر، فلا ينازع الأمر أهله». ولما أراد أن يعهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب قال للصحابة «تشاوروا فى هذا الأمر» . وفى خطبة لعمر بن الخطاب قال «ليعلم من ولى هذا الأمر من بعدى» وقال «إن هذا الأمر لا يصلح إلا بالشدة التى لاحدة فيها، وباللين الذى لا وهن فيه». ويقول على بن أبى طالب «إنه قد أعقب موت الرسول «أن تنازع المؤمنون الأمر من بعده» .

وفى النظام الذى وضعته قريش لإدارة شئونها، كانت الحكومة فى بنى سهم (ومنهم عمرو بن العاص)، وكانت تعنى القضاء بين الناس والفصل فى الخصومات عند الاحتكام .

ومفاد ذلك أن الكلام عن الحكومة والحكم بمعنى سياسة أمورالناس أمر يجرى على استعمال اللفظ وفقا لما يعْنيه حالا، وبعد التطور التاريخى له عبر كثير من الأحداث والتغيرات.

ومهما يكن من أمر، فإن الذين يدّعون قيام حكومة للنبى (صلى الله عليه وسلم) ليبرروا بها أن نظام الحكم خَدين الدين، وأن السياسة قرين الإسلام، إنما يقولون أن هذه الحكومة قامت فى المدينه بعد الهجرة، وليس قبل ذلك أبدا .

وواضح من الصحيفة السالف بيانها - والمحررة فى السنة الثانية للهجرة - ومن التعليق عليها، أنها تقوم على أعراف العرب وتقاليد ما قبل الإسلام (شأن حلف الفضول)؛ لأن

الإسلام - حتى ذلك الوقت - لم يكن قد طرح له بعد نظاما مستقلا أو فَصّل له من ثم كيانا ذاتيا.

وكل ماحدث من النبى (صلى الله عليه وسلم) طوال حياته، أنه كان يباشر مايتصل بالدين ذاته من حيث الدفاع عنه والذود عن كيانه والحفاظ على المؤمنين ورفعة شأن الإسلام؛ فذلك صميم رسالة النبى (صلى الله عليه وسلم) الذى كان منوطا به إنشاء الدين وتأسيس الشريعة، وكان ذلك دافعه الأول وقصده الأساسى وهدفه البعيد، فلم يقصد إلى سيادة ولم يهدف إلى سلطان ولم يرن إلى مُلك. وبوفاة النبى يكون الدين قد أنشئ والشريعة قد تأسست، ويكون واجب كل مسلم أن يطبق ما تأسس وأن يحقق ما أنشئ، كواجب عليه وفرض على كل مسلم، وبأعتبار أن التحقيق منه والتطبيق له، قد يخطىء فيه وقد يصيب .

وإذ كان النبى هو القرآن (فقد قالت عائشة زوجه : لقد كان خلقه القرآن) فإنه فى حياته، عندما حكم، كان القرآن نفسه يحكم ، وليس شخصا عاديا مثل أى شخص من المسلمين .

وفى هذا الحكم كان للنبى وزيران هما أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، غير أنهما كانا يقومان بوظيفة المشيرين، لكنهما لم يكونا ، ولم يكن أحد منهما رئيسا لسلطة إدارية أو جهاز تنفيذى شأن الوزير فى العصر الحالى . ولم تنشأ فى عهد النبى إدارات، ولا دواوين، ولا شرطة، ولا أجهزة. ولا كان النبى - بنفسه أو بمندوب عنه - يشرف على الزراعة أو التجارة أو التموين أو الرى أو ما شابه ذلك . ولم يضرب النبّى عملة ولا اتخذ نظاما نقديا ولا أنشأ بيتا للمال . وكل ما كان يصدر عنه فى ذلك إنما هو النصح والارشاد ونشر قيم الإسلام فى البر والعدل والتقوى؛ ووضع بعض التشريعات .

وكانت حكومة النبى - مع هذا كله - حكومة احتكام، شأن حكومات الجاهلية، وليست حكومة حكم؛ بمعنى أنه لم يكن يلزم الناس الالتجاء اليه - أو إلى جهة يحددها - للفصل فى الخصومات، وإنما كان يفعل ذلك إن رُفعت إليه الخصومة من الناس اختيارا منهم واحتكاما إليه؛ على أن ينفذوا الحكم رضاء منهم به وطواعية واختيارا «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا فيما قضيت ويسلموا تسليما» (سورة النساء ٤:٦٥) .

وكان تنفيذ أحكام الدين والشريعة، وما تنص عليه الوثائق (كالصحيفة)، موكولا إلى جماعة المؤمنين جميعا ، لا إلى هيئة محددة منهم ولا إلى واحد بذاته «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف» (سورة آل عمران ٣ : ١٠٤)، أى أن ذلك كان اختياريا للناس، مما دعا الفقهاء فيما بعد إلى أن يقولوا إنه فرض كفاية على المجتمع وليس فرض عين على كل واحد فيه .

ولم يكن فى عهد النبى أى فرض للضرائب (على التجارة أو الدخل أو الميراث .. الخ) ولاخراج (ضرائب الأرض) ولامكوس (ضرائب نقل البضائع)؛ ولم تفرض هذه إلا فيما بعد

عندما تأسست الدولة الإسلامية، اعتبارا من عهد الخلفاء الراشدين، درجة بعد درجة، واقتبست نظم فارس وبيزنطة ومصر .

وكانت الزكاة اختيارية للناس، تفيد الاحسان بالمال عموما؛ أما الصدقة (التى سميت زكاة فيما بعد) فقد كانت تدْفع إلى النبى ذاته - بصفة النبوة - لابوصف الحكم - مقابل صلاته على الناس «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم» (سورة التوبة ٩ : ١٠٣) (وهو أمر سوف يلى بيانه تفصيلا فى الفصل التالى، لاستجلاء مدى خلط أبى بكر الصديق بين حقوق النبى وحقوق الحكام وتأثيره على نظام الخلافة).

وكان الفىء (وهى الغنائم التى تجىء بلا قتال) خاصا بالرسول - بداعى الرسالة - لا بسبب الحكم - إذ أنه يقرن الرسول بالله فى الآية التى تنظمه وتحدد مصارفه «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى للقربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم» (سورة الحشر ٥٩ :٧).

وكان حكم الغنائم - من الوقائع والغزو والسرايا - هو حكم الفىء والصدقة، تقصد النبى بحكم النبُوة، لابنازع الملك «واعلموا أن ما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» (سورة الأنفال ٨ : ٤١).

وخلاصة الواقع الحقيقى، لا الفهم العليل، أنه لم تكن للنبى (صلى الله عليه وسلم) حكومة بالمعنى المفهوم حالا (فى الوقت الحالى)، ولم تكن له وزارات، ولا أجهزة إدارية، ولا جهات تنفيذية، ولا دواوين، ولا نظام للشرطة، ولا نظام للقضاء، ولم يسك عملة أو يحدد نظاما نقديا؛ ولم يفرض ضرائب أو خراجا أو مكوسا؛ وماكان يأخذه من صدقة أو من الفىء أو من الغنائم إنما كان حقا له كنبى - بنص القرآن - وليس كحاكم أو ملك أو أمير .

ويعنى ذلك أن النبى (صلى الله عليه وسلم) لم يحكم الناس- أصلا - كملك أو أمير أو رئيس أو سلطان، وإنما حكمهم - عرضا - كنبى من الله ورسول إلى الناس، وبقدر ما يتصل هذا الحكم بشئون تأسيس الدين وترسيخ الشريعة. أى أن النبى (صلى الله عليه وسلم) ساس أمور الدين- ابتداء وأصالة - لأنه وحده دون أى شخص غيره على مدى التاريخ الإسلامى، هو الذى خول ذلك من السماء وبواسطة الوحى، ثم ساس أمور الناس - ترتيبا وتفريعا - بما يدخل فى شئون الدين، وما يقتضيه وضعه كرئيس للجماعة الجديده (أمة المؤمنين) وما يستلزمه إنشاء الدين ووضْع الشريعة. أما غيره - وخاصة فيما يُعَد من الخلافة الإسلامية، وعلى نحو ماسوف يلى، فإنه يحكم الناس - أصلا - كملك أو أمير أو رئيس أو سلطان أو خليفة، لأن الدين قد تأسس والشريعة قد ترسخت والرسالة قد اكتملت (قبل وفاة النبى) ولم يعد لأى شخص صلة بهذا الترسيخ وذلك التأسيس، كل ما هناك أنه يطبق أو ينفذ (طبقا لرأيه ووفقا لتقديره) وليس التنفيذ كالإنشاء ولا التطبيق كالإرساء؛ وخاصة أن كلا من التطبيق والتنفيذ يحدث وفقا لتقدير شخصى وطبقا لرؤية ذاتيْة، قد تصح وقد تخطىء؛ وهى - على اليقين - ليست وحيا ولا هى مُراقبة بالوحى .

ومن ثم، فإن القول بأن الإسلام دين سياسى قلب للمفاهيم كَـفْءُ للموازين وخلط للأوراق؛

لأن الدين لا يكون سياسة أبدا، ولا تكون السياسة ديناً قط، وإلا تحول الدين إلى ملك عضوض وإمارة مستبدة وسيادة دنيوية؛ وتحولت الشريعة إلى تبرير للأغراض وتغليف للأهواء وتمهيد للمظالم .

* * *

وقد ترتب على هذا الخلط الفاسد بين الدين والسياسة، بين وضع النّبوة ومنصب الملك، نتيجة غاية فى الخطورة ونهاية فى السوء، ظهرت ملامحها فى الأقوال التى نسبت للرسول منذ بداية رسالته والتى تزعم أنه قال إن كلمة لا إله إلا الله، إذ تقولها قريش، تؤدى إلى أن تدين لها العرب وتتملك العجم، أو تدين لها العرب وتفرض الجزية على العجم. فلقد أدى هذا الفهم، وكان لابد أن يؤدى، إلى أن تكون الخلافة الإسلامية سيادة على العرب وتملكا للعجم؛ وعندما اختلطت السياسة بالدين وامتزجت الشريعة بالتحزب صار الدين الإسلامى نفسه – فى الفهم المعْتل والتقدير المختل – دينا عربيا [٤١]، فإن تبعه غير العرب من العجم كانوا موالى ليس غير، لا يرقون إلى مرتبة العرب أصحاب الدين ولا تكون لهم حقوق المسلم كاملة . وهذا بالفعل ماحدث فى عصر الخلافة الأموية التى كانت خلافة أعرابية (عنصُرية فى جوهرها) بيزنطية فى شكلها ونظام إدارتها . وقد اضطهدت الموالى – أى المسلمين من غير العرب – مما أغضب هؤلاء، فدفعهم إلى قلب الخلافة الأموية والمساعدة فى إنشاء الخلافة العباسية . وكأثر لرد الفعل من جانب، وبالفهم الخاطىء للدين والسياسة من جانب آخر، فقد صارت الخلافة العباسية خلافة الموالى، للفرس فيها القدح المعلى تارة، وللترك النصيب الأوفى تارة أخرى .. وهكذا .

وفى قصر الدين على العرب روى عن النبى أنه قال «لا يؤمن بى أحد من **هذه الأمة** (أمة العرب) من يهودى أو نصرانى إلا كان من أصحاب النار».

وورد فى أعمال كثير من الكتاب والشعراء العرب والمسلمين ما يفيد أن الإسلام دين عربى، أو أن الرسول أرسل للعرب، وأن على هؤلاء واجب تبليغ الرسالة لباقى الناس[٤٢].من ذلك – على سبيل المثال – ما جاء فى رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى، وفى مقدمة ابن خلدون، وفى السيرة الحلبية .

وفى هذا المعنى يقول الشاعر الفارسى مهيار الديلمى فى قصيدته المعروفة :–

أعجبت بى بين نادى قومها .·. أم سعد فمضت تسأل بى

....

قد جمعت الفخر من أطرافه .·. سؤدد الفرس ودين العرب

وهذه المسألة بالذات، أثيرت مرة ثانية فى الوقت الحالى، وسوف تثار دائما، حتى تتضح المسائل وتستقيم الموازين وتعتدل المعايير؛ وهو ماسوف نعرض له فى فصل تال.

هوامش وتعليقات

(١) السيرة الحلبية - المرجع السابق - الجزء الأول - ص ١٨٦.
(٢) السيرة الحلبية - المرجع السابق - ص ١٦، ١٧، ١٨.
(٣) السيرة الحلبية - المرجع السابق - ص ٩.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى) تقديم وتعليق وضبط طه عبد الرءوف سعد، نشر مكتبة الكليات الأزهرية بمصر - الجزء الأول - ص ٢٩.
(٥) سيرة ابن هشام - المرجع السابق - ص ١١٣، ١١٤.
(٦) السيرة الحلبية - المرجع السابق - ص ٤٩٩.
(٧) سيرة ابن هشام - المرجع السابق - ص ٦٤.
(٨) المرجع السابق - الجزء الرابع - ص ١٥٣.
(٩) تاريخ الطبرى - الجزء الثانى - ص ١١٣.
(١٠) المرجع السابق.
(١١) سيرة ابن هشام - المرجع السابق - الجزء الثالث - ص ٢١٧.
(١٢) السيرة الحلبية - الجزء الأول - ص ٣١٥.
(١٣) سيرة ابن هشام - المرجع السابق - الجزء الثانى - ص ١١٦.
(١٤) السيرة الحلبية - المرجع السابق - ص ١٣٣. وفى صفحة ١٠٨ أن النبى دعى على بن أبى طالب عند ولادته أبى الأملاك (أبو الملوك). وفى صفحة ٣١٤ أنه دعا عبد الله بن عباس عند ولادته «أبو الخلفاء»!!!
(١٥) سيرة ابن هشام - المرجع السابق - ص ١١٦.
(١٦) السيرة الحلبية - المرجع السابق - ص ١٣٤.
(١٧) المرجع السابق - ص ١٣١.
(١٨) E.A.WALLIS BUDGE, The Egyptian Book of the Dead. Dover; The Gods of the Egyptians - Vol 2 - p 162 :- he (Osiris) is greatly praised, praise him, all give to him praises, lord of praises, (he is) greatly praised.
(١٩) Breasted (James Henri) Dawn of Conscience; Will Durant, story of civilization.
(٢٠) يراجع كتابنا Development of Religion. ويلاحظ أن النبوءة بالنبى كانت باسم أحمد «ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد» (سورة الصف ٦١:٦) وعن كعب الأحبار (وهو من اليهود الذين أسلموا) أنه قال : انى أجد فى التوراة : عبدى أحمد المختار مولده بمكة : السيرة الحلبية - الجزء الأول - ص ١٠٣.
(٢١) السيرة الحلبية المرجع السابق - أحمد أمين- فجر الاسلام ص٧٥.
(٢٢) سيرة ابن هشام - المرجع السابق - الجزء الأول ص٢٧٦.
٢٣ - تاريخ الطبرى - المرجع السابق الجزء الثانى - ص ٣٢٤، السيرة الحلبية - المرجع السابق - الجزء الثانى - ص ٤٥.
(٢٤) تاريخ الطبرى - المرجع السابق - ص ٣٢١.

(٢٥) سيرة ابن هشام - المرجع السابق - ص ٢٦٢.
(٢٦) المرجع السابق - الجزء الرابع - ص ٣٤.
(٢٧) تاريخ الطبرى - المرجع السابق - ص ٤٥، ياقوت : معجم البلدان. ويقال انه قد قتل فى هذه الموقعة ١٧٠٠ من الأنصار، ١٣٠٠ من المهاجرين، و ٥٠٠ من الموالى، وفضت بكارات آلاف البنات أى استبيحت دماء وأعراض المؤمنين المسلمين.
(٢٨) تاريخ اليهود فى بلاد العرب - المرجع السابق - ص ١٠٧.
(٢٩) المرجع السابق ص ٩٧.
(٣٠) سيرة ابن هشام - المرجع السابق - الجزء الثانى - ص ١٧٧، تاريخ اليهود فى بلاد العرب - المرجع السابق - ص ١٧٧، السيرة الحلبية - الجزء الثانى - ص ٥٩٨.
(٣١) السيرة الحلبية - المرجع السابق - الجزء الثانى - ص ٥٣١، ٥٩٩، ٧٦٨.
(٣٢) شوقى ضيف - الشعر والغناء فى المدينة ومكة - دار المعارف - الطبعة الرابعة - ص ٤١، وقد أشار فى الهامش الى تفسير الزمخشرى والكشاف.
(٣٣) سيرة ابن هشام - المرجع السابق - الجزء الثانى - ص ١٠٦، ١٠٧، تاريخ اليهود فى بلاد العرب - المرجع السابق - ص ١١٢.
(٣٤) يسمى حلف الفضول لأن الذين عقدوه حلفوا أن يردوا الفضول الى أهلها أو لأنه يشبه حلف ثلاثة من قبيلة جرهم (السابقة على قريش) كل واحد منهم يقال له الفضل.
(٣٥) تاريخ اليهود فى بلاد العرب - المرجع السابق - ص ١٢٠.
(٣٦) المرجع السابق ص ١٢٠، ١٢١.
(٣٧) سيرة ابن هشام - المرجع السابق - الجزء الثانى ص ١٠٨، أبو عبيد، كتاب الأموال، الروض الأنف - الجزء الثانى - ص ١٧.
(٣٨) فهمى الشناوى - نحو إسلام سياسى - نشر المختار الإسلامى - ص ٥٧ - ٦٣.
(٣٩) سيرة ابن هشام - الجزء الثالث - ص ١١٤، ١٧٠، ١٧١؛ تاريخ الطبرى - المرجع السابق - الجزء الثانى، - ص ٤٩٥ - ٤٩٧. ويراجع رأينا فى ذلك فى دراستنا عن «تاريخ الارهاب فى الشرق الأوسط» المنشور فى مجلة الأزمنة العربية عدد رقم ٧، ومجلة الأمن العام عدد رقم ١٢٠، وكتابنا «معالم الإسلام».
(٤٠) وفى سيرة ابن هشام أنه كان من عداوة اليهود للنبى أن الله تعالى خص به العرب من أخذه رسوله منهم (الجزء الثانى ص ١١٥).
(٤١) جاء فى السيرة الحلبية - الجزء الأول ص ٤٦ «العرب أولى الأمم، لأنهم المخاطبون أولا، والدين عربى»؛ والقول منسوب لفقهاء الإسلام.
وفى رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى «محمد نبى العرب» صفحة ٧٣ من طبعة مطبعة المعارف بمصر - شرح وإيجاز كامل الكيلانى.
(٤٢) وفى المرجع السابق «لاتسبوا أصحاب محمد، فإنهم أسلموا من خوف الله، وأسلم الناس من خوف أسيافهم».



ثبت الخلفاء

١- أبو بكـر الصديق	(٦٣٢ - ٦٣٤م)
٢- عمــر بن الخطاب	(٦٣٤ - ٦٤٤م)
٣- عثمــان بن عفــان	(٦٤٤ - ٦٥٥م)
٤- على بن أبى طالب	(٦٥٥ - ٦٦٠م)

عندما كان النبى (عليه الصلاة والسلام) فى المدينة (٦٢٢ م / ١هـ - ٦٣٢م / ١٠هـ) كان يستخلف فيها أحد المؤمنين (المسلمين) كلما غادرها فى غزوة أو سرية أولأى أمر آخر . وكان الغالب أن يستخلف عمرو بن أم مكتوم (الأعمى الذى نزلت فى شأنه مقدمة سورة : عبس وتولى أن جاءه الأعمى ..)، واستخلف مرة على بن أبى طالب، ومرة أخرى أبا ذر الغفارى ... وهكذا .[٢]

وهذا الاستخلاف أشبه ما يكون بالإنابة المحددة - زمانا ومكانا - فترة غياب النبى عن المدينة - وفى المدينة وحدها - لرعاية شئون أسرة النبى، وإقامة الصلاة، وماشابه من أمور المسائل العادية والمعاش المستمر، دون أن تتعدى لتفيد معنى حكم المسلمين، ولو خلال فترة غياب النبى، وإن كان ذلك فى المدينة وحدها .

فالاستخلاف، أو الإنابة، هى من الرسول الحى الموجود فى مكان آخر، لفترة محددة وليست ممن انتقل إلى رحمة الله. وهو استخلاف محدد زمانا بفترة غياب النبى ومكانا بالمدينة وحدها، كما أنه لايتصل بالدين أو يتعلق بالشريعة، لأن أمور الدين وشئون العقيدة وأحكام الشريعة هى من حقوق النبى وحده - بمراقبة الوحى - وهو يباشرها فى أى مكان يكون فيه وفى أى وقت يمر عليه، سواء كان فى المدينة أم فى غيرها، استخلف شخصا أم لم يستخلف. والاستخلاف - أو الإنابة - مع كل ذلك، لايمكن أن يفيد معنى الحكم أو ممارسة أعباء الحكومة وصلاحياتها، لما سلف بيانه فى الفصل السابق من أنه لم تكن للنبى حكومة بالمعنى المفهوم حالا، ولأن ابن أم مكتوم الذى طالما استُخلف فى المدينة مرات عدة رجل كفيف، ومن شروط الحاكم فى الإسلام أن يكون مبصرا يتمتع بسلامة الحواس.

فالخلافة بذلك كانت عهدا من النبى - وهو على قيد الحياة - إلى شخص بذاته، ينيبه عنه، فترة محددة فى مكان معين، ليباشر بتفويض منه رعاية شئون أسرته ومسائل المعاش العاجل وباقى المسائل اليومية الملحة، التى لاتتعلق بتبليغ الدين، ولا بتفسير الآيات، ولا ببيان الشريعة، ولا بوضع الأحكام، ولا بتنفيذ الحدود، ولا برياسة الناس، ولا بسياسة الدنيا.

وهذا المعنى هو المستفاد من مفهوم لفظ الخلافة فى القرآن الكريم، وفى اللغة العربية .

ففى القرآن الكريم : « وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » (سورة الأعراف ٧:١٤٢) . فموسى (عليه السلام) عندما ذهب إلى الجبل ليتلقى الوصايا العشر استخلف أخاه هارون فى قومه ودعاه إلى أن يصلح معهم ولا يتبع سبيل المفسدين. وهذا الاستخلاف هو بذاته الانابة التى اتبعها النبى - فيما بعد، على ماسلف - فى

شئون الدنيا الحالة وأمور المعاش العاجل؛ لأن الرسالة كانت لاتزال مع موسى، والنبوة لم تكن قد انحسرت عنه، والحكم فى شئون الدين والدنيا كانا له وحده دون سواه.

وقد ورد لفظ خليفة فى القرآن مرتين : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » (سورة البقرة ٢:٣٠) ، « ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق» (سورة ص ٣٨:٢٦). وواضح أن المعنىّ بلفظ «خليفة» فى الآيتين هو النيابة عن الله سبحانه فى عمار الأرض بواسطة الجنس البشرى بأكمله، وفى الحكم بين الناس بالحق فيما يتعلق بداود.

وفى معاجم اللغة العربية أن الخليفة هو الذى يُستخلف ممن قبله، وأن الذى يَستخلف هو من يجعل له خليفة. والخلف هو التابع لمن مضى ، أما الخَلَف فهو البدل عن غيره [٣].ولذلك فقد روى عن ابن عباس أن أعرابيا سأل أبا بكر الصديق فقال له أنت خليفة رسول الله (صلعم) ؟ فقال (أبوبكر) : لا، قال (الأعرابى): فما أنت ؟ قال (أبوبكر) أنا الخالفة بعده أو قال : أنا خالفه ولست خليفته، بمعنى أنه (أبوبكر) تلى النبى فى الزمان، أو تبعه فى الوقت، لكنه ليس بدلا عنه وخلفا منه .

وفى المعاجم أن لفظ «الخليفة» يعنى السلطان الأعظم أو الأمير، وهذا المعنى جاء من الاستعمال التاريخى للفظ وتطوره عبر الأيام. وقد أدى ذلك إلى أن يقع البعض فى خطأ القول بأن للخلافة معنى لغويا هو ماسلف بيانه، ولها معنى شرعى هو رياسة المسلمين. والخطأ هو فى الخلط بين الشرعى من جانب وبين التاريخى أو الاصطلاحى أو الفقهى من جانب آخر. فالمعنى الشرعى للفظ ما، هو معناه المقصود فى القرآن الكريم أو فى الأحاديث النبوية الصحيحة، وهو يستفاد من الآية أو الحديث صراحة، أو يفهم بمدلوله الذى كان يجرى به الاستعمال اللغوى فى فترة التنزيل. أما ما تلى هذه الفترة من قول أو رأى أو تغيير لمعنى اللفظ، فهو أمر تاريخى أو اصطلاحى أو فقهى، أى من عمل الناس، بينما أن الشرعى هو من عمل الله أو من قول النبى وفعله، فيما يتعلق بالرسالة. فالأمر أو المعنى الشرعى يقف بعد وفاة النبى، ويُعَدّ ماتلى ذلك تاريخا وفقها واصطلاحا، هو من الناس لا من الله.

بهذا يكون استعمال لفظ «الخليفة» على معنى رياسة المسلمين أو خلافة النبى فى حقوقه أمرا يجرى على الفهم التاريخى والمدلول الاصطلاحى، ولا يكون تعبيرا شرعيا بأى حال .

نشأة الخلافة

سلف بيان أن النبى (صلى الله عليه وسلم) كانَ يستخلف على المدينة حال حياته، عندما كان يغادرها لفترة. وليست هذه الخلافة مناط البحث، وإنما يدور البحث حول نشأة الخلافة بعد وفاة النبى[٤]، لأن هذه النشأة هى التى أضفت على اللفظ معنى خاصا ظن معه البعض أنه

معنى شرعى، ومن ثم عدوا هذه الخلافة بعضا من الشرع أو جزءا من الدين (وهما عبارتان غامضتان)، دون أن ينتبهوا إلى أنها معنى تاريخى ونظام تاريخى، هو بلا شك جزء من التاريخ الإسلامى وبعض من الفقه الإسلامى، لكنه ليس ركنا من الدين نفسه ولاحكما من الشريعة ذاتها إلا فى الفهم الشيعى، على ماسوف يلى بيانه.

وعن عمر بن الخطاب أنه قال :«إن بيعة أبى بكر كان فلتة ... غير أن الله وقى شرها ... فمن بايع رجلا عن غير مشورة المسلمين فإنه لابيعة له ...، ... وإنه كان من خبرنا حين توفى الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن عليا والزبير ومن معهما تخلفوا عنا فى بيت فاطمة، وتخلفت عنا الأنصار بأسرها، واجتمع المهاجرون إلى أبى بكر، فقلت لأبى بكر : انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، فانطلقنا نؤمهم، فلقينا رجلان صالحان قد شهدا بدرا، فقالا : أين تريدون يامعشر المهاجرين ؟ فقلنا : نريد إخواننا هؤلاء من الانصار . قالا فارجعوا فاقضوا أمركم بينكم (أى لا فائدة لكم فى لقاء الأنصار). فقلنا : والله لنأتينهم ... فأتيناهم وهم مجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة ... وإذا بين أظهرهم رجل مزّمل (ملتف فى شئ) .. قلت : من هذا ؟ قالوا : سعد بن عبادة ... فقام رجل منهم ... وقال .. نحن الأنصار وكتيبة الإسلام، وأنتم يامعشر قريش رهط نبينا، وقد دفّت (هجمت) إلينا من قومكم دافّة . قال (عمر) فلما رأيتهم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر، وقد كنت زورت (هيأت وأعددت) فى نفسى مقالة أقدمها بين يدى أبى بكر (لمبايعته، فتكلم أبو بكر) ... فما ترك شيئا كنت (قد) زورت (أعددت) فى نفسى أن أتكلم به لوتكلمت، إلا جاء به وبأحسن منه. وقال : أمابعد يامعشر الأنصار، فانكم لا تذكرون منكم فضلا إلا وأنتم له أهل، وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش، وهم أوسط (العرب) دارا (أى من مكة) ونسبا ... فلما قضى أبو بكر كلامه قام (من الأنصار) رجل، فقال منا أمير ومنكم أمير يامعشر قريش .. فارتفعت الأصوات وكثر اللغط (اختلاط الأصوات) ... (وقال أبوبكر للأنصار، منا (أهل مكة القرشيين) الأمراء ومنكم الوزراء ..) .. (فقال عمر لأبى بكر): ابسط يدك أبايعك (لقد ارتضاك النبى لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا) فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون، وبايعه الأنصار . ثم نزونا (وثبنا ووطأنا) على سعد (بن عبادة) حتى قال قائلهم : قتلتم سعدا ... وإنا والله ما وجدنا أمرا هو أقوى (أى أصعب) من مبايعة أبى بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة، فإما نتابعهم على مانرضى، أو نخالفهم فيكون فساد(٥).

وواضح من هذا الذى رواه عمر بن الخطاب عن بيعة أبى بكر أن النبى (صلعم) لم يستخلف أحدا، وأن الجدال بين المهاجرين والأنصار كان على الأمر، وتعيين أمير، وأن مبايعة أبى بكر كانت فلتة، وأنه أعقب المبايعة اعتداء على سعد بن عبادة زعيم الخزرج (الأنصار).

فالنبى لم يستخلف أحدا من المؤمنين إبّان مرضه الأخير أو قبل ذلك ويشير بصراحة لا لبس فيها بوضوح لا إبهام فيه إلى أنه الخليفة من بعده. وقد عاش النبى فى المدينة حوالى عشر سنوات كان يستخلف فيها كلما غادرها، وكان الغالب أن يستخلف عمرو بن أم مكتوم الرجل الكفيف الذى لايصلح شرعا لولاية أمور المسلمين، وإنما يصلح عرفا لرعاية شئون الحياة العاجلة وتصريف أحوال المعاش اليومى. وفى فترة مرضه الأخيرة تكلم النبى إلى الناس من على المنبر، وفى بيته، وأشار إلى قرب أجله، وفهم أبو بكر أنه ينعى نفسه، وعرف العباس عم النبى أنه سيموت فى مرضه، وكان بوسع النبى أن يقول على رءوس الأشهاد، وأمام جمع من المؤمنين، وهو على المنبر، أو وهو فى بيته، مجرد كلمتين اثنتين : «فلان خليفتى» أو «استخلفت فلانا»، أو ما ماثل هاتين العبارتين. والمسلمون من جانبهم، وعمه العباس وابن عمه على بن أبى طالب، لم يسألوا النبى فى ذلك، وهو أمر قد يعود إلى رغبتهم عن السؤال، أو خشيتهم من الرد، أو لأنهم لم يتصوروا أن الأمر بعد النبى هو شئ من حقه أو من واجبه أن يبينه لهم أو يحدده أمامهم [٦] أما استخلاف أبى بكر لعمر بن الخطاب، وما جرى عليه العرف بعد ذلك، من تحديد الخليفة مقدما، فهو أمر حدث من رجل لرجل ولم يحدث من نبى لرجل، فضلا عن أنه كان نتيجة للاضطراب الذى حدث قبل، وبعد، بيعة أبى بكر، حتى لقد عَدَّ عمر ابن الخطاب هذه البيعة فلتة (أى أمرا لايتكرر)، فحرص المسلمون من بعدها ألا تتكررمثل هذه الفتنة التى يمكن أن تبددهم وتذهب بهم وتسئ إلى الإسلام.

وفى الجدل الذى حدث فى سقيفة بنى ساعدة بين المهاجرين والأنصار، فإنهم لم يلجأوا إلى آيات من القرآن الكريم أو إلى أحاديث نبوية بشأن الأمر (أو الحكم)، وإنما كان الجدال بينهم يدور حول **«الأمر»** وهو اللفظ الذى يعنى سياسة أمور الناس [٧]، ولا يتعلق بشئون الدين. وكان الاقتراح المقدم من أحد الأنصار أن يكون منهم **أمير** (رئيس مدنى) ومن المهاجرين **أمير** (رئيس مدنى آخر)، وهو نظام يشبه - أو يستعير - نظام تعيين قنصلين فى روما، فى بعض الفترات؛ واقترح أبو بكر أن يكون من القرشيين **الأمراء**، ومن الانصار **الوزراء** . فالصراع كان يدور حول **الأمر**، وعمن يكون **الأمير**، ولم يتعرض أحد أبدا بكلمة واحدة للدين أو الشريعة . وخلال ذلك الصراع الحاد، وتلك الفترة الحرجة، لم يحتج أحد من المهاجرين بحديث «الأئمة من قريش»، وهو الحديث الذى صار بعد ذلك من أسس الفكر السياسى الإسلامى وأحد عمد فقه الخلافة الإسلامية، مع أن تلك الفترة الحرجة وذاك الصراع الحاد كانا المناسبة الهامة، وربما الوحيدة، التى كان ينبغى أن يوضع فيها الحديث أمام الناس . فهذا الحديث - لوكان قد ظهر آنذاك - لكان قد حسم الخلاف من أصله، وأنهاه قبل أن يبدأ ، ولم يجعل من خلافة أبى بكر فلتة ؟ هذا فضلا عن أنه كان يعنون رياسة المسلمين بوصف أو باسم «الإمامة» - التى لم يتلقب بها إلا أئمة الشيعة- دون أن يجرى الاستعمال على معنى الإمارة ولفظ الأمير.

وقد كانت بيعة أبى بكر فلتة (أى أمر حدث دون روية وإحكام وليس من الميسور أن يتكرر مرة أخرى) لأن على بن أبى طالب (ابن عم النبى) والزبير بن العوام وباقى أسرة النبى مكثوا فى بيت فاطمة، أى فى بيت على، فلا هم اجتمعوا فى بيت النبى الذى توفى فيه (وهو بيت عائشة ومسجده ثم قبره من بعد)، ولا هم اتجهوا إلى المهاجرين يجتمعون بهم ويجمعونهم على أمر، ولا اتصلوا بالأنصار يمنعونهم من الاتفاق على بيعة سعد بن عبادة زعيم الخزرج، ويعرضوا أمامهم حقهم هم فى الخلافة، مع أن بيعة سعد هذه كادت أن تتم لولا تدخل أبى بكر وعمر وأبى عبيدة بن الجراح وغيرهم من المهاجرين. وكان الأنصار- على ما أنف - قد اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة وحدهم دون أن يتصلوا بالمهاجرين أو يتفاوضوا معهم أو يشاوروهم أو يدعوهم إلى الحضور، وكأنهم رأوا أن المدينة مدينتهم، وأن النبى - بحكم وضعه الدينى - كان له أن يرأس جماعتهم ويسوس أمورهم، فلما توفى عاد الأمر إليهم، فأصبح لهم الحق كل الحق فيه، فيؤمرون عليهم زعيم الخزرج - كبرى القبيلتين اللتين كانتا فى المدينة قبل الإسلام. وقد وضح هذا الفهم فى جدالهم مع المهاجرين الذين وفدوا إليهم - أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وغيرهم - إذ قالوا لهم إنهم دفّوا إليهم (هجموا عليهم) دافة [8] (جماعة سارت سيرا لينا من مكة إلى المدينة)، بما يعنى أن المهاجرين مجموعة جاءت إليهم كالدافة (الهجمة)، وانتهى أمرهم بوفاة النبى الذى كان رأسهم، والذى كانت هجرته إلى المدينة سببا فى أن يدف إليها هؤلاء المهاجرون. ولقد سلف - فى الفصل السابق - بيان رأى بعض الأنصار فى المهاجرين وكيف كانوا يسمّونهم «الجلابيب»، كناية عن الجلافة والخشونة والغلظة وعدم التحضر (مع أن القرشيين أفضل بمراحل من غيرهم من أعراب البوادى فى شتى أنحاء شبه الجزيرة العربية). وهذا الاتجاه الذى سيطر على الأنصار (أهل المدينة) وأوشك أن يدفعهم إلى مبايعة زعيم الخزرج أميرا عليهم، هو الذى فهم منه عمر بن الخطاب أنهم (أى الأنصار) يريدون أن يختزلوا المهاجرين من أصلهم - على نحو ما جاء فى روايته السالف بيانها . فقول عمر وفهمه - وهو فهم جميع المهاجرين الواعين - أن سيطرة الأنصار على الأمر وبيعة أمير منهم هو اختزال للمهاجرين وتصفية لهم واقتطاع لوجودهم واجتثاث لشأفتهم . وقد فهم الأنصار نفس الفهم، إذ ورد فى حديثهم إلى المهاجرين - فى رواية أخرى لعمر - «وقد دفت دافة منكم يريدون أن يختزلونا من أصلنا»[9]. ومعنى ذلك أن كلا من المهاجرين والأنصار كان يدرك أن الطرف الآخر يريد أن يختزله ويصفّيه ويقتطعه، وكانت وفاة النبى مناسبة أسفر فيها كل عن رأيه، وكان ذلك على وجه التحديد بسبب الإمارة، أى الرياسة الدنيوية. ففى كل الجدال الذى دار لم يُذكر الإسلام أو الإيمان أو الشريعة، أو واجب المؤمنين فى الحفاظ عليهم وحسن صيانتهم، ولم يشر أحد إلى جماعة المسلمين أو المؤمنين وضرورة تكتلها وتوحدها وتعاونها على البر والتقوى، لم يذكر ذلك ولا ذلك، وإنما ارتد الحال إلى الوضع القبلى حيث

يكون المكيون والمدنيون، أو بتعبير آخر، المهاجرون والأنصار. بل إن الواضح من لغة الحوار أن أهل المدينة (الأنصار) لم يشيروا إلى المكيين بأنهم المهاجرون بل قالوا عنهم إنهم دافة دفت إليهم؛ وبذلك يكونون قد جنحوا فى الإشارة اليهم والحديث عنهم عن الوصف الإسلامى بأنهم مهاجرون فى سبيل الله، والجلى رأيهم عن أنهم مجرد دافة (هجمة) دفت اليهم .

ومع أن ما حدث فى سقيفة بنى ساعدة ابتدأ بالجدال الحسن والحوار الكلامى، حتى وقع اللغط، فسارع عمر بمبايعة أبى بكر، وتمت المبايعة المبدئية، فإن الوضع تحول إلى العنف، كأنما لم يكن جدال حسن، وانتهت بالعدوان دون اعتداد بالحوار. فهذا عمر - ثانى الراشدين - يقول: « ثم نزونا (أى وثبنا ووطأنا) على سعد بن عبادة حتى قال قائلهم : قتلتم سعدا » . فعلى الرغم من المبايعة المبدئية لأبى بكر فقد رأى المهاجرون - أو رأى بعض منهم - أن لا مناص من العدوان على سعد زعيم الخزرج والاعتداء عليه، لإقصائه نهائيا عن فكرة طلب البيعة لنفسه، ولمنع الأنصار من مجرد التفكير فى الاستئثار بالإمارة أو حتى المشاركة فيها، حتى لا يجتثوا المهاجرين ويقطعوا شأفتهم.

وساعدت الظروف المهاجرين، كيما يتخذ التاريخ مجرى معينا، فإذا ببشير بن سعد ابن عم سعد بن عبادة، وقد كان بينهما تنافس، يسارع بمبايعة أبى بكر ليقطع على سعد سبيل الرجعة فى أن يفوز بالإمارة فينحسم الصراع بينهما لصالحه (١٠) . وقد أدى هذا إلى انشقاق صفوف الخزرج والأنصار (الأوس والخزرج) مما شجع المهاجرين على الالتجاء إلى العنف والنزوع إلى العدوان . ونتيجة لذلك فقد انفض الاجتماع بعد أن بايع أبابكر خمسة فقط . وفى اليوم التالى اعتلى أبو بكر منبر النبى فبايعته جموع المؤمنين من المهاجرين والأنصار. وتخلف سعد بن عبادة عن حضور هذه المبايعة، ربما بسبب مرضه أو نتيجة لإصابته، غير أنه امتنع بعد ذلك عن مبايعة أبى بكر تماما، كما امتنع عن مبايعة عمر بن الخطاب كذلك، حتى قُتل أثناء خلافة عمر بالقرب من جنوب الشام، قتله سهم صُوِّب عليه، وقيل فى ذلك إن الجن هى التى قتلته، وقالت فى ذلك :

قد قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة ∴ ورميناه بسهمين فلم نخطئ فؤاده

طبيعة الخلافة

فالخلافة الاسلامية، من واقع نشأتها، ووفقا للتحليل العلمى لا للتقدير الوهمى، ظهرت كرياسة دنيوية وإمارة واقعية، لا تؤسس على نص دينى ولا تقوم على حكم شرعى . فهى - على ما سلف - طُرحت ونشأت فى وقت غابت فيه أسرة النبى عن شهوده، وفى ظروف يرى فيها كل من الأنصار (أهل المدينة) والمهاجرين (أهل مكة) أن الطرف الآخر يريد تصفيته تماما واجتثاث شأفته نهائيا، فسعى كل إلى الإمارة كى ما يحمى كيانه ويصون وجوده ويمنع غيره من اختزاله.

وفى الصراع المحموم لتنحية الطرف الآخر والاستئثار بالإمارة، لم يُطرح أى نص دينى - لأنه لا يوجد أى نص فى القرآن عن الخلافة، ولم تُذكر فكرة قرابة النبى وأسرته وبيته - لأن فهم المؤتمرين كان بعيدا تماما عن منطق ميراث النبوة ووراثة السلطة الروحية أو السلطة الزمنية، ولم يُروَ أى حديث عن النبى - لأنه لم يكن آنذاك أى حديث واضح صريح قاطع يحسم مسألة الخلافة . بهذا بدأت الخلافة فى جو من الصراع السياسى، وظهرت من خلال الجدل الكلامى، وتحددت كفَلْتة لا تتكرر، ثم حُسمت نهائيا بأعمال العنف. وهذه العناصر جميعا داخلت، بشكل أو آخر، نسيج الخلافة الإسلامية، وشابكت خيوط إمارة المؤمنين، حتى أصبحت هى الغزْل والثوب، وهى الخيط والنسيج، فى الإمارة والخلافة، على مدى تاريخها وفى صميم طبيعتها ، طوال القرون.

وخلال فترة الصراع على الإمارة ثم حسمه، لم يذكر أحد واقعات استخلاف النبى عمرو بن أم مكتوم وأبا ذر الغفارى وعلى بن أبى طالب على المدينة، لإدراك المؤتمرين - عن وعى واضح أو من فهم غائم - بأن هذه غير تلك. فالاستخلاف على المدينة كان من النبى ولمهمة خاصة، فى حين أن ما كانوا ينشدونه هو إمارة على المؤمنين فى كل شئون الدنيا . وحتى صلاة أبى بكر بالناس - بناء على طلب النبى - لم تذكر كحجة دامغة على أحقيته فى الإمارة. وما قيل - رواية عن عمر بن الخطاب - أنه قال لأبى بكر عند مبايعته : إن النبى ارتضاك لديننا أفلا نرضاك لدنيانا ؟ فإنما هو قول فيه تفرقة بين الدين والدنيا ، فضلا عن أنه يفيد أ ن الصلاة بالناس لم تكن مقدمة منطقية أو واقعية تلزم عنها نتيجة محددة هى تأمير أبى بكر ومبايعته للخلافة، وإلا لسيقت وحدها وكفت بذاتها ولم تكن تقتضى مبايعة أولى ثم مبايعه ثانية، ولا كانت لتفضى إلى العنف الذى اتُّبع مع سعد بن عبادة.

وأهم الأدلة على أن أمر النبى بإقامة أبى بكر للصلاة حال مرضه لم يُفهم على أنه استخلاف له من بعده أن علىّ بن أبى طالب وشيعته لم يعتدوا بذلك إطلاقا ، ولم يروا فيه معنى الاستخلاف، ولم يحاولوا - حتى - مناقشته كدليل على ذلك . ومن جانب آخر، فإن أبابكر نفسه لم ير فى إقامته الصلاة بأمر النبى ما يفيد خلافته النبى، لأنه - على ما سلف - نفى أن يكون خليفة للنبى، أى بدلا منه أو نائبا عنه، وقال إنه خالف النبى وليس خليفته، أى إنه مجرد تال له فى الوقت، وليس خليفته يحوز مركزه ويحرز سلطاته . هذا فضلا عما روى عنه من أنه طالما تمنى لو أنه يوم السقيفة قد بايع للخلافة أحد الرجلين : عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح وصار هو وزيرا له، وهو أمر يقطع بعدم ربطه بين أمر النبى له بإقامة الصلاة وبين منصب الخلافة ذاته، كما أنه يؤكد تقديره أن الخلافة وضع دنيوى وإلا لما جاز له أن يتركها لغيره لو أنها وضع دينى ألزمَه وأمر شرعى كُلِّف أداءه.

وفهم الصحابة - من مهاجرين وأنصار - لوضع أبى بكر وطبيعة الخلافة، وأنها نابعة منهم وصادرة عنهم، وليست تعيينا من النبى أو بيانا منه أو وصاية عنه، هو الذى أدى بأبى بكر ثم عمر من بعده إلى أن يقروا أن خلافتهما كانت من المؤمنين، وأن لهؤلاء أن يعينوهم إن

أحسنوا وأن يعزلوهم إن أساءوا، بما يفيد أن الشرعية الحقيقية للخلافة الاسلامية - آنذاك - كانت تقوم أساسا فى رضاء المحكومين وتستقر أصلا فى الأمة (الجماعة) الإسلامية، فلا هى خلافة دينية تستند إلى الدين ولا هى رياسة ثيوقراطية (إلهية) تعتمد على الشريعة .

فقد قال أبو بكر بعد أن بويع له بالخلافة : «.... وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أسأت فقومونى ... أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، (يقصد تعاليم الرسول لأن الرسول لم يكن حيا ليُطاع أو يُعصى) فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم». وقال عمر بن الخطاب إثر ولايته الخلافة «... إن رأيتم فى اعوجاجا فقومونى» . وهذا القول من كبيرى الإسلام، وأول وثانى الخلفاء الراشدين والخلفاء عامة، يفيد أن شرعية الخلافة جاءت من مبايعة الناس، وأن هذه الشرعية تستمر طالما كان الناس راضين عن مسلكه فى سياسة أمورهم وفقا للمبادئ العامة المذكورة فى القرآن الكريم والمبينة فى السنة النبوية، والتى لا تتصل بالسياسة مباشرة ولا تتعلق بالحكم أصلا، وإنما ينبغى على الحاكم أن يلحظها وهو يحكم وأن يرعاها وهو يسوس . وهذه المبادئ هى العدل بين الناس أساسا، واستقامة الحاكم تماما، ونزاهة الحكم والأعوان كلية، وما إلى ذلك من مبادئ هى أساس كل حكم رشيد.

وبهذا المفهوم يكون أساس شرعية الحكم، أو الخلافة، فى الاسلام هو موافقة الأمة (الجماعة) أصلا على شخص الحاكم أو الخليفة أو الأمير أو الرئيس، واستمرار رضائهم عنه طبقا للمعايير الموضوعية المستقرة فى ضمائرهم، والمحددة فى أعرافهم، والمستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية. وفى هذا تختلف الشرعية الإسلامية عن الشرعية المسيحية، وبمعنى أدق، **تختلف شرعية الخلافة فى الإسلام عن شرعية الخلافة فى المسيحية** . ففيما يروى عن السيد المسيح أنه سأل تلاميذه عمن يكون أو ماذا يعتقد الناس عن شخصه؟ فأجاب سمعان كبيرهم أنه هو المسيح. فقال له السيد المسيح : ... وأنا أدعوك (اسمّيك) بطرس (أي بيتر، أي صفا، أى الحجر الأملس أو الصخرة البيضاء) وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى، فما تحله على الأرض يكون محلولا فى السماء ، وما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماء (١١).

وبهذا القول أصبح بطرس (الذى كان اسمه من قبل سمعان)خليفة للسيد المسيح، مايحله على الأرض يصير محلولا فى السما ، ومايربطه على الأرض يصبح مربوطا فى السماء، وهو مايفيد - فى اللاهوت المسيحى - أن مشيئتة هى مشيئة الله وأن فعله هو فعل الله، وأن كلامه هو كلام الله . وعلى هذا المعنى انبنت الكنيسة المسيحية، إذ صار البابوات خلفاء لبطرس، خليفة المسيح، مشيئتهم كمشيئته، وفعلهم كفعله، وقولهم كقوله . فالخلافة فى المسيحية، وخلافة الباباوات، ونوابهم ومن يرسمونهم ومن يولّونهم، هى - فى الاعتقاد المسيحى - خلافة دينية تحل وتربط كالسماء تماما . وهذه الخلافة إن حكمت فى شئون الدنيا يكون حكمها هو حكم الله، لا يعارضة أحد ولا يقف أمامه معارض، وليس له نقض أو

تعديل، ومن يفعل ذلك - أو حتى يحاوله - أو يعترض أدنى اعتراض - يعد خارجا على حكم الله، معترضا على مشيئة السماء ، مرتدا عن دينه، مستوجبا الإعدام. أما فى الإسلام، فالخلافة - تبعا لنشأتها ووفقا لطبيعتها - خلافة تصدر عن إرادة الناس التى تتمثل فى بيعة الناس للخليفة، وتظل تحت رقابتهم وبمحض إرادتهم وبكل رضائهم.

الفارق جوهرى وأساسى إذن بين نظام الخلافة فى المسيحية ونظام الخلافة فى الإسلام. ففى المسيحية تعد الخلافة نظاما دينيا ، يعين فيه الخليفة من الله، ويحكم باسم الله، وينطق بقوله، ويفعل بمشيئتة. أما فى الاسلام، فالخلافة نظام مدنى، يعين فيه الخليفة من الأمة (الجماعة) ويحكم باسمهم، وينطق بقوله هو لا قول الله، ويفعل بمشيئته هو لا مشيئة السماء.

وهذا الفارق الجوهرى والأساسى والحاسم هو الفارق بين الرياسة الدينية والرياسة المدنية، **فتعد الرياسة دينية إن ارتسمت خطى المسيحية وانتهجت نهجها ، وتعد مدنية إن هى اتبعت نظام الاسلام واختطت سيرته.** ولا يغير من طبيعة الخلافة الإسلامية، كنظام مدنى، أن يرعى الخليفة شئون الدين أو أن يؤم المؤمنين فى الصلاة، أو أن يرأس الاحتفالات الدينية أو أن يذود عن قيم الإسلام أو أن يحكم وفقا لشريعته، طالما أن المفهوم أنه فى كل ما يفعل ويقول يصدر عن فعله هو لا فعل الله، ويبدى قوله هو لا قول الله . والخلط بين الخلافة الدينية فى المسيحية والخلافة المدنية فى الإسلام خلط بين أضداد، واضطراب بين متناقضات، واهتزاز بين متعارضات، لابد من تحديده بدقة ورفعه تماما ، حتى يكون مالله لله، وما للناس للناس.

زيوغ الخلافة

كانت العرب أمة أمية - على ما قال النبى - لا تكتب ولا تحسب، ومن ثم فقد كانت صفرا من أى فهم عن علوم السياسة، خلوا من أي فن من فنون حكم الدول . ولم تكن لها سابقة فى التوحد - فى شبه جزيرة العرب - تحت حكومة واحدة، حتى عصر النبى . لقد كانت ثم إمارات وممالك فى جنوب شبه الجزيرة، وإلى الشمال، وفى الشرق منها، على نحو ما أنف بيانه، لكنها لم تتوحد قط فى شكل سياسى واحد، ومن ثم لم يكن عندها من نموذج للحكم إلا المُلك من جانب، ورياسة القبيلة من جانب آخر . وقد سلف بيان أثر فكرة الملك على فهم العرب لعهد النبى وعدم قدرتهم على استيعاب فكرة النبوة . ويقابل ذلك أنهم - فى نظرة أخرى - **تصوروا أن أمة الإسلام وجماعة المؤمنين قد كونوا نظاما قبليا ، وقبيلة أخرى، تختلف عن غيرها من القبائل فى أنها تأسست على رابطة العقيدة ولم تقم على علاقة الدم والنسب.** والفهم الملكى من جانب، والفهم القبلى من جانب آخر، كان لهما القدح المعلّى فى صبغ الخلافة بصبغة الملك من ناحية، وصبغة القبيلة من ناحية ثانية، مع أنها نشأت كنظام ذى طبيعة خاصة يختلف عن الملك ويختلف عن القبلية، وكان من الممكن - لوصح الفهم وصدق العزم - أن تنمو بشكل مغاير لهما ، لتقدم للإنسانية نظاما جديدا بحق، ونمطا فريدا بوضوح.

وقد كان من نتيجة الفهم الغائم والخلط الشديد والاهتزاز المتصل بين طابع الملكية وروح القبلية أن حدث زيوغ فى الخلافة وحيود فى الحكم، يبدو ظاهرا جليا فى اغتصاب حقوق النبى، واشتداد نزعة الغزو، وانتشار الجشع والفساد، وظهور القبلية والطائفية.

أولا - اغتصاب حقوق النبى :

كانت العرب تكره أن تعطى إتاوة (١٢) لشخص أو قبيلة أخرى، على تقدير أن الإتاوة جزية أو خراج أو رشوة، إذا ضربت عليهم فلذلة فيهم أو خضوع منهم أو خنوع لهم . وقد عارضت كثير من القبائل - بعد إسلامها - دفع الصدقة إلى النبى وتمنعت من ذلك وجادلت فيه، على الفهم الدارج لمعنى الصدقة، وأنها حين لا تقدم فى ذات الله طواعية واختيارا لفقير أو مسكين أو معوز، فهى إتاوة أو جزية أو خراج أو رشوة يسوؤهم أداؤها ويذلّهم دفعها ولو للنبى ذاته. وقد حسم القرآن الموقف فقضى على هذه المجادلة وتلك الممانعة وأى معارضة بالآية التى نزلت فى ذلك : «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم» (سورة التوبة ١٠٣:٩) وبهذا صار أداء الصدقة إلى النبى واجبا دينيا، إلى جانب أنه يخول للمتصدق التمتع بصلاة النبى عليه وتزكيته له.

وبعد وفاة النبى ومبايعة أبى بكر بالخلافة حدثت حروب تسمى - عموما - حروب الردة، غير أنها فى الحقيقة حربان وليست حربا واحدة، فهى حروب الردة لمن ارتد عن الأسلام من القبائل وكان عددا، وحروب الصدقة لمن امتنع من القبائل عن أداء الصدقة إلى الخليفة الجديد.

ذلك أن بعض القبائل (قبائل أسد وغطفان وطئ) (١٣) لم ترتد عن الإسلام وظلت متمسكة به مقيمة لشعائره لكنها أبت أن تدفع الصدقة إلى أبى بكر، للمعنى السالف بيانه، من أنها إتاوة أو جزية أو خراج أو رشوة يذلها أن تدفعها ويسوؤها أن تُضرب عليها . وفسر رجال هذه القبائل الآية القرآنية - الآنف بيانها - بأنها، بصريح الفاظها وواضح نصها، حكم خاص بالنبى وحده يرتفع بوفاته . فهم - بهذا التفسير - كانوا يدفعون الصدقة إلى النبى - التزاما بنص قرآنى - يفرض ذلك عليهم كواجب دينى مقابل صلاة النبى عليهم وتزكيته لهم . وبوفاة النبى لم تعد هناك أى صلاة عليهم أو تزكية منه، وبذلك يكون الالتزام قد سقط عنهم والواجب قد انحسر دونهم، وبقى عليهم إخراج الزكاة - طواعية واختيارا - إلى الفقراء والمساكين والمعوزين وفاءً لأمر الله بالزكاة التى تختلف عن الصدقة . فالصدقة التى كانت تعطى إلى النبى غير الزكاة المأمور بها دينيا كركن من أركان الإيمان (الإسلام) والتى يتعين على المؤمن أن يخرجها ويوزعها بنفسه دون أن يلتزم أداءها للحاكم.

وقد غضب أبو بكر من موقف رجال هذه القبائل، وأبى إلا محاربتهم حتى يدفعوا له الصدقة (الإتاوة أو الجزية) عن يد وهم صاغرون . وعارضه فى ذلك عمر بن الخطاب الذى قال له : أتقاتل رجالا يقولون لا إله إلا الله (والنبى قد عصم دم قائلها) فأجاب أبو بكر قائلا :

إنه يجاهد (أى يقاتل فى سبيل الله !!) من يمنعه عقالا مما كان يؤديه إلى النبى [١٤] . ثم قال أبو بكر لعمر ينتهره : أجبّار فى الجاهلية خوّار فى الإسلام ؟ يريد بذلك أن يصفه بالخور إذ جادله فى رأيه ويحمسه على الانضمام إليه . وعمر آنذاك لم يكن حديث عهد بالإسلام حتى يقارن موقفه ذاك بموقف قريب فى الجاهلية، ذلك أنه أسلم والنبى فى مكة، وكان من أسباب نصرة الإسلام حتى قيل إن إسلامه كان فتحا. وظل مع النبى والمؤمنين طوال عهد المدينة (عشر سنوات) لم يظهر عليه فيها ضعف أو يبدو خور . لكن حديث أبى بكر كان أسلوبا جديدا يتهم فيه الرئيس أو الخليفة أى معاون له أو وزير أو مشير بالضعف والخور إن لم يوافقه على رأيه وينصاع لأى قرار يتخذه . وقد آتى الأسلوب أكله وأنتج ثمره، إذ وافق عمر أبا بكر على حروب الصدقة، ربّما ليدفع عن نفسه تهمة الضعف والخور، أو لعله خشى بمعارضته أن يشق صفوف المسلمين فى تلك الفترة الحرجة، فأراد ضمها وقال إن الله شرح صدره لرأى أبى بكر.

وقد ساء بعض المؤمنين ما فعله أبو بكر فى حروب الصدقة، ورأوا أنه بذلك يأخذ من حقوق النبى ماليس له، ويغتصب من سلطات الرسول مالا ينبغى أن يغتصبه، ويُكره المؤمنين على ماليس من الإسلام فى شئ، وأنه فى الواقع ينشئ دينا جديدا غير دين النبى. وعبر الشاعر عبد الله الليثى (من قبيلة بنى ذبيان) عن هذا الفهم وتلك المشاعر فقال :-

أطعنا رسول الله ما كان بيننا .·. فيا لهفتاء مابال دين أبى بكر [١٥]

أيورثها بكرا إذا مات بعـده .·. وتلك لعمـر الله قاصمة الظهـر!

فالشاعر فيما قال يعبر عن رأيه، ورأى آخرين فى ذلك الوقت، عفويا ودون دراسة علمية لرأى أبى بكر وتقييما كاملا لنتائجه التى أسفر عنها التاريخ، ويوضح أن الخليفة فيما فعل اغتصب حقا خاصا بالنبى وحده، فبدأ بذلك خطوات وضع أحكام دين جديد، ثم جعل من الخلافة ورثاً له، ويمكن من ثم أن تورّث لذريته من بعده، وهى الذرية التى عبر عنها الشاعر فى تهكم وسخرية فسماها «بكرا» (باعتبار أن الخليفة هو أبو بكر). ولعل معنى الورث الذى عبر عنه الشاعر قد تنوقل بين الناس وتدوول بين القبائل وتبودل بين الأسر، حتى صار التهكم واقعا وأصبحت السخرية حقيقة، فإذا بالخلافة تتحول إلى إرث لدى الشيعة والأمويين والعباسيين والعثمانيين، وبذلك تبدلت من وضع إسلامى إلى حكم ملكى، وتغيرت من فهم عملى إلى ورث قبلى.

إن حروب الصدقة التى أعلنها أبو بكر الصديق، وانتصر فيها رأيه وعمله، تعد منحنى خطيرا فى الخلافة منذ بدأت، ومنعطفا شديدا غيرها فور نشوئها، ومنقلبا سيئا انحدرت إليه عبر تاريخها، ذلك أنه أدى إلى نتائج بعيدة المدى شديدة الأثر شاملة المعانى :-

(أ) فلقد شرّعت حق الخلفاء فى اغتصاب الحقوق الخاصة بالنبى، والتى لا يجوز أن تنتقل منه إلى غيره، قريبا له أو غير قريب، خليفة أو ملكا أو أميرا أو رئيسا . فمنذ خلط أبو بكر بين حقوق النبى الخاصة به وحده - كالحق فى اقتضاء صدقة من المؤمنين - وبين حقوقه هو

كخليفة للمسلمين ورئيسا لجماعتهم، اضطرب الحاجز بين ما للنبى وما للناس، واهتز الحاجب بين حقوق النبوة وحقوق الرؤساء ، وصار الخلفاء يغتصبون حقوق النبى دون أى التزام عليهم أو أى رقابة على أفعالهم وأقوالهم، وأصبحوا يصرفون إلى أنفسهم معانى وألفاظ الآيات القرآنية التى خوطب بها النبى، والتى لا يجوز أن يخاطب بها غيره أو يُصرف معناها إلى أحد سواه، كأن يقال للخليفة أو الأمير أو الرئيس أو الملك :«إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله» (سورة الفتح ٤٨: ١٠) أو يقال له :«فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما»(سورة النساء ٤: ٦٥)، وغيرها من الآيات التى خوطب بها النبى وحده، والتى يعد صرفها إلى غيره، تبديلا للكلم عن مواضعه وتغييرا للمعنى من مواقعه[١٦].

(ب) **وقد سوّغ تصرف الخليفة الأول أبى بكر الصديق لكل خليفة وأى حاكم أن يستقل بتفسيره الخاص لآيات القرآن ثم يفرضه بالقوة والعنف على المؤمنين، ويجعل من رأيه الشخصى حكما دينيا ومن فهمه الفردى أمرا شرعيا.** إن الخلاف بين أبى بكر والقبائل التى امتنعت عن دفع الصدقة له كان فى حقيقته خلافا على تفسير آية من آيات القرآن. ومثل هذا الخلاف كان ينبغى أن يُعالج بالشورى وأن يُعامل بالمعروف وأن يُجادَل بالحسنى، حتى وإن لم يُحسم فى وقته، دون ما لجوء إلى القوة والعنف والحرب لفرض رأى بذاته أو نصر اتجاه معين أو إكراه الآخرين على التسليم بتفسير خاص.

(ج) **ولقد قنّن الخليفة الأول بحروب الصدقة إشهار سيوف المسلمين على المسلمين وابتداء حرب المؤمنين للمؤمنين.** فحروب الردة كانت موجهة ضد مسلمين موحدين، ومن مؤمنين مصلّين نحو مؤمنين مصلين، وبها بدأ طريق طويل من حرب المسلم للمسلم وقتال المؤمن للمؤمن، وتعصب كل فرقة لرأيها وتحيز كل جماعة لتفسيرها، والسعى لفرض التفسير أو الرأى على الغير بالقوة والعنف والحرب والضرب.

ويرى بعض المؤرخين أن الإسلام تشكل فى صيغة حربية عندما بدأت أول سريّة للمسلمين على قوافل تجارة قريش فيما بين الشام ومكة . ويرى آخرون أن الاتجاه العسكرى فى الإسلام بدأ منذ غزوة خيبر، ذلك أن أهلها لم يكونوا من المشركين أهل مكة الذين عادوا النبى والمؤمنين وأخرجوهم من ديارهم، كما أنهم (أهل خيبر) لم يكونوا قد أساءوا إلى النبى أو إلى الإسلام (الإيمان) بشئ . ويرى فريق ثالث أن الشكل الحربى للإسلام والنزعة العسكرية فيه قد ظهرت بجلاء فى حروب الصدقة التى أعلنها أبو بكر أول الخلفاء على المسلمين وانتصر فيها. والذين يقولون إن الصيغة الحربية للإسلام تشكلت منذ أول سريّة له على قوافل القرشيين، أو يقولون إن الاتجاه العسكرى فيه بدأ مع غزوة خيبر، هؤلاء وهؤلاء، لا يقدرون تمام التقدير الظروف الحقيقية - زمانا ومكانا - للمسلمين وأسباب اتجاهاتهم ودوافع تحركاتهم فى هذه

الغزوة أو تلك السرية، وأن المسلمين كانوا آنذاك يصدرون عن اعتقاد كامل ويصدعون إلى يقين تام بالوحى القرآنى الذى يأمر بالتصرف أو يُقره حين يقع. أما حيث يكون ثم تسليم تام بانتهاء الوحى وانتفاء رابطة السماء، فإن الأمور تتخذ معانى أخرى، وترجح أن الصيغة الحربية والاتجاه العسكرى للإسلام، قد تشكلا تماما وتقولبا كلية فى حروب الصدقة.

لقد قال عالم اجتماع معاصر [١٧] **إن سيوف العرب لا بد أن تكون دائما مشهرة فإذا لم توجه إلى الغير فإنها توجه إلى أنفسهم** . ولعل هذا المعنى كان واضحا بجلاء ، أو غائما فى خفاء، لدى أبى بكر الصديق فحرص على أن تُشهر السيوف لحسم قضية الصدقة لصالح الخلافة حتى لا توجه هذه السيوف إلى الخلافة نفسها، فى ظروف حروب الردة وعدم استقرار الخلافة بعد. ولعل المعنى ذاته هو الذى دفع بعد ذلك إلى توالى الغزو، كما أنه هو الذى يفسر تاريخ الخلافة والصراع عليها، ويلقى الضوء على كثير من الحوادث، منذ هذا العهد البعيد حتى وقتنا المعاصر.

ثانيا - الغزو :

لفظ «الغزو» كأى لفظ عربى غير مستحدث، لفظ بدأ منذ عصر الجاهلية فيما قبل الإسلام واستمر حتى عهد الإسلام بعد الجاهلية . وإذ كان اللفظ يفيد فى العصر الجاهلى معنى الجهاد بقتال العدو، فقد أصبح فى العهد الإسلامى يعنى الجهاد لاستقرار الإسلام بحمايته أو نشره أو بسط سلطانه .

وفى الشعر الجاهلى ورد لفظ الغزو، والغزوة، والجهاد بهما ، فيقول الأعشى (المتوفى سنة ٦٢٩ م)

وفى كل عام أنت حاسم **غـزوة** ∴ تشد لأقصاها عزيم عزائكا

ويقول :-

وفى كل عام له **غـزوة** ∴ تحث الدوابر حث السفن

ويقول :-

ولا بد من **غـزوة فى الربيع** ∴ هجون تكل الوقاح الشكورا

ويقول جميل (بثينة)

يقولون **جاهد** ياجميل بغزوة ∴ وإن جهـادا طَيئٌ وقتالهـا

أى إن الجهاد هو جهاد قبيلة طيئ وقتالها .

والغزو - لغة - هو إرادة الشئ وطلبه، أو هو السير إلى قتال العدو وانتهابه [١٨].

وعن النبى (صلى الله عليه وسلم) أنه قال من مات ولم يغز أو يحدث نفسه بغزوة فقد مات ميتة جاهلية. وقال : لاتغزى هذه (أى مدينة مكة) بعد اليوم (يوم الفتح) إلى يوم القيامة . يعنى بذلك أن مكة لا تعود دارا لغير المسلمين يغزونها عليهم، لأن المسلمين غزوا مكة عدة مرات بعد النبى.

وبأحاديث الرسول القولية، وسننه الفعلية، أصبح للغزو معنى دينيا، كما صار صيغة إسلامية. ولهذا فإن كل كتّاب السير والتاريخ الإسلامى، وكل المسلمين، يستعملون اللفظ على هذا المفهوم، سواء كان فعل المسلمين هجوميا أم كان دفاعيا، فيقولون غزوة بدر، وغزوة أحد، وغزوة خيبر ... إلى آخر ذلك. ولم تُذكر كلمة الفتح إلا عن فتح مكة إيماء إلى البشرى بذلك فى الآيات التى أنزلت بعد صلح الحديبية (سنة ٧ هـ) «إنا فتحنا لك فتحا مبينا. ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر» (سورة الفتح ٤٨:١-٢). وقد سلف ما جاء فى قول النبى من أن مكة لن تُغزَ بعد الفتح حتى يوم القيامه، وهو مايفيد استعمال لفظ «الغزو» حتى فى فتح مكة ذاتها، بمفهوم المخالفة الذى يعنى أنها غُزيت مرة ولن تُغزى بعد ذلك.

وفى معنى الغزو، وشقائقه، روى عن النبى أنه قال للمؤمنين : قولوا لا إله إلا الله واشهدوا أنى رسوله، واتبعونى تطعكم العرب، وتملكوا العجم ... إن الله ضَمن أن يغلب سلطانى سلطان كسرى وقيصر . وقال : جعل رزقى تحت سن رمحى. وقال : بعثت بالسيف، والخير مع السيف والخير فى السيف، والخير بالسيف. وقال : لاتزال أمتى بخير ما حملت السيف (١٩). وبصرف النظر عن مدى صحة هذه الأقوال والأحاديث (وأغلب الأحاديث أحاديث آحاد، وكثير منها مضعّف : أى ضعيف) فإن تواتر هذه الأحاديث وتلك الأقوال فى العقل الإسلامى والتراث الشعبى الذى لا يتحقق من قول ولا يخرّج حديثا، وإنما يروى على الإرسال ويتأثر على الإطلاق؛ كل هذا أدى إلى صبغ الطابع الإسلامى بميل إلى الغزو ورغبة فى القتال، لاتقف عند حدود استقرار الاسلام أو صيانته والحفاظ على المسلمين، وإنما تتعدى لتصبح منهجا عاما يهدف إلى الحرب والضرب فى كل مناسبة ويمسك الرمح والسيف فى كل حين.

ومع أن بعض المسلمين الأتقياء كانوا يرون فى الغزو نشرا للإسلام وتثبيتا له وصيانة لحدوده وجهادا فى سبيل الله، فلا شك أن بعضا آخر - ممن لم يتشرب روح الإسلام أو ممن مالت نفسه إلى الدنيا - نظر إلى الغزوات على أنها سبيل للغنِى وطريق لليسار واتجاه للسيادة ومنزع للسيطرة.

ويلاحظ من كتب التاريخ الإسلامى ذاتها أن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب كان دائم التحرج شديد التردد فى أغلب الغزوات التى حدثت فى عهده، والتى تم على إثرها فتح فارس والشام ومصر (٢٠). ولعله - مع حرصه على نشر الإسلام وتثبيته - كان يخشى من المعانى السلبية للغزو والنتائج الضارة عنه. ولعله - كذلك - عندما رضخ لاتجاه الغزو كمنهج واتّباع الحرب كأسلوب - كان يضع فى تقديره ماحدث فى عهد أبى بكر من حروب، وما كان يُفهم - ضمنا - حتى فى ذلك الوقت - من أن سيوف العرب سوف توجه إلى العرب أنفسهم (فى حروب مدنية وقتالات داخلية وصراعات قبلية ونزاعات طائفية) مالم توجه إلى غير العرب.

وقد يقال إن الغزو كان يحدث كأمر دينى يصدع لأحاديث النبى فى ذلك، وأنه أدى إلى نشر الإسلام واتساع رقعته. ومثل هذا القول ليس صحيحا على إطلاقه ؛ فأحاديث النبى فى

شئون الغزو والسيف والرمح أحاديث آحاد ضعيفة، لايقام عليها الدين ولاتؤسس الشريعة ؛ هذا فضلا عن أنه لم يصدر عن النبى مايفيد أن هذه الأحاديث والأقوال - على فرض صحتها - أحاديث وأقوال مؤبدة مستمرة وليست مؤقتة بظروف معينة محددة بوقت بذاته، هى ظروف ووقت اشتداد هجوم قرشيى مكة على المسلمين . ومن جانب آخر، فإنه من المعروف فى فلسفة التاريخ والمفهوم فى أصول علم الاجتماع (وكل العلوم الفيزيائية وغيرها) أن لكل تصرف جانبين، ولكل فعل رد فعل له. فإذا كان الغزو لنشر الإسلام صحيحا فى جانب فإن له جانبا آخر ليس صحيحا؛ هو أثر الغزو على نفوس المغْزوِيْن وطبائع الغازين وروح العقيدة التى يتم على اساسها . ذلك أن الغزو لابد أن يصيب نفوس المغْزُوين ببعض الجراح التى قد لا تلتئم سريعا وتظهر نتائجها السيئة ولو بعد حين؛ كما أنه يؤثر على طبائع الغازين (الغزاة) بما قد يجعل منها عدوانية مستمرة وجشعا وطمعا فى الاسلاب والغنائم والمراكز والمناصب؛ هذا فضلا عن المردود الخطير الذى يلحق العقيدة ذاتها فيصبغها بالدم ويخلطها بالعنف، بحيث يستحيل على كثير من الناس فيما بعد أن يخلصوا العقيدة من الظروف التاريخية والأعمال الفردية التى داخلتها وخالطتها، فيظنون المؤقت أبدا ويعتقدون أن المرحلى مستمر؛ وبذلك يجنحون إلى العدوان، ويقع من ينظر إلى العقيدة ذاتها - تحت وهم التعميم وقصور الرؤية - فيصفها هى ذاتها بالعدوانية والحربية والعسكرية.

ومما يؤيد ماسلف، ويؤكد ما أنف، أن فتح فارس والشام ومصر لم يؤد فورا إلى إسلام الفرس والشوام والمصريين، بل تراخى إسلامهم فترة وفترات بعد الفتح حتى كان، عندما هدأت النفوس وسكنت الجوانح، واستطاع أهل البلاد المفتوحة من خلال اتصالاتهم الشخصية بالمسلمين العرب أن يتعرفوا على الأصول الإسلامية والأخلاقيات الحقيقية، فتحولوا تباعا إلى الإسلام. فلو أن المسلمين الأوائل عمدوا فى نشر الإسلام إلى التبشير السلمى وتقديم المثل الشخصى - كما حدث بعد ذلك فى جنوب وغرب أفريقيا وفى شرق آسيا - لكان التاريخ عامة والتاريخ الإسلامى خاصة قد كسب كثيرا واتخذ مجرى آخر تماما؛ ولكان المسلمون قد تجنبوا المذاهب الحربية والاتجاهات العسكرية والحروب المدنيه والاغتيالات الشخصية والصراعات الطائفية التى ظهرت داخل الإسلام، وفى بلاد المسلمين، ثم استقرت فيما بينهم، وتداخلت مع بعض الاعتقادات، وتشابكت مع بعض الاتجاهات، وتناسجت ضمن أفكار كثير من الجماعات.

ثالثا - الفساد :

كانت فترة ولاية أبى بكر الصديق عامين مليئين بحروب الردة وحروب الصدقة فلم يحدث فساد يستلفت النظر، خاصة وقد كان المسلمون حديثى عهد بالإسلام يرعون قيمه ويحافظون على مثله . وبعد أبى بكر ولى أمر الخلافة عمر بن الخطاب وقد كان حازما مع الجميع، شديدا حتى على نفسه، حريصا على نقاء الإسلام ومال المسلمين، قويا نزيها يخشاه الكل - خاصة

وقد كان مضرب المثل فى النزاهة والتعفف والشظف. وبعده ولى عثمان بن عفان (الأموى) أمر الخلافة، وكان هينا لينا، فضاعف عطايا المسلمين فور ولايته (زادها مائة مائة)، وسمح لوجوه المسلمين بمغادرة المدينة إلى شتى أنحاء البلاد المفتوحة حيث شرعوا فى اكتناز الأموال واكتساب النفوذ بعد أن كان عمر قد استبقاهم معه فى المدينة مخافة ما حدث فعلا من بعده؛ هذا فضلا عن أن عثمان فتح خزائن بيت المال أمام أهله وعشيرته بنى أمية، فبدأ بذلك كله عهد مما يطلق عليه فى الآونة الحالية عهد الفساد الحكومى أو الفساد الإدارى.

وقد أخذ المسلمون على عثمان بن عفان أخطاء عدة تدلل على هذا الفساد، منها أنهم قالـــوا [٢١]:-

أ - إن النبى كان قد نفى الحكم بن أبى العاص وطرده من المدينة، فظل طريدا طوال حياة النبى ومدة خلافة أبى بكر وعمر اللذين رفضا شفاعة عثمان فيه ليعود إلى المدينة. فلما كانت خلافة عثمان قدم الحكم عليه، لأنه عمه، فأبقاه فى المدينة ولم يأمره بالخروج منها تأسيا بالنبى وصاحبيه فآوى بذلك طريد النبى.

ب - وإن عثمان اتخذ أقرباءه عمالا على أمصار الاسلام، ولو أنهم كانوا من أهل الفضل والدين لكان فى توليته إياهم محاباة القرابة التى بينه وبينهم وجنوح إلى عشيرته بنى أمية، فكيف وهم فسقة فجار!؟

ومن هؤلاء العمال الوليد بن عقبة بن أبى معيط (ووالده عقبة هذا عدو النبى الذى قتله صبرا، فلما قال للنبى ومن للصبية - ومنهم الوليد - يامحمد؟ قال :لهم النار) وقد ولاه عثمان أمر الكوفة فأحدث فيها وصلى بالناس وهو مخمور فزاد فى عدد الركعات والسجدات ولما نبهه الناس التفت إليهم وقال لهم: هلا زدتكم؟[٢٢] ومن عمال عثمان - كذلك - عبد الله بن أبى سرح - وكان رضيعه - فولاه أمر مصر، وعبد الله بن عامر الذى ولاه البصرة، ومعاوية بن أبى سفيان الذى ولاه الشام (وأطلق يده فيها، وكان معاوية واليا على الشام في عهد عمر غير أنه - كما قال علىّ- كان أخوف لعمر من غلام - خادم - عمر له).

جـ - وفتح خزائن بيت المال لبنى أمية، وتزويجه مروان بن الحكم بنته وتسليمه خمس غنائم أفريقية له، وقد بلغت مائتى ألف دينار. ثم إنه (عثمان) استسلم فى كل أموره لمروان هذا (ابن عمه) فأخذ يفسد كثيرا بسوء التصرف وسوء المشورة.

د - هذا فضلا عن إيذاء أصحاب النبى . وممن آذاه عبد الله بن مسعود حتى انحرفت قبيلته «هذيل» عن عثمان بسبب ذلك، وعمار بن ياسر حتى انحرفت قبيلته «بنو مخزوم» عن عثمان من أجله، وأبو ذر الغفارى الذى نفاه إلى الربذه ومنعه من البقاء فى المدينة أو الذهاب إلى مكة.

فمن هذا يبين أن المسلمين أخذوا على عثمان - الخليفة الثالث - مايسمى بفساد الحكم أو فساد الإدارة، ممثلا فى تعيين حكام فسقة غير ورعين ولا تقاة ولا أكفاء، وبسبب قرابته لهم

لاغير، وسوء التصرف فى أموال المسلمين وبيت المال، وحماية الخارجين على القانون والنظام العام شأن الحكم بن أبى العاص، واضطهاد المحكومين ونفى المعارضين، وعدم الحكم وفقا لأوامر الله فى القرآن ونهج النبى فى السنّه، بل تبعا لمشورة مروان بن الحكم (ابن الحكم بن أبى العاص). وهى أمور تعنى- بلغة العصر- المحسوبية والاستيلاء على أموال الدولة، وحماية المفسدين، وعدم تنفيذ القانون، ووقف العمل بالدستور، واعتقال المعارضين!!!

ولم يقتصر الفساد على عهد عثمان وعلى الأمويين (بنى أمية) وحدهم، بل حدث كذلك فى عهد على بن أبى طالب الخليفة الرابع ومن الهاشميين (بنى هاشم). وتكفى فى بيان ذلك واقعة واحدة ذات خطورة بالغة أدل من واقعات عدة وأفضح من حوادث كثيرة. ذلك أن أبا الأسود الدؤلى صاحب بيت المال فى البصرة (وزير المالية) أرسل إلى الخليفة على بن أبى طالب رسالة يقول له فيها: «عاملك وابن عمك (عبد الله بن عباس) قد أكل ما تحت يده بغير علمك». وعبد الله بن عباس هذا هو ابن عم النبى كذلك وحبر الأمة الإسلامية، وكان علىّ قد ولاه على البصره. فأرسل الخليفة إلى ابن عمه وواليه يسأله فيما وصل إليه. وبعد مراسلات أجاب عبد الله بن عباس برسالة استقالة الى الخليفة جاء فيها :«**والله لأن ألقى الله بما فى بطن هذه الأرض من عقيانها وبطلاع ما على ظهرها أحب الى من أن ألقاه وقد سفكت دماء الأمة لأنال بذلك الملك والإمارة**، فابعث إلى عملك من أحببت». وهى استقالة تتضمن معنى التبجح وعدم الاستحياء من أكل كل ما فى بطن الأرض وما على ظهرها طالما كان ذلك أخف مما عمله الخليفة وأمير المؤمنين على بن أبى طالب - فى رأى ابن عباس ابن عمه وابن عم النبى - من سفك دماء أمة المسلمين فى سبيل الملك والإمارة. وبعد هذه الاستقالة العجيبة جمع ابن عباس ما كان قد تبقى من أموال فى بيت المال، ويقدر بحوالى ستة ملايين درهم، واحتمى بأخواله من قبيلة بنى هلال حيث كانوا معه فى البصرة، ومضى بالمال حتى بلغ البيت الحرام فى مكة فأصبح آمنا فيه . ولما كتب إليه الخليفة علىّ يطلب إليه رد الأمانة أجاب ابن عباس قائلا:«...إن حقى فى بيت المال لأعظم مما أخذت منه» (يقصد اختلس منه)... ثم يحذر الخليفة قائلا:«... لئن لم تدعنى من أساطيرك لأحملن هذا المال إلى معاوية يقاتلك بـــه!!!»(٢٣).

فهذه الواقعة خطيرة غاية الخطورة بالنظر إلى مدلولها، ومن صدرت عنه، ومن حدثت فى عهده، وأسلوب تبريرها، واتهام الخليفة . فهى قد وقعت من عبدالله بن عباس الهاشمى، ابن عم النبى وابن عم الخليفة على بن أبى طالب، راوى الأحاديث ومرجع التفسير ومثل المسلمين. وقد وقعت منه وهو والٍ للبصرة على أموال المسلمين فى بيت مال البصرة. وحدثت فى عهد الخليفة الرابع على بن أبى طالب، أى فى العصر الذهبى للإسلام والفترة الماسية للمسلمين، والتى يدعو البعض إلى عودتها - ولات حين عودة - لنقائها وصفائها وخلوها من الفساد

والمظالم. وقد سدر ابن عباس فى خطئه عندما أرسل إليه الخليفة يحاسبه فلم يرعو ولم ينته وإنما أسرف وبغى وطغى فحمل مابقى من مال فى بيت المال، وعاونه فى نقل المال (بعد الاستيلاء عليه) والفرار به أخواله من بنى هلال دون أن ينصحوه بتقوى الله وترك الحرام (والدين النصيحة !!). وقد ذهب بالمال الحرام إلى مكة البيت الحرام دون أن يعبأ بالتناقض فى ذلك. وفى مكة لم يقف المؤمنون فى وجهه ولم يقاطعوه ولم يحتقروه ويزدروه لما فعل، فعاش آمنا مطمئنا رغم كل القيم الإسلامية. وعندما حاول الخليفة وأمير المؤمنين أن يحاسبه لم يستطع ذلك ولم يقدر عليه . وقد عرّض ابن عباس (المختلس) بالخليفة الذى أراد أن يحاسبه وادعى أن له حقا فى بيت المال اكثر مما أخذ، دون أن يبين أساس هذا الحق، وهل هو قرابته للنبى أم ورعه أم تقواه أم علمه أم فقهه أم كونه مثلا للمسلمين ونموذجا للخلق الإسلامى!؟ وقد اتهم الخليفة أمير المؤمنين بأنه سفك دماء المسلمين فى سبيل الملك والإمارة (لا فى سبيل الله!!)، فاعتبر الخلافة ملكا (وكان بذلك أول من صرح بأنها مُلك) وادعى على الخليفة الإفساد فى الأرض (أى اتهمه بالخيانة العظمى) بقتل المسلمين وسفك دمائهم فى سبيل الحصول على الملك والوصول إلى الإمارة!!.

بهذا كله، من مَثَلٍ ومُثُل، بدأ الفساد فى صميم الخلافة الراشدة، ثم انتشر واستشرى فيما بعد ؛ يتخذ مما حدث إبّانها سوابق ويتخذ منها هديا وإماما.

رابعا - القبلية والطائفية :

فى سقيفة بنى ساعدة، إثر وفاة النبى، عاد إلى الظهور على الفور ذلك الخلاف القديم بين القحطانيين والعدنانيين، بين المدنيين والمكيين، بين الأنصار والمهاجرين. وقد سبق بيان كيف أن كلا من الفريقين كان يرى أن الفريق الآخر يريد تصفيته واختزاله واستئصاله. ومع أن القرآن الكريم يأمر المؤمنين بأن يكونوا أمة واحدة أساسها الإيمان، لا القبلية ولا العصبية ولا الطائفية، ويدعوهم لأن يتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، فإن هذه التعاليم السامية سرعان ما ذابت فى حمى الأغراض الخاصة فإذا بالمؤمنين لايتعاونون على البر والتقوى، بل يرتدون على الفور إلى أدران القبلية والعصبية والطائفية، ويتخذون من هذه - كلها أو بعضها - سببا لموقف دعا كل طرف إلى الاعتقاد بأن الطرف الآخر يريد تصفيته ويرمى إلى اختزاله ويهدف إلى استئصاله. وهذا الخلاف الذى عاود الظهور إثر وفاة النبى مباشرة سوف يحكم التاريخ الإسلامى وتاريخ الخلافة فترة طويلة، فيكون أحد أسباب موقعة الحرة سنة (٦٣هـ) التى دمرت المدينة واستأصلت المدنيين (القحطانيين الأنصار) تماما، ثم كانت السبب فى هجرة من بقى منهم إلى شتى البقاع ومختلف الأصقاع حتى استقر منهم عدد كبير فى الأندلس. ثم كان من أسباب حروب الطوائف التى استعرت فيها قرونا حتى انتهت بإخراج المسلمين جميعا من الأندلس[٢٤]

وكما وصف بعض الأنصار المدنيين المهاجرين المكيين بأنهم «جلابيب»، ثم قال أحفاد أولئك المدنيين عن أحفاد هؤلاء المكيين أنهم «بلدى»، كناية عن غلاظة الذوق وخشونة الطباع وجلافة الخلق؛ كما حدث ذلك، فقد ظهر اتجاه بين المهاجرين للحط من شأن الأنصار المدنيين ووصفهم باللؤم والخبث . وفى ذلك يقول الشاعر الأخطل (المتوفى سنة ٩٥ هـ) وهو يتحدث بلسان القرشيين عن هؤلاء الأنصار المدنيين (زمن بنى أمية):

خلوا المكارم لستمُ من أهلها .·. وخذوا مسايقيكم بنى النجار
إن الفوارس يعلمون ظهوركم .·. أولاد كل مقبّح أكّار [٢٥]
ذهبت قريش بالمكارم والعلا .·. واللؤم تحت عمائم الأنصار

بذلك تكون الخلافة لا الدين، والإمارة لا الشريعة، هى السبب الذى فجّر الشعور القبلى وقسم جماعة المؤمنين إلى مكيين قرشيين ومدنيين أكارين (مزارعين)، ثم إلى قريش فى جانب وباقى المسلمين فى جانب آخر، ثم إلى هاشميين وأمويين، ثم إلى علويين وسنيين، وهكذا؛ وبذلك انتشرت خلافات حفظها الإسلام وصراعات طواها الإيمان (إلى حين!!!)، فعادت هذه وتلك لتظهر عن قرب وتنتشر من جديد، حتى تحكم كل التاريخ الإسلامى إلى زمن بعيد.

الانشقاق

فى مرض النبى الذى توفى فيه، أخذ العباس بن عبد المطلب (عم النبى) يد على بن أبى طالب وقال له: «.. إنك بعد ثلاث عبد العصا: (كناية عن الوصول إلى السلطة) وإنى أرى رسول الله سيُتوفى فى وجعه (مرضه) هذا، وإنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت، فاذهب إلى رسول الله فسله فيمن يكون هذا الأمر؟ فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان فى غيرنا أمر به فأوصى بنا. فقال على بن أبى طالب : والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبدا، والله لا أسألها رسول الله أبدا.. قيل : فتوفى رسول الله حين اشتد الضحى من ذلك اليوم[٢٦].

وإثر وفاة النبى - على ما أنف البيان - سارع الأنصار إلى الاجتماع فى سقيفة بنى ساعدة وحدهم لتأمير كبير الخزرج سعد بن عباده، ومكث على بن أبى طالب والزبير - وربما باقى الهاشميين - فى بيت فاطمة زوج على، وهُرع بعض المهاجرين إلى أبى بكر وعمر فسارعا مع جماعة منهم إلى السقيفة، حيث دار الكلام على مبايعة سعد بن عبادة، ثم عن مبايعة أمير من المهاجرين وأمير من الأنصار، ثم على أن يكون من المهاجرين أمير ومن الأنصار وزير، ثم بويع أبو بكر فجأة، فانضم إلى مبايعة عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح له بشير بن سعد أحد الأنصار وابن عم سعد بن عبادة، ثم حدث لغط فى السقيفة انتهى بأن نزى المهاجرون على

سعد بن عبادة فأوسعوه ضربا حتى أوشك أن يموت . وفى اليوم التالى تمت البيعة العامة لأبى بكر الصديق أول الخلفاء، دون أن يحضر البيعة أو يبايع سعد بن عبادة وعلى بن أبى طالب . وقد ظل سعد بن عبادة على موقفة من عدم مبايعة أحد من المهاجرين، فلم يبايع أبا بكر طوال مدة خلافته، ولم يبايع عمر بن الخطاب الخليفة الثانى بعد أبى بكر، حتى قتل فى عهد عمر، رُمى بسهم مسموم فقتله، وقيل إن الجن قد قتلته.

وبعد بيعة أبى بكر خليفة للمسلمين توجه إليه العباس عم النبى وفاطمة ابنته يطلبان ميراثهما من رسول الله (صلى الله عليه وسلم)[٢٧](فاطمة بحق النصف فرضا، وللعباس النصف الآخر تعصيبا) وهما حينذاك يطلبان أرضه من فَدَك، وسهمه من خيبر، فقال لهما أبو بكر : لقد سمعت رسول الله يقول : لا نُوَرِّث (أى الأنبياء)، ماتركنا فهو صدقة . فغضبت لذلك فاطمة بنت النبى وهجرت أبا بكر ولم تكلمه فى هذا الشأن حتى توفيت بعد ستة أشهر من وفاة النبى.

وروى أن أبا سفيان قال لعلى بن أبى طالب بعد بيعة أبى بكر بالخلافة : ما بال هذا الأمر فى أقل حى(فرع) من قريش ! والله لئن شئتَ لأملأنها عليه خيلا ورجالا ! فرد على قائلا : يا أبا سفيان ! طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضره بذاك شيئا ... وروى - كذلك - أنه لما استُخلف أبو بكر قال أبو سفيان : مالنا ولأبى فَصيلْ (يعنى أبا بكر)، إنما هى (أى الأجدر بالإمارة) بنو عبد مناف ! ... وروى - أيضا - أنه لما اجتمع الناس على بيعة أبى بكر، أقبل أبو سفيان وهو يقول : والله إنى لأرى عجاجة لايطفئها إلا دم ! ياآل عبد مناف (الهاشميون والأمويون) فيم أبو بكر من أموركم ! أين المستضعفان ! أين الأذلان على والعباس ! ... فزجره على وقال : إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شرا![٢٨]

ومع أن هناك رواية يتيمة بأن على بن أبى طالب هرول مبايعا أبا بكر، فإن الراجح من باقى الروايات، ومن أحداث التاريخ، أن هذه الرواية منحولة ومدعاة خلال صراع سياسى، حيث يقصد بها تثبيت مركز الخلافة الشرعية وأن على بن أبى طالب[٢٩] (والهاشميون) لم يمتنعوا عن المبايعة؛ أو لتدعيم موقف على بن أبى طالب وأنه لم يخرج على الإجماع ولم يشق عصا الطاعة على الجماعة ولم يبذر بذور الفتنة فى أمر الخلافة وشئون الحكم ويريق دم المسلمين فى سبيل الملك والإمارة (كما اتهمه فيما بعد عبدالله بن عباس)، بل سارع إلى المبايعة صدوعا للإجماع وصيانة للجماعة ودرءاً للفتنة.

وفيما عدا الرواية اليتيمة عن مبايعة على بن أبى طالب لأبى بكر على الفور، فإن كتب التاريخ ورواة الأحداث تقول أن على بن أبى طالب كان يضع، كل ليلة، زوجه فاطمة الزهراء بنت النبى على جمل ويخرج بها إلى القبائل خارج المدينة يحرضها على مبايعته هو، وعلى أحقيته - وهو ابن عم النبى وزوج فاطمة ووالد سبطيه الحسن والحسين - بالخلافة وميراث

النبى. ولما ماتت فاطمة دفنها علىٌ ليلا ولم يخبر أبا بكر بالوفاة . وقد كان لعلى وجه (جراءة) من الناس فى حياة فاطمة فلما توفيت انصرفت وجوه الناس عنه، فأرسل إلى أبى بكر حتى يأتيه وحده لمبايعته . وعندما ذهب أبو بكر وحده - كشرط علىّ - قال له :«...إنه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك، ولانفاسة عليك بخير ساقه الله إليك، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا، فاستبددتم به علينا . فقال أبوبكر :«...والله أنى ما ألوت فى هذه الأموال التى كانت بينى وبينكم (سبب الخلاف) غير الخير، ولكنى سمعت رسول الله يقول : لانورث، ماتركنا (أى الأنبياء) فهو صدقة، إنما يأكل آل محمد فى هذا المال (أى يأخذوا منه ما يكفى أكلهم دون تملك له)، وإنى أعوذ بالله لا أذكر أمرا صنعه محمد رسول الله إلا صنعته فيه إن شاء الله» . وقد بايع علىٌ بعد ذلك أمام الناس وبايعت بنو هاشم لما بايع على(٣٠).

● وظاهر مما سلف من واقعات، وما أنف من بيانات أن الخلاف بين المهاجرين من جانب والأنصار من جانب آخر، والنزاع بين المكيين بعامة والقرشيين بخاصة من ناحية وبين الهاشميين والأمويين (بنو عبدمناف) من ناحية أخرى، لم يكن على أمر من أمور العقيدة، ولا شأن من شئون الدنيا، ولا حكم من أحكام الشريعة، بل على عرض من عروض الدنيا، ومادة من مواد الحياة، هى السلطة (الأمر) تارة، والميراث (الأرض) تارة أخرى.

وطوال هذه الصراعات وتلك الخلافات لم تُثر على الإطلاق مسألة الإيمان بالله، أو وحدانيته سبحانه، أو نبوة النبى، أو صدق الرسالة، أو سلامة الوحى، أو صحة القرآن، أو أركان الإيمان، أو إنكار الصلاة، أو تطبيق (أحكام) الشريعة، أو العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، أو الموقف تجاه حضارة الفرس وحضارة الرومان، أو احتمال غزو المسلمين بالفكر أو الحضارة أو الفعل أو غير ذلك من مسائل (مما يثار حالا ويدور فى الوقت المعاصر) وإنما دارت الخلافات واشتدت الصراعات حول السلطة (أى الأمر) وعن الميراث (أى الأرض).

وإن الانسان المسلم التقى الذى لم يُضع عقله فى الأوهام ولم يُذهب لبه فى الأحلام ليأسف أشد الأسف ويحزن أبلغ الحُزن أن ينحدر المسلمون الأوائل، مثله العليا، ونجومه الساطعة، وشخوصه النموذجية، إلى هذا المنقلب المادى والسعار العرضى، الذى صبغ تاريخ الإسلام بلونه الأسود ولطخه بشكله الشائه؛ وغير من روح الإسلام وبدل من صميم الشريعة، وجعل من هذه وتلك أعراضا دنيوية وأغراضا سلطوية.

لقد ثار الجدل واشتد الخلاف واستعّر الصراع بين الأنصار (وبالذات سعد بن عبادة) وبين المهاجرين على الإمارة والوزارة، ومن الذى يملك أن يحكم العرب ومن الذى يدين له هؤلاء!! وثار الجدال واشتد الخلاف واستعر الصراع بين على بن أبى طالب (ومن شايعه) وبين أبى بكر (ومن معه) حول الحق فى إرث أرض فدك وسهم خيبر ثم انتهى إلى أمر الخلافة نفسها.

واختلطت الخلافة بالميراث وتداخل الورث مع الأمر. فالوصول إلى الخلافة كان يؤدى لزوما إلى الحصول على الإرث، والحصول على الإرث كان يشكل مبدأ فى تولى الخلافة. وبهذا أصبح الإرث والخلافة أمرين متداخلين ثم مختلطين. فالخلافة ورث والورث خلافة . وهذا الفهم المتخالط والوهم المترابط يعيد إلى الذاكرة قول الشاعر :-

أطعنا رسول الله ماكان بيننا ∴ فيا لهفتنا ! مابال دين أبى بكر!!

لقد صارت السلطة والعرض والورث والصدقة عقيدة غير العقيدة ودينا بدلا من الدين وشريعة عوضا عن الشريعة، فاختلطت المسائل واضطربت الأحوال وعُمّيت الأمور وغُميت الحقائق . وفيما فعله على بن أبى طالب نفسه - لو صح الفهم واستقام العقل وخلصت النوايا - مايقطع بأن الخلافة والإمارة والسلطة ليست أمرا من أمور العقيدة، ولا ركنا من أركان الدين، ولا حكما من أحكام الشريعة (خلافا لما ذاع وشاع بعد ذلك). فعلىّ أبى أن يسأل النبى عن الأمر مخافة أن يمنعه عنه فيرفض الناس بعد ذلك إعطاءه له. ولو أن الأمر من صميم الدين وأركان العقيدة وأحكام الشريعة لما توانى عن السؤال وتراخى عن التحقق؛ وظهر كشخص مناور يترك الأمر معمّى حتى يطالب به بعد ذلك، ورجل مداور إن لم يعينه النبى صراحة ادعى التعيين ضمنا (مادام النبى لم ينفه بوضوح). ومن جانب آخر، فإن سعد بن عبادة ظل على موقفه لايبايع خليفة من القرشيين المكيين - سواء كان الخليفة أبا بكر أو كان عمر بن الخطاب - حتى مات، وبذلك يكون قد ثبت على رأيه وإن كان خاطئا واستمر فى موقفه ولو كان شاذا. أما على بن أبى طالب فقد بايع أبا بكر بعد وفاة زوجه فاطمة بنت النبى بخطبة لاتشير إلى الدين أو تعين وصية النبى وانما تذكر ادعاء الحق وتخلط بين الورث والأمر. وبعد أبى بكر بايع علىٌ عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان إلى أن بويع له بالخلافة، ثم قبل التحكيم مع معاوية على الحق فى الخلافة ذاتها. ولو أن خلافة المسلمين عموما، وحقه هو فى هذه الخلافة خصوصا، أمر من أمور الاعتقاد أو ركن من أركان الدين أو حكم من أحكام الشريعة، لما قبل فارس الإسلام ونموذج أخلاقياته أن يساوم عليها أو يداهن فيها أو ينافق بها، فلا مساومة فى أمور الاعتقاد ولا مداهنة فى أركان الدين ولا نفاق فى أحكام الشريعة. وإذا لم يكن على بن أبى طالب هو الذى يقف دون العقيدة مجاهدا ولحماية الدين محاربا ولتطبيق الشريعة مقاتلا، فمن يكون إذن؟ وهل يليق أن يدعى البعض أن على بن أبى طالب كان فيما يفعل ينتهج أسلوب التّقية (الذى شاع بعد ذلك، وخاصة بين الشيعة، وبعض منافقى السنة)، فيصمه بذلك أنه اتقى ضررا له لم يحدث (فقد تُرك ستة أشهر دون أن يبايع وما أوذى قط)، وتراخى فى مسائل الوحى والتبليغ والحق الإلهى، حين كان ينبغى عليه أن يستشهد أو على الأقل أن يتخذ ويثبت على نفس الموقف الذى اتخذه وثبت عليه سعد بن عبادة !!

وبعد أبى بكر وعمر بن الخطاب ولى عثمان بن عفان أمر الخلافة دون على بن أبى طالب الذى كان مرشحا لها معه؛ وبذلك صارت إمارة المؤمنين فى البيت الأموى الذى ينتسب له عثمان بينما صار البيت الهاشمى، ومنه على، فى صفوف المعارضة؛ فظهر على سطح الإسلام بوضوح وجلاء ذلك الصراع القديم بين الأمويين والهاشميين على رياسة قريش وإمارة الناس، وطفح على وجه الإسلام كل صراع سابق بين هذين البيتين، فبثر بثورا غائرة ونشر بطعا خبيثة، أساءت الى الدين وغيرت مفهوم الخلافة وبدلت فكرة الإمارة وزيفت معانى الحكم.

وفى عهد عثمان بن عفان حدث فساد كثير، أشير إلى بعضه فيما سلف، فعارضه عدد من المؤمنين، وكان الهاشميون بزعامة على بن أبى طالب فى طليعة المعارضة بقيادته. وانضمت الى هذه المعارضة عائشة زوج النبى وحرضت الناس على قتل عثمان (هكذا !!) إذ كانت تقـول : اقتلوا نعثلا فقد كفر [٣١] (ونعثل هذا شخص نصرانى كان يعيش فى المدينة ويشبه شكله عثمان بن عفان فأطلقوا على عثمان اسم نعثل، زراية به وازدراء له، وهو الخليفة، دون أن يتنبهوا إلى أنهم بذلك يتنابزون بالألقاب خلافا لحكم القرآن). وطالب المعارضون عثمان بخلع الخلافة، أى الاستقالة منها أو التنحى عنها. فكتب عثمان فى ذلك رسالة جاء فيها : «...لأن يكلبونى (يقيدونى) أحب إلى من أن أترك عمل الله وخلافته». وعندما حاصر الثوار بيت عثمان أرسل إلى علّى رسالة معبرة فى بيت من الشعر الجاهلى يقول :-

فإن أكُ مأكولا فكن أنت آكلى .·. وإلا فأدركنى ولما أمـزّق

ويلوح أن أيدى الثوار كانت أقرب من نجدة على لعثمان، ذلك أنهم هاجموه فى منزله وفيهم محمد بن أبى بكر (شقيق عائشة زوج النبى وعديل الحسين بن على بن أبى طالب) فقتلوا عثمان وهو يقرأ المصحف. وربما كانوا فى هذا القتل متأثرين بقولة عائشة «اقتلوا نعثلا فقد كفر». فهذه الحميراء التى روى البعض حديثا عن النبى يطلب من المسلمين أن يأخذوا عنها نصف دينهم أفتت بكفر عثمان وأهدرت دمه، ونفذ الثوار ماأفتت به وأمرت به.

وبقتل عثمان بن عفان اندلعت الفتنة الكبرى؛ فتأثر بعض المؤمنين لمقتله، واستُنت فى الإسلام سنة إهدار الدم وقتل الحاكم، وهو أمر سوف يحدث لعلى بن أبى طالب نفسه؛ وقام الأمويون بزعامة معاوية بن أبى سفيان والى الشام بالمطالبة بثأر عثمان، وظهر الخوارج بفكرهم العليل وفهمهم الكليل، ودخلت إلى الفكر الإسلامى مصطلحات «خليفة الله» و «عمل الله» و«حُكم الله» وهكذا؛ بإضافة أعمال الناس وتقديراتهم إلى الله ذاته، غصبا وغدْرا وظلما وعدوانا.

وفى رثاء عثمان يقول حسان بن ثابت شاعر النبى :-

إذ قتلـتم ماجـدا ذا مِـرّة .·. واضح السنة معروف النسـب

ويقول :-

أتركتموه مفـردا بمضـيعة .·. تتنابه الغوغـاء فى الأمصـار

جـيرانه الأدنـون حول بيـوته ∴ غدروا ورب البيت ذى الأستار
إنى رأيت أمين الله مضطهـدا ∴ تنتـابه الغـوغاء فى الأمصـار

ويقول :-

يا قاتل الله قوما كان شأنهم ∴ قتل الإمام الأمين المسلم الفطن
ماقاتلـوه على ذنـب ألمّ بـه ∴ إلا الذى نطقـوا يوما ولم يكـن

ويقول :-

من سره الموت صرفا لا مزاج لـه ∴ فليـأت مأسـدة فى دار عثـمانا
شدوا السيوف بثنى فى مناطقكم ∴ حتى يحين بها فى الموت من حـانا
لعلكـم أن تروا يومـا بمغبطـة ∴ خليفة الله فيكم كالذى كانا (٣٢)

وهكذا بينما رأى معارضو عثمان أنه خان وفسق بما يحل معه قتله، رأى أنصاره - كما يقول الشاعر حسان - أنه ذو مرة (قوة وعقل)، واضح السنة، أمين الله، خليفة الله، المضطهد، المسلم الفطن، اجتمع عليه الغوغاء، وكانوا أبواقا يدعون عليه ذنبا لم يكن، وغدر به جيرانه الأدنون.

وعلى الرغم من أن عائشة زوج النبى كانت تحرض على قتل عثمان بن عفان بقولها : اقتلوا نعثلا فقد كفر، كما أن الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله (وهما من كبار الصحابة المبشرين بالجنة) كانا قد بايعا علياً بن أبى طالب بالخلافة إثر مقتل عثمان؛ فإن عائشة ما إن علمت أن على بن أبى طالب بويع بالخلافة حتى انزعجت جدا وقالت : قُتل والله عثمان مظلوما، والله لأطلبن دمه. فلما قيل لها إنها أول من كفّره ودعى الى قتله، قالت : انهم استتابوه ثم قتلوه. وقد قلت وقالوا، وقولى الأخير خير من قولى الأول (هكذا !!!). ثم عادت إلى مكة - وقد كانت خارجها - وخطبت فى الناس قائلة لهم : «... إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه (أى الباحثين عن المياه فى الصحراء) وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالأمس ... ولما لم يجدوا حجة ولا عذرا بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام، وأخذوا المال الحرام(٣٣)..» (كان لعثمان بن عفان لدى خازنه ثلاثون ألف ألف درهم، وخمسمائة الف درهم، وخمسون ومائة ألف درهم انتُهبت كلها إثر مقتله)(٣٤). أما طلحة والزبير فقد زعما أنهما بايعا عليا كرها تحت سيوف الغوغاء الذين قتلوا عثمان، وأنه لا بيعة لمكره! ومن ثم فقد اجتمعت عائشة مع طلحة والزبير وخرجوا لمحاربة على بن أبى طالب فهزمهم فى موقعة الجمل (لأن عائشة كانت تركبُ أثناء الموقعة جملا)، ثم قتل كل من طلحة والزبير إثر ذلك.

وقامت الحرب بين على ومعاوية، وإذ لاحت بوادر هزيمة جيش معاوية رفع هو وأنصاره

المصاحف على السيوف طالبين تحكيم كتاب الله . وقبل علىّ التحكيم على الأحق منهما بالخلافة : هو أم معاوية . ولعله أراد بهذا التحكيم أن يدرأ الزعم بأنه بويع بالخلافة بسيوف الغوغاء، وأنه يسعى للملك ويطلب الإمارة، فكان التحكيم مناسبة فى تقديره ليضفى على حكمه الشرعية الكاملة ويسبغ على خلافته استقرارا بغير تزعزع. وانتهى التحكيم بخدعة تخلع عليا من الخلافة وتثبت معاوية فيها، فأصبح للمسلمين، للمرة الأولى، خليفتان يتنازعان الخلافة ويتصارعان على الإمارة ويتحاربان على الرياسة . وخرج بعض أنصار علىّ عليه لأنه قبل التحكيم فيما لم يكن له أن يحكّم فيه؛ ذلك أنه فى رأيهم حكّم فى الخلافة التى يدعيها لنفسه، وما كان له أن يقبل التحكيم فيما هو حق له (أو حق الله !! كما يرى البعض)؛ ورفع الخوارج شعارا يقول «لاحكم إلا لله» (وهو ما سوف يصبح بعد ذلك «حاكمية الله»). وقد سُمّى هؤلاء بالخوارج أو المحكّمة الأولى (أى الفرقة الأولى التى ترفض التحكيم أو ترى التحكيم لله وحده !! لأن جيلا آخر منهم يسمى المحكمة، ومن ثم يتميز الجيل الأول بأنه المحكمة الأولى)[٣٥] أو الرافضة (أى الذين يرفضون التحكيم الذى تم بين على ومعاوية).
وقد قتل عبد الرحمن بن ملجم أحد الخوارج علىّ بن أبى طالب بعد أن أهدر هؤلاء دمه، وقالوا إنه هو الذى أنزل الله فيه «ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام» (سورة البقرة ٢ : ٢٠٤). وقالوا عن قاتله انه هو الذى أنزل الله فى شأنه «ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله» (سورة البقرة ٢:٢٠٧)، ولذلك فإن من أسماء الخوارج أيضا «الشراة» أى الذين اشتروا أنفسهم (أو باعوا أنفسهم) ابتغاء مرضاة اللـه.

* * *

ومن هذا كله يبدو بجلاء ويبين فى وضوح - بلا ادعاء ولا افتراء - أن الخلاف بين المسلمين والصراع بين المؤمنين والانشقاقات فى صفوف حزب الله وصحابة رسوله، منذ عهد الخلفاء الراشدين؛ حدثت بداعى السياسة لا بداعى الدين، وبدافع الملك لا بدافع الشريعة، وبسبب حكم الناس لا بسبب حكم الله.

فللحكم وللإمارة وللرياسة وللسيادة وحدها، ووحدها فقط، انشق سعد بن عبادة زعيم الخزرج على جماعة المؤمنين وظل على موقفه لايغيره من جانبه ولاتلزمه الخلافة أو الإمارة تغييره (سياسة منها لوضعه كرئيس لأكبر قبائل المدينة، ولوجود آخرين منشقين معه يمكنهم الدفاع عنه). وظهر بسبب هذا الانشقاق والانفصال، أو لعله هو الذى كان سببا فى عودة ظهور الصراع القبلى القديم بين المكيين والمدنيين. ثم حدث انشقاق آخر وانفصال ثان بين القرشيين أنفسهم؛ ربما كان نتيجة أو كان سببا للنزاع الطائفى الدفين والصراع القبلى القديم بين الهاشميين والأمويين. ثم تجلى الانشقاق فى وجود خليفتين للمؤمنين أحدهما هاشمى هو

على بن أبى طالب، والثانى أموى هو معاوية بن أبى سفيان. ثم تزايد الانشقاق فظهر فى جماعة علىٍّ نفسها، حين انفصل عنه طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وحارباه مع عائشة زوج النبى. ثم تضاعف الانشقاق فخرج الخوارج على علىٍّ بن أبى طالب.

وخلال هذه الانشقاقات حارب المبشرون بالجنة المبشرين بالجنة، وصارع الصحابةُ الصحابةَ، وقاتل المسلمون المسلمين، وغال المؤمنون المؤمنين؛ وفى كل هذه الصراعات المحمومة والقتالات العنيفة كان كل من المسلمين يعتقد أنه على الحق والجادة وغيره على الباطل والكفر؛ وهو فهم سوف يصبح ديدن جماعات كثيرة من المسلمين، طوال التاريخ الإسلامى وحتى العصر الحالى.

وكذلك فقد ظهرت الشعارات التى سوف تصبح مذاهب بعد ذلك تحكم كل التاريخ الاسلامى وتسيطر على كل أحداثه مثل : خليفة الله، عمل الله، حاكمية الله، وصى النبى، أهل البيت .. وهكذا. وقد أدت هذه الشعارات وتلك الانشقاقات إلى ظهور الشيعة، وظهور الخوارج، وتأسيس الخلافة الأموية، ثم تقويض هذه الخلافة وإقامة الخلافة العباسية، وشيوع الباطنية والتقية، وإنشاء الخلافة الفاطمية ... إلى غير ذلك.

وفى كل الأحوال فقد بدأ الانشقاق بشعار وظهر الانصداع بقالة، وبدر الانفصال بلافتة، ثم تحول الشعار مع الأيام إلى مذهب وتجلى القول مع الوقت فى مبدأ، وتبلورت اللافتة مع الزمن فى اتجاه؛ وخلق هذا الاتجاه وذلك المبدأ وذاك المذهب مناصرين ومريدين وأتباعا وأشياعا ومؤمنين به ومعتنقين له، ومحاربين عنه ومقاتلين فى سبيله، مع أنه قد يخالف صميم الإسلام وجوهر الإيمان وصريح الشريعة، كما أنه قد لايجد سندا له من التاريخ غير شعار، وسببا من الأحداث إلا قولا، وأساسا من الواقعات إلا ظنا. ذلك بأن الاعتقاد يبدأ أولا، خاصة فى فترات الطفولة أو الجهل أو الانفعال الوجدانى أو الاضطراب العاطفى أو المراهقة النفسية أو الفكرية، ثم ينتقى الاعتقاد مايوافقه من الأحداث، وقد يخلقها خلقا؛ كما يتخير مايناسبه من الأقوال، وقد ينتحلها انتحالا. ومن الأحداث التى يتخيرها أو يختلقها، ومن الأقوال التى ينتخبها أو ينتحلها، يخلق لنفسه مايساند الاعتقاد وما يساعد الارتباط، وغالبا ما يكون ذلك كله ركاما من الأوهام وحطاما من الأحلام.

هوامش وتعليقات

(١) المراجع الرئيسية :

1- Encyclopedia Britannica, 1977, macro, Vol 9 p 911.

2- Encyclopedia Americana, Vol 15 p 491.

٣- أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى - تاريخ الطبرى - تاريخ الرسل والملوك - المرجع السابق - الجزءان الثالث والرابع.

٤- ضياء الدين بن الأثير - الكامل «فى التاريخ»

٥- الأستاذ أحمد أمين - ضحى الاسلام

٦- دكتور حسن ابراهيم حسن - تاريخ الإسلام السياسى - المرجع السابق

٧- الأستاذ ميخائيل شاروبيم - الكامل فى تاريخ مصر القديم والحديث - المرجع السابق - الجزء الثانى.

٨- دكتور طه حسين - الأعمال الكاملة - الشيخان، الفتنة الكبرى، على وبنوه.

٩- الأستاذ عباس محمود العقاد - الأعمال الكاملة - عبقرية الصديق، عبقرية عمر، عبقرية الإمام.

١٠- سيرة ابن هشام - المرجع السابق.

١١- السيرة الحلبية - المرجع السابق.

١٢- أبو حسن على بن اسماعيل الأشعرى - مقالات الإسلاميين تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

١٣- الشهر ستانى : الملل والنحل.

(٢) ويسمى هذا الاستخلاف استعمالا، فيقال إن النبى استعمل على المدينة فى غيابه فلانا، مما يفيد أنه أمر يختلف عن الخلافة موضوع البحث.

(٣) لسان العرب، المعجم الوسيط، مادة «خلف».

(٤) يراجع ماسلف فى هامش رقم «٢».

(٥) تاريخ الطبرى - المرجع السابق - الجزء الثالث ص ٢٠٥ ومابعدها، ص ٢٠٢. سيرة ابن هشام - الجزء الثانى - ص ٣٧٢، ٣٧٣.

(٦) يلاحظ أن نفس الموقف صادف على بن أبى طالب ولم يستخلف؛ ذلك أنه بعد أن ضربه عبد الرحمن بن ملجم بالسيف المسموم وصار على شفا الموت، سأله من حوله : هل تستخلف الحسن بن على (أكبر ولديه) فقال : لا آمركم ولا أنهاكم. فإذا كان هذا الموقف قد حدث من على بن أبى طالب فى ظروف فتنة فإن تصرف النبى يكون أمرا مفهوما تماما.

(٧) يراجع فى بيان معنى «الأمر» كتابنا «الإسلام السياسى».

(٨) لسان العرب، المعجم الوسيط، مادة «دفّ».

(٩) مقالات الإسلاميين، المرجع السابق، هامش ص ٤٢.

(١٠) تاريخ الطبرى - المرجع السابق - الجزء الثالث - ص ٢٢١

(١١) انجيل متى - إصحاح ١٦ : ١٧ - ٢٠ «فأجاب سمعان بطرس وقال : أنت هو المسيح .. فأجاب يسوع (المسيح) ... وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى ... وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ماتربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات وكل ماتحله على الأرض يكون محلولا فى السموات..».

(١٢) يراجع فى معنى اللفظ : لسان العرب، المعجم الوسيط - مادة أتى - والأتاوى هو من لايُدرى من أين أتى أو هو جامع الإتاوات.

وفى هذا المعنى كان البيت الذى هجت به عصماء بنت مروان النبى (صلعم) إذ قالت :-

أطعتم أتاوىّ من غيركم .·. فلا من مراد ولا مذحج

ومن أجل ذلك، فقد أهدر بعض المسلمين دمها وقتلها واحد منهم.

(١٣) تاريخ الطبرى - المرجع السابق - ص ٢٤٤.

(١٤) المرجع السابق ص ٢٤٥.

(١٥) هكذا ورد البيت فى رسالة الغفران المرجع السابق وفى الأغانى للأصفهانى. وورد فى تاريخ الطبرى بصيغة أخرى هى :

أطعنا رسول الله ماكان بيننا .·. فيا لعباد الله ما لأبى بكر !!

ويلاحظ أنه كانت للنبى حقوق أخرى خاصة به أى يختص بها دون المؤمنين منها.

١- حقه فى الفىء.

٢- حقه فى الغنائم.

٣- حق الجمع بين تسعة أزواج.

٤- حقه فى عدم زواج زوجاته بآخرين من بعده.

٥- زواج الهبة «وإن امرأة وهبت نفسها للنبى إن أراد أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين» سورة الأحزاب ٣٣ : ٥٥.

٦- إرجاء من يشاء من النساء وإيواء من يشاء «ترجى من تشاء منهن وتؤى من تشاء» الأحزاب ٣٣ : ٥٢.

٧- أخذ الصفية أو الصفى من الغنائم وهى عبد أو أمة أو سيف أو درع يأخذه غير سهمه، غاب عن المعركة أو حضر (السيرة الحلبية/ جـ٢ - ص ٤٤٠).

٨- ألا ينكح أحد على ابنته إلا بإذنه. فقد أبى على عليّ بن أبى طالب أن ينكح على فاطمة من بنى هشام بن المغيره (المرجع السابق ص ٤٧٤).

٩- جواز النظر بالأجنبية والاختلاء بها لأمنه من الفتنة (المرجع السابق ص ٥٨٧).

١٠- حل عقدة النكاح فى الإحرام، أى ينكح وهو محرم (المرجع السابق ص ٧٨٢).

(١٦) يراجع كتابنا أصول الشريعة، الفصل الخاص عن «أصول الحكم فى الشريعة».

(١٧) جوستاف لوبون : حضارة العرب.

(١٨) لسان العرب - المعجم الوسيط - مادة «غزو».

(١٩) رسالة الغفران - المرجع السابق - ص ٤١، ٢٣٠ - تاريخ الطبرى المرجع السابق - الجزء الثانى.

(٢٠) يراجع كتاب الفاروق عمر للأستاذ محمد حسين هيكل.

(٢١) مقالات الإسلاميين - المرجع السابق، تاريخ الطبرى - المرجع السابق - الجزء الثالث، الملل والنحل المرجع السابق.

(٢٢) السيرة الحلبية - المرجع السابق - الجزء الثانى - ص ٥٩٣.

(٢٣) تاريخ الطبرى - المرجع السابق - الجزء الرابع ص ١٠٨ ومابعدها، الفتنة الكبرى لطه حسين - المرجع السابق - الجزء الرابع ص ٥٥١ - ٥٥٧.

(٢٤) يراجع : ر. دوزى : تاريخ مسلمى أسبانيا - الجزء الأول - الحروب الأهلية، ترجمة الدكتور حسن حبشى، نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

(٢٥) الأكّـار هو المزارع.

(٢٦) تاريخ الطبرى - المرجع السابق - ص ٣١٣، ١٩٤؛ سيرة ابن هشام - الجزء الثانى - ص ٣٧١.

(٢٧) تاريخ الطبرى - المرجع السابق ص ٢٠١.

(٢٨) المرجع السابق - ص ٢٠٩.

(٢٩) المرجع السابق - ص ٢٠٧.

(٣٠) المرجع السابق - ص ٢٠٩ ومابعدها.

(٣١) مقالات الإسلاميين - المرجع السابق هامش ص ٥٥ ويلاحظ أن كلمة كفر لاتعنى دائما الكفر بالله، إذ هى تعنى التغطية أو الإظلام فيكون الكافر من ثم من غطى على حقيقة معينة أو أنكرها أو من أظلم.

(٣٢) حسان بن ثابت - ديوان حسان.

(٣٣) مقالات الإسلاميين - المرجع السابق.

(٣٤) ابن سعد - الطبقات الكبرى - دار صادر - الجزء الثالث ص ٧٦.

(٣٥) يراجع الملل والنحل للشهرستانى.

الخلافة الأموية (١)

ثبت الخلفـــاء

	سنة هجرية	سنة ميلادية
١ - معاوية الأول ابن أبى سفيان	٤١	٦٦١
٢ - يزيد الأول ابن معاوية	٦٠	٦٨٠
٣ - معاوية الثانى ابن يزيد	٦٤	٦٨٣
٤ - مروان الأول ابن الحكم.	٦٤	٦٨٣
٥ - عبد الملك بن مروان	٦٥	٦٨٥
٦ - الوليد الأول ابن عبد الملك	٨٦	٧٠٥
٧ - سليمان بن عبد الملك	٩٦	٧١٥
٨ - عمر بن عبد العزيز	٩٩	٧١٧
٩ - يزيد الثانى ابن عبد الملك	١٠١	٧٢٠
١٠ - هشام بن عبد الملك	١٠٥	٧٢٤
١١ - الوليد الثانى ابن يزيد	١٢٥	٧٤٣
١٢ - يزيد الثالث ابن الوليد	١٢٦	٧٤٤
١٣ - ابراهيم بن الوليد	١٢٦	٧٤٤
١٤ - مروان الثانى ابن محمد	١٢٧	٧٤٥

كانت قبيلة قريش تسيطر على مكة، وغالبية سكانها منها، منذ عهد قصى بن كلاب الذى جمّعهم فيها (حوالى سنة ٤٠٠م) ثم بسط نفوذهم على الكعبة حتى أصبح رجالها يُسمّون رجال الله، وجيران بيت الله، وصفوة الخلق؛ الأمر الذى جعل لقريش نفوذا حقيقيا بين العرب ومركزا ممتازا فيهم.

وكانت قريش تضم اثنا عشر فرعا (أو حيا)، أكبرها فرعا بنى هاشم وبنى أمية . وكان بنو هاشم برياسة عبد المطلب جد النبى (صلى الله عليه وسلم) ثم آلت الرياسة بعد وفاته إلى أبى طالب عم النبى (ووالد على)، وكان بنو أمية (عبد شمس) برياسة أبى سفيان. وكان الأمويون أكثر يسارا وأشد رخاء فطمعوا فى زعامة قريش، خاصة بعد أن ضربت النكبات المالية أبا طالب فوطأه الاعسار الذى أدى بالنبى (صلى الله عليه وسلم) إلى أن يضم علىّ بن أبى طالب إلى بيته ليكفله حتى يخفف العبء عن عمه.

وهذا التنافس الشديد بين الهاشميين والأمويين كان بعيد الأثر فى فهم هؤلاء الأخيرين لمعنى النبوة، ثم تطلعهم بعد ذلك إلى وراثتها. فلقد فهموا النبوة دائما على أنها صيغة هاشمية للملك. وفى هذا يقول عمرو بن هشام بن المغيرة: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، ، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان، قالوا منا بنى يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك مثل هذا!.[٢] وبعد فتح مكة (سنة ٨ هـ) وقف النّبى (صلى الله عليه وسلم) يستعرض جيوش المسلمين بألويتهم، لواء إثر لواء، وإلى جانبه وقف أبو سفيان شيخ الأمويين مع العباس عم النبى يشاهدان الاستعراض معا؛ فقال أبو سفيان للعباس: «لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما » فأجاب العباس قائلا «إنها النبوة وليس الملك يا أبا سفيان» فرد أبو سفيان بقوله «أما هذهِ (أى النبوة) فمازال فى نفسى منها شىء»[٣].

هذا هو رأى أبى سفيان شيخ الأمويين بعد أن أعلن إسلامه ، وهو رأى ظاهر قاطع بأن النبّى - فى تقديره - ملك أنشأ ملكا وليس نبيا أرسى دعائم الدين ورسخ قواعد الشريعة . وإذا كان أبو سفيان قد أظهر سريرته أمام العباس عم النبى إثر الفتح العظيم لمكة، فلاشك أنه قد أضمر أطماعه فى أن يرث هذا الملك له ولأبنائه من بعده. وقد بدأت هذه الأطماع تتحرك

بعد وفاة النبى وبيعة أبى بكر بالخلافة، إذ قال أبو سفيان: أين المستضعفان؛ أين الأذلان العباس (عم النبى) وعلى (ابن عمه)؛ أى أنه فهم أن الخلافة إرث رشح له مبدئيا عم النبى أو ابن عمه ، حتى يرتّب أمره بعد ذلك بالحيلة أو الغدر أو بهما معا- لكى ينحى من يُستخلف منهما ثم يرث هو وأسرته الخلافة (وهو ماحدث فعلا فيما بعد). وقال أبو سفيان - كذلك - مالنا ولأبى فصيل؛ (كنية استهزاء بأبى بكر) إنما هى (أى الأجدر بالإمارة) بنو عبد مناف! وقال لعلى بن أبى طالب - أيضا- مابال هذا الأمر (الخلافة) فى أقل حى (فرع) من قريش! والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجالا! فرد علىٌ قائلا: يا أبا سفيان: طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضره بذاك شيئا. وكذلك قال أبو سفيان: والله انى لأرى عجاجة لايطفئها إلا دم! يا آل عبد مناف (الهاشميون والأمويون) فيم أبو بكر من أموركم؟! فزجره على قائلا: إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شرا(٤)!!

وواضح من ذلك أن أبا سفيان انتهز فرصة وفاة النبى ليثير فتنة ، فظل أكثر من مرة يستفز العباس وعلى (أقرب الورثة إلى النبى) ويحرضهما ، ويحاول تأليب قريش ويبدى استعداده للحرب - فى سبيل المُلك- ويلوح بإراقة الدماء. ولم يقف أغراضه أو يخيب رجاءه إلا إجماع المسلمين آنذاك، وحسن تصرف على بن أبى طالب ، ووجود أبى بكر الصديق، وعمر بن الخطاب القوى الشديد.

وإذا كان أبو سفيان قد أظهر شيئا فمما لاشك فيه أنه أضمر أشياء ، كانت تدور فى عقله وتعتمل فى نفسه، يلقنها أسرته، ويُرْضعها أولاده، حتى إذا ماسنحت لها سانحة ظهرت على الفور وعملت بكل قوة.

وبعد وفاة أبى بكر بويع لعمر بناء على كتاب من أبى بكر فلم تقم أى مناسبة للفتنة، خاصة مع شخصية عمر. وقد ولىَّ عمر بن الخطاب معاوية بن أبى سفيان على الشام، فكان معاوية لدهائه أطوع لعمر من خادمه (كما قال على بن أبى طالب فيما بعد لعثمان بن عفان). وعندما عاد أبو سفيان إلى المدينة من زيارة لابنه معاوية بالشام قاسمه عمر فيما كان قد أخذه (أبو سفيان من ابنه معاوية) من أموال بعد أن فضح أمرهما بحيلة، ولم يستطع أبو سفيان أن يحتج على عمر، كما أن عمر لم يتخذ إجراء أكثر من ذلك؛ ولعله كان على ادراك بطبائع البشر ودخائل العرب ، وعلى ضعف الأمويين إزاء الملك والمال، ورغبتهم الجامحة فى هذا وذاك.

وعندما قدم عمر بن الخطاب إلى الشام لقى معاوية وهو فى أبهة الملك وزيّه من العديد والعدة ، فاستنكر عمر ذلك وقال: أكسرويه يامعاوية!؟ فقال هذا «يا أمير المؤمنين: إنّا فى ثغر تجاه العدو وبنا حاجة إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد (٥)» فسكت عمر، إما لما احتج به معاوية من مقاصد الحق والدين، وإما لأنه اكتفى بإبداء الرأى ولم يجد جدوى فى أكثر من

هذا، فى ذلك المكان وفى ذاك الأوان . وسواء كان هذا أم ذاك فإن الأمر ينبىء عن خبيئة معاوية، وكيف أنه ما وجد فرصة - حتى فى عهد عمر - إلا وانتهزها لكى يتلبس لبوس الملوك ويتزيّا بزيهم ويتخلق بطباعهم، ثم يصبغ ذلك كله بمصابغ الحق ويلونها بألوان الدين ويزخرفها بزخارف الشريعة.

وفى عهد عثمان بن عفان الأموى رجحت كفة الأمويين (وخفّت كفة الهاشميين). وتصرف الأمويون كما لو أنهم ملكوا رقاب العباد وأموال البلاد . ذلك أن عثمان بن عفان أعاد الى المدينة عمه الحكم بن أبى العاص الذى كان يسمى طريد النّبى ، لأن النّبى كان قد نفاه من المدينة، ورفض أبو بكر وعمر - خلال خلافتيهما - أن يقبلا شفاعة عثمان فيه والسماح له بالعودة الى المدينة. وعين عثمان أقرباءه الوليد بن عقبة بن أبى معيط واليا على الكوفة، وعبد الله بن عامر واليا على البصرة، وعبد الله بن أبى سرح (رضيعه) أمر مصر، وزوج مروان بن الحكم ابنته وسلمه خمس غنائم افريقيا؛ وأصبح مروان هذا الحاكم الآمر المتصرف فى كل شئون الدولة (وهو ابن الحكم بن أبى العاص طريد النبى). ونتيجة لذلك كله قامت معارضة لعثمان (والأمويين) من الهاشميين (وغيرهم) تزعمها على بن أبى طالب.[٦]

وإثر مقتل عثمان بويع لعلى بالخلافة، وكان من ضمن المبايعين له طلحة بن عبيد الله والى البصرة، والزبير بن العوام والى الكوفة ، وقد أشار أحد دهاة العرب وهو المغيرة بن شعبة على علىّ أن يستبقى طلحة والزبير ومعاوية على أعمالهم حتى يستتب له الأمر فرفض وعزلهم[٧] ومن ثم ادعى طلحة والزبير انهما بايعا علىّ بن أبى طالب بالخلافة تحت اكراه سيوف الثوار المتمردين على عثمان، وحاربا عليا بعد أن انضمت إليهما عائشة زوج النبى ، والتى كان بينها وبين على عداوة شديدة بسبب موقفه منها إبّان حديث الإفك[٨].

وبعدما انتصر علىٌّ على هؤلاء الثلاثة : عائشة وطلحة والزبير فى موقعة الجمل، التفت الى معاوية يحاربه، وكاد أن ينتصر عليه لولا أن هذا - بحيلة من عمرو بن العاص - استطاع أن يحمل عليا على أن يحتكما معا فى أمر الخلافة - لمن منهما تكون؟ وبمعنى آخر : هل تكون الخلافة للأمويين أم للهاشميين ؟ وعندما خسر علىٌّ التحكيم - بحيلة أخرى من عمرو بن العاص - خرج على علىٍّ بعض أنصاره، الذين سُمُّوا الخوارج، وقتلوه؛ وبذلك صفا الجو لمعاوية بن أبى سفيان وصار خليفة المسلمين[٩].

بهذا سقطت الكرة فى بئر الأمويين، وأصبح هؤلاء لاسادة قريش فحسب، بل قادة العرب جميعا وأمراء المسلمين كلهم، فوصل رسم أبى سفيان الى غايته وانتهت أحلام الأمويين الى تحقيق فى اليقظة.

وأثناء حصار المتمردين لعثمان بن عفان وطلبهم منه أن يتبرأ (يعتزل) من الإمارة، كتب رسالة يقول فيها «... أما أن أتبرأ من الإمارة فأن يكلّبونى (يقيدونى) أحب الى من أن أتبرأ

من عمل الله عز وجل وخلافته..». وبهذا النص وردت فى التاريخ الإسلامى لأول مرة صيغة «خلافة الله». ولم يكن عثمان يقصد بها المعنى الحرفى الذى يفيد أن الله استخلفه، وهو أمر لم يرد على فهم الخلفاء الراشدين جميعا، وإنما رمى به الى المجاز الذى كان شائعا فى العهد الجاهلى، بنسبة كل شىء الى الله، كأن يقال «يمين الله» و «شاهد الله» و «كتاب الله» وهكذا.

وتعبير «خلافة الله» أو «خليفة الله» تعبير أموى، يترجح أن يكون قد نحته وصاغه لعثمان مستشاره والمتصرف فى شئون دولته مروان بن الحكم (الذى صار الخليفة الأموى الرابع فيما بعد). وقد تلقف معاوية - سليل المتطلعين الى الملك - هذين التعبيرين ليجعل منهما صيغة اسلامية لمبدأ حق الملوك المقدس فى الحكم The Divine Right of the Kings ، ذلك المبدأ الذى كان شائعا ومنتشرا فى الدولة الرومانية التى حكمت الشرق الأوسط، وكانت تحكم سوريا قبل أن يفتحها المسلمون ويُولَّى معاوية عليها. فلقد قال معاوية : «الأرض لله.. وأنا خليفة الله، فما أخذت لى وماتركته للناس فبالفضل منى»، وهو فى هذا القول لم يكن يرمى الى المعنى المجازى الذى درجت عليه العرب فى لغتها منذ عصر ما قبل الاسلام، لكنه كان يقصد الى المعنى الحقيقى الذى يفيد فكرة استخلاف الله له مباشرة، واطلاق الأمر بين يديه يفعل مايشاء بالمال والعباد؛ ويكون فعله هو فعل الله ذاته، ويده يد الله نفسها، وحكمه حكم الله سبحانه. وفى ذلك المعنى قال أبو ذر الغفارى : «إن قوله (معاوية) : المال مال الله يهدف إلى حجبه عن المسلمين». ومن هذا المفهوم فإن قالة معاوية إن الحكم حكم الله والخلافة خلافة الله ترمى إلى حجب الحكم والخلافة عن المسلمين، ومنع أى فرد من التطّلع إليها والتطمع فيها.

وقد أدى كل من التعبيرين السالفين، بمفاهيمه ومضامينه، إلى النتيجة التى ابتُغيت منه، وهى حجب المسلمين عن الحكم والخلافة وتوطئة الطريق اليهما لبنى أمية وحدهم، حتى تكون الخلافة ملكا بالواقع وكسروية فى الحقيقة وقيصرية بالفعل. ذلك أن معاوية جمع من اعتبرهم أهل الحل والعقد، ووقف فيهم المغيرة بن شعبة خطيبا، فأشار إلى معاوية وقال : أمير المؤمنين هذا، ثم أشار الى يزيد بن معاوية وقال : فإن مات فهذا، ثم أمسك بسيفه وشهره قائلا: ومن أبى فهذا (١٠). بذلك صار السيف أصدق أنباء من الكتب، والتهديد أفعل فى النفوس من الإيمان، والخوف أطفأ لأى غضبة للحق. وصارت الخلافة، من هذا الوقت، ملكا يُورَّث ولو لفاسق، وإرثا يُملَّك ولو لظالم، وضيعة توهب ولو لمفسد. ولم يعد لجماعة المسلمين فى أمر الخلافة كلمة إلا نظريا، أو رأى إلا ادعاء، أو اعتراض إلا رياء.

وسواء أشار الخلفاء الى الشعراء، أو فهم هؤلاء الوضع ملقا وزلفى، أو أصبح التعبير ضمن مفردات الناس العادية، فقد عمد الشعراء إلى استعماله، كما لجأ الكتاب الى

استخدامه، حتى أصبح هو النظرية الاسلامية فى الحكم، ثم صاغ أسلوب تعميم المسائل السياسية وتشييع القواعد السلطانية فى الإسلام.

ففى التاريخ الإسلامى لا يبدأ الأمر بنظرية توضع ثم تطبق فيما بعد، أو بقاعدة تُحدد ثم تسرى لاحقا، لكنه بسبب تعبيرات «خلافة الله» و«حاكمية الله» و«مال الله». وغيرها، سار فى طريق تميز به خاصة، هو أن يبدأ الأمر بشعار يُرفع أو صيغة تُنحت أو كلمة تُقال أو هتاف يُدفع، ثم يتخلق حول الهتاف جمع وعلى الكلمة جماعة وعلى الصيغة أناس وتحت الشعار حزب؛ ويعمل الحزب والناس والجموع على تعميم حركاتهم، ولات حين تعميم، أو اشاعة تصرفاتهم - وما بئسه تشييع، ذلك أن التعميم يتحول إلى تبرير، والتشييع ينتهى إلى تقليد.

وهكذا يبدأ الوضع بتعبير شارد أو صيغة غامضة هى «خلافة الله» أو خليفة الله» ثم يتعمم عبر التاريخ ويتشيع خلل الأيام ليصير شبه نظرية سياسية وشكل قاعدة فقهية، تطبق بأثر رجعى على أحداث لم يخطر لها المعنى على بال وتستنطق رجالا لم يرد لهم المفهوم على خاطــر.

* * *

يقول الشاعر مسكين الدارمي، وهو يمهد لاستخلاف يزيد بن معاوية:

بنى **خلفاء الله** مهلا فإنما .·. يبوئها الرحمن حيث يريد

إذا المنبر الغربى خلاّه ربه .·. فإن أمير المؤمنــين يزيــد

ويقول عبد الله بن همام السلولى للأمويين:

خلافــة ربكم حاموا عليهــا .·. ولا ترموا بها الغرض البعيدا

ويقول الأخطل للوليد بن عبد الملك (٨٦ هـ - ٧٠٥ م):

خليــفة الله يستسقى بسنته .·. فى الغيث عند مولى العلم منتخب

ويقول جرير لذات الخليفة :

فأنــت **لرب العالمــين خليــفة** .·. ولى لعهد الله بالحق عارف

ويقول للأخطل كذلك:

الخائض الغمر والميمون طائره .·. **خليفة الله** يستسقى به المطر(١١)

فهاهم الشعراء جميعا، وجمهور المسلمين معهم أو من بعدهم، يرى أن الخليفة خليفة الله، ويُزيد مسكين الدارمى فيخاطب معاوية والأمويين فيسميهم «بنى خلفاء الله» فمن هم هؤلاء الخلفاء؟ أبو سفيان الذى لم يسلم إلا عند فتح مكة فكان من الطلقاء، أى الذين أطلقهم النبى وقال لهم «اذهبوا فأنتم الطلقاء» منّا عليهم ورحمة بهم، أم آباء أبى سفيان وقد عاشوا وماتوا فى الجاهلية قبل الإسلام؟ لقد أصبح الأمويون - بعد ملك معاوية - كما أرادوا أن يكونوا

دائما، ملوك العرب تحت لافتة «خلفاء الله». وهذه العبارة - كما سلف البيان - صيغة دينية للملك وعبارة شرعية للإمارة. فالملك ملك قح يتمحك بالدين؛ والإمارة إمارة بحتة تتمحل بالشريعة.

ويشهد تاريخ الخلافة الأموية - كما يرى جميع المؤرخين - أنها كانت خلافة دنيوية وملكا قحا وسلطانا صرفا، ولم يكن لها من الدين إلا المظهر ولا من الشريعة إلا القشور. أما الخلفاء الأمويون، فعلى نحو ما سوف يلى فيما بعد ، كانوا رجال دنيا وساسة ملك ، وكانوا فى الغالب فسقة وفى الأغلب ظلمة.

وثم مثال واحد ، فى هذا الصدد، يغنى عن كثير ، فعبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص (الخليفة الخامس) كان من أشهر فقهاء المدينة فى عصره ، يذكر فى ذلك مع ثلاثة آخرين هم سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب، ولما أفضى إليه أمر الخلافة كان المصحف فى حجره فأطبقه وقال، هذا آخر العهد بك. فهذا الفقيه الشهير والإمام الجهير والمرشد المستنير تحول عند الخلافة الى العكس تماما وإلى الضد كلية، فظهرت له شخصية مخالفة وبدت له نفسية مغايرة، دنيوية كالحة ، وسلطوية كاشحة، هى شخصية الأمويين ونفسية بنى عبد شمس؛ وليس أدل على ذلك من أنه قال «لا أداوى هذه الأمة (أمة المسلمين) إلا بالسيف حتى تستقيم لى (لا لله) قناتكم» كما قال وهو يقف على منبر الرسول بعد قتل عبد الله بن الزبير (سنة ٧٥ هـ): «والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله (هكذا!!) بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه». وعندما داهمته المنية قال لابنه وخليفته الوليد بن عبد الملك: «ياوليد لا ألفينك إذا وضعتنى فى حفرتى تعصر عينيك كالأمة الولهاء، بل إئتزر والبس جلد النمر وادع الناس الى البيعة فمن قال برأسه كذا (أى لا)، فقل بالسيف كذا (أى اضرب عنقه)(١٢)

* * *

هذه هى خلافة الأمويين، قيصرية كسروية، حكم الخلفاء فيها بدعوى خلافة الله (أو الحق الالهى المقدس فى الحكم) ومنعوا الناس من التطلع إلى الحكم أو السؤال عن مال المسلمين؛ وحكموا بالسيف والنطع، وجعلوا الخلافة ملكا يورث، ولبسوا الثياب الفاخرة والعدة الكاملة، وركبوا الخيل المسومة، وصلوا بعيدا عن الناس فى المقاصير، وجلسوا على أرائك السلطة متين من وأقاموا الحرس والحجاب، ومشى صاحب الشرطة بين أيديهم بالحراب.

وفى ذلك يقول عبد الرحمن بن خلدون «... انقلبت الخلافة إلى الملك.. صار الأمر إلى الملك... ويظهر التغير.. فى الوازع الذى كان دينا ثم انقلب الى عصبية وسيف... ذهبت معانى الخلافة ولم يبق الا اسمها، وصار الأمر ملكا بحتا، وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها واستعملت فى أغراضها من القهر والتقلب فى الشهوات والملاذ... ذهب رسم الخلافة... وبقى الأمر ملكا بحتا كما كان الشأن فى ملوك العجم بالمشرق...»(١٣).

وإذا ماكانت الخلافة ملكا بحتا وسلطانا قحا فإن أعمال الخلفاء كلها وأقوال الولاة جميعا لاتصرف إلى الدين حتى وإن أفادته بطريق غير مباشر، ولاتنسب إلى الشريعة حتى وإن استخدمها لستر بشاعتها. لقد فتح الأمويون بلادا كثيرة ونشروا الاسلام فى بقاع شتى، لكنهم فعلوا ذلك أساسا لتثبيت ملكهم ومد سلطانهم وتكثير أموالهم، وسيروا جموع المسلمين المؤمنين البسطاء إلى الحروب تحت راية الاسلام، ودفعوهم إلى الغزو باستخدام معنى الجهاد.

ورحم الله عمر بن الخطاب حين قال لمعاوية وقد رآه تزيا بزى الملوك وتطهم بطهام السلاطين: أكسروية يامعاوية!؟ لقد كانت كلمة من حُجب الغيب وسُجف المستقبل، فقد كشفت الأيام عن أن الخلافة كسروية صرفا وقيصرية بحتا.

الفـــتن

يعتقد بعض الناس زيفا، ويشيع البعض الآخر زورا، أن عهد الدولة الأموية كان عهد استقرار وأمان، ازدهرت فيه القيم الاسلامية وترسخت فيه أحكام الشريعة، وحظى المسلمون بفترة من الأمن لاتُطاول وحقبة من السلام لاتُقارن؛ والحقيقة عكس ذلك تماما، فقد كان عهد الدولة الأموية عهد فتن متوالية ومحن متتالية، وظلمات بعد ظلمات، وغواشٍ إثر غواشٍ، بهتت فيه معالم الاسلام الأساسية، وخفتت فيه روح الدين البراقة؛ وتحولت هذه وتلك إلى صيغ مخالفة تماما ومفاهيم مناقضة كلية.

من هذه الفتن التى ظلت مستمرة طوال عهد الدولة الأموية ماحدث من المسلمين، وما وقع فى البيت المالك.

أولا – ماحدث من المسلمين :

أ – بعد ما قُتل على بن أبى طالب بويع لابنه الأكبر الحسن بن على بالخلافة ، وكان الناس فى ريب من بيعته. وقد خرج مع شيعته لقتال معاوية فانفشلوا، مما اضطره الى تسليم الأمر إلى معاوية ومبايعته له بغضا فى أعوانه الذين خذلوه . وقيل إن الحسن بايع معاوية لقاء ألف ألف درهم ، وقيل مائة ألف دينار ، وقيل أربعمائة ألف درهم ، وقيل إنه شَرَط على معاوية أن يمكّنه من بيت المال يأخذ منه حاجته ، وأن يكون ولى العهد من بعده . وسُمّىَ العام الذى حدث فيه ذلك عام الجامعة، لاجتماع أمة المسلمين بعد الفرقة على خليفة واحد. ورغم مبايعة الحسن فقد ظل معاوية على تخوف من جانبه، أو لعله أراد حرمانه من ولاية العهد ونقلها إلى ابنه هو «يزيد»، فدس على الحسن من سقاه السم أكثر من مرة فلم يمت إلى أن دسته له زوجه (جعدة بنت الأشعث) فى عسل أكله، فمكث شهرين فى ألم شديد إلى أن توفاه الله. ولما بلغ معاوية موت الحسن كبّر وكبّر معه أعوانه، وقال من قال من هؤلاء : إن لله جنودا من العسل.

وقد دامت خلافة الحسن ستة أشهر وخمسة أيام، وقيل ستة أشهر إلا أياما.

ب - وبعد أن ولى يزيد بن معاوية الخلافة خرج عليه الحسين بن على بن أبى طالب فى جمع من شيعته. وكان أهل الحجاز قد بايعوه، فذهب للقاء جيش يزيد بقيادة عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان (أو ابن أبيه)، فقتل فى كربلاء (عاشوراء سنة ٦٠هـ - ٦٨٠م)، وذبحه سنان بن أنس النخعى وجز رأسه وسلب الحسين ماكان عليه؛ ومال الناس على الفرش والحلل والإبل فانتهبوها ونهبوا ثقله ومتاعه وما على النّساء من لباس، حتى إن المرأة كانت لتنزع ثوبها من ظهرها فيؤخذ منها. ثم ندب القتلة عشرة منهم فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره[١٤]. وقتل مع الحسين اثنان وسبعون رجلا منهم من أولاد على بن طالب أربعة هم العباس وجعفر ومحمد وأبو بكر، ومن أولاد الحسن أربعة كذلك. وحمل الجنود رأس الحسين على حربة حتى دمشق فألقوها بين يدى الخليفة يزيد الذى قال : لقد قال (أى الحسين) اننى خير منه (من يزيد) وأبى خير من أبيه وجدى خير من جده. أما جده (النبى) فلا يؤمنن أحد بالله واليوم الآخر إلا يؤمن بفضله وأنه سيد البشر، وأما أبوه فقد احتكم هو وأبى إلى الله، ولقد علم أن الله قد نصر أبى، وأما أنه خير منى فلقد جاء من قبيل فقهه ونسى قوله تعالى. «قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير».[١٥]

جـ - وفى سنة ٦٦هـ خرج المختار من العلوية بالكوفة وأراد الأخذ بثأر الحسين فبايعه الناس واجتمع اليه خلق كثير، واستولى على الكوفة، ودعا إلى الأخذ بثأر أهل البيت، وقتل جماعة ساهمت فى قتل الحسين، وأرسل عسكرا لقتال عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان وكان واليا على البصرة ثم ولى الكوفة، وتوجه مصعب بن الزبير (أخا عبد الله بن الزبير!!) لقتال المختار حتى قتله.

د - وكان عبد الله بن الزبير (ابن العوام) قد دعا فور مصرع الحسين إلى بيعته بالخلافة، فبايعه أهل تهامة والحجاز، وسلم الناس عليه بالخلافة، وظل خليفة للحجاز واليمن لمدة تسع سنين (أى طوال ولاية يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد، ومروان بن الحكم، ثم عبد الملك بن مروان) وسيّر يزيد بن معاوية جيشا لقتال عبد الله بن الزبير بقيادة الحصين بن نمير السكونى، فسار اليه فى مكة. وإذ ذاك تحصن ابن الزبير فى الكعبة (!!) المسجد الحرام على المسلمين. غير أن جيش المسلمين بقيادة الحصين حاصر جيش المسلمين[١٦] بقيادة الزبير، ونصب الأول المنجنيق ورمى به الكعبة، البيت الحرام للمسلمين وعلى المسلمين.

وفى عهد عبد الملك بن مروان سير الحجاج بن يوسف الثقفى لمحاربة عبد الله بن الزبير فحاصره بجيشه فى الكعبة. ولثانى مرة يضرب جيش المسلمين كعبة المسلمين بالمنجنيق (وكان ابن الزبير قد أعاد بناءها بعد أن احترقت من الضرب الأول). واحتز جيش الحجاج رأس عبد الله بن الزبير وصلبوا جثته، حتى كتب عبد الملك إلى الحجاج فأنزلها وسلمها لأمه، وقيل ان الجثة ألقيت فى مقابر اليهود.

هـ - وفى سنة ١٢٢هـ خرج زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب بدعوى الخلافة (فى عهد هشام بن عبد الملك بن مروان). وقد بايع لزيد عدد كبير من الناس، وجرى قتال بين جيش بقيادته وجيش الخليفة، فأصيب زيد أثناء المعارك بسهم فى رأسه ومات. وبعد أن دفن عثر أحد أتباع الخليفة (ويدعى يوسف بن عمر الجرحى) على قبر زيد فنبشه وقطع رأسه وسيرها إلى الخليفة فصلبت على باب دمشق وصلبت الجثة فى الكناسة، وظلت مصلوبة حتى مات الخليفة هشام وولى من بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك فأمر بإنزالها واحراقها.

و - وفى سنة ١٢٥ هـ قُبض على يحيى بن زيد بن على زين العابدين بن الحسين بخراسان، وكان قد هرب إليها بعد مقتل أبيه (زيد بن على زين العابدين) وسار منها إلى بلخ مختفيا، ثم سار مع جماعة من أصحابه إلى نيسابور فرأوا تجارا وجماعة من أبناء السبيل فهاجمهم يحيى وأتباعه وسلبوهم أمتعتهم وأخذوا دوابهم، ومن ثم تعقبه جند الخليفة الوليد بن يزيد حتى قتلوه واحتزوا رأسه، وسلبوه قميصه، وصلبوا جثته بالجوزجان. ولم يزل مصلوبا حتى ظهر أبو مسلم الخراسانى فأنزل الجثة وصلى عليها ودفنها.

ز - وعلى الرغم من أن الخوارج كانوا قد خرجوا أصلا على علىّ بن أبى طالب فقد هالهم مالحق الأمة من الانقسام بسبب التنافس على الخلافة بين على ومعاوية، فأسرّوا قتل هذين وعمرو بن العاص معهما، واستطاعوا قتل على وحده؛ غير أنهم صاروا أعداء لجماعة المسلمين عموما، وأعداء لكل الحكام على وجه خاص.

وفى عهد معاوية بن أبى سفيان خرج عليه الخوارج بقيادة فروة بن نوفل الأشجعى الحرورى ثم معن بن عبد الله ثم أبو مريم مولى بنى الحرث بن كعب. وقد خرج هذا الأخير إلى الحرب ومعه امرأتان، وكان أول من يُخرج معه النساء على الخليفة، فلما عيب عليه ذلك قال : قد قاتل النساء مع النبى (صلى الله عليه وسلم) ومع المسلمين بالشام.

وفى عهد عبد الملك بن مروان اشتد ساعد الخوارج فقاتلهم. وكتب اليه عبد الله بن أباض (شيخ الأباضية إحدى فرق الخوارج) كتابا جاء فيه «.. إن الله ليس ينكر أحد شهادته فى كتابه الذى أنزله على نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) أن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون والفاسقون والكافرون..»؛ وهو بذلك وإن كان يلمح إلى على بن أبى طالب فإنه - كذلك - كان يعرّض بعبد الملك بن مروان - وكل الخلفاء - حيث أنهم، فى تقديره، لايحكمون بما أنزل الله.

وفى عهد هشام بن عبد الملك كثر الخوارج ودعاتهم، وكانت لهم وقائع كثيرة مع عماله. واشتملت فتنتهم فى أماكن متعددة، وهم يدعون إلى إعمال حكم الله الذى لايطبقه الخليفة ولايّعمله الولاة، كما كانوا يقولون.

ثانيا - ما وقع في البيت المالك :

وإلى جانب هذه الفتن والقلاقل فى جماعة المسلمين، فقد وقعت فتن كثيرة وقلاقل شتى فى البيت المالك ذاته.

أ - فقد بايع مروان بن الحكم (رابع الخلفاء) للخلافة ابنه عبد الملك بن مروان، وكان قد أقسم من قبل أن يولى خالد بن يزيد ابن زوجه، فاستاءت هذه وابنها وخدعت مروان، وإذ كان ينام عندها ذات ليلة قامت عليه ووضعت على وجهه رداء مشربا بالسم وفوق الرداء وسادة ثم جلست فوقها فكتمت أنفاسه حتى مات.

ب - وعندما ضاق بنو أمية وحواشيهم بالخليفة العادل العفيف الزاهد عمر بن عبد العزيز، وتحالفوا معا على بغضه، ولكل سببه، رشوا عبده (الأسود) فدس له السم لقاء ألف دينار، ومات عمر مما شرب من السم (ولم تزد خلافته على عامين إلا قليلا).

جـ - ودخل يزيد بن الوليد بن عبد الملك على عمه الخليفة الوليد بن يزيد هو وجماعة بايعته هو خليفة بدلا من الخليفة، فقتلوا الخليفة الوليد الذى قال عندما رأى قتلته : يوم كيوم عثمان؟ فقالوا له : ولاسواء! ثم قطعوا رأسه وطافوا به فى دمشق ثم نصب على قصر الخليفة أعلى سور دمشق.

د - واشتدت الفتن فى عهد يزيد هذا (ابن الوليد بن عبد الملك) وكانت الأمور مضطربة عليه، إذ قامت الفتن على ساقها وهاجت، وخرج عليه أهل حمص، واختلف أهل فلسطين ووثبوا على أمرائهم وولاتهم. ووثب سليمان بن هشام بن عبد الملك بعمان، فخرج من حبس كان فيه (بأمر الوليد بن يزيد) وأخذ ماكان بالمدينة من أموال، وذهب إلى دمشق يثير أهلها على الخليفة، وخرج أهل اليمامة على أميرهم واشتد الاضطراب وعم الخلل.

هـ - وعندما مات يزيد بن الوليد وولى الخلافة بعده ابراهيم بن الوليد (أخوه) كانت أمور الدولة قد سارت إلى الفوضى الشاملة. وكان الناس يسلمون على إبراهيم هذا بالخلافة مرة، ومرة بالإمارة وحدها لا الخلافة، ومرة ثالثة دون ما إمارة أو خلافة. وفى عهده نبش قبر يزيد الثانى وصلبت جثته. ثم خرج عليه مروان بن محمد (وكان واليا على الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان) فقتل الخليفة وصلبه.

وظل مروان بن محمد خليفة حتى خرج عليه العباسيون والعلويون فقتله جند لهم فى أرض مصر، وقطعوا رأسه وأرسلوه إلى أبى العباس السفاح فخر ساجدا!!.

* * *

فالذى يقرأ هذه الفتن والقلاقل، دون أن يقرأ الاسماء، لايمكن أن يتصور أن تحدث فى ضحى الاسلام وشدته، وفى أول دولة له، وأكثر الخلافات فتوحات وامتدادا . فالفتن والقلاقل لاتخرج عن مثلها مما يحدث فى عصور الجاهلية وعهود الوثنية، لافى مجتمع يدين بالله ويطبق شريعته. فأين الاسلام فى كل هذا الذى وقع؟ وأين كانت الشريعة وهو يحدث؟ وكيف

كان يصلى أو يتعهد من يضرب الكعبة بالمنجنيق، ومن يحز الرءوس، ومن يسلب النساء، ومن يسم الخصوم، ومن ينبش القبور، ومن يصلب الجثث؟!

لقد وقع هذا الذى وقع، من طمع الملك وجشع المال. إنها السياسة لا الدين، والتحزب لا الشريعة. ففى كل ماحدث لم يظهر اختلاف على تفسير (إلا فيما يتعلق بالخوارج)، أو يبدو صراع على أساس الدين، أو يلوح نزاع على أصول الشريعة. كلها خلافات سياسية وأطماع دنيوية ونزعات جاهلية وتصرفات وحشية واندفاعات همجية لم تتهذب بالدين ولم تتشذب بالشريعة.

المظالم

من المآلف الشائعة والمعارف السائدة أن الظلم يقع دائما، سواء على المستوى العام أم على المستوى الخاص، وأن العسف يحدث دوما، سواء من الحكام أم من سواد الناس. غير أن مايؤسف حقا ويدمى فعلا أن يقع الظلم باسم الحق وأن يحدث العسف بدعوى العدل، فيظلم من يظلم وهو يزعم أنه يحق الحق ويرفع اسم الله، ويعسف من يعسف وهو يدعى أنه يقيم العدل ويعلى من شأن الدين. فهذا هو الظلم البالغ المكبر والعسف الشديد المضاعف؛ يحدث بتزييف المعانى ويقع بتحريف الدين، فيخلق دوامات كبيرة من المعانى الباطلة ويوجد أعاصير عنيفة من المعتقدات الفاسدة.

وقبل الإسلام كانت المظالم تقع بين القبائل العربية، لكن باسمها الحقيقى وأوصافها الطبيعية، قتل أو عدوان أو سلب أو نهب أو اغتيال أو حل للدماء أو إباحة للأعراض أو إهدار للحياة.. وهكذا؛ أما منذ عهد الدولة الأموية فقد شرعت المظالم تقع باسم الدين وبدأت التعاسيف تحدث بدعوى الشريعة، فتضاعفت هذه وتلك، وأصبح الناس مستسلمين لها، من خوف الطغاة مرة، ومن خوف التكفير مرات؛ مستذلين بها، من بأس البغاة حينا ومن بطش الاتهام بالردة أو الحرابة أحيانا.

والمظالم فى عهد الخلافة الأموية كثيرة كثيرة، تتسع لها مجلدات لاتنتهى وتنفسح لها صفحات لاتنطوى؛ غير أنه يكفى فى هذا الصدد أن يذكر أهمها وأن يشار إلى أبلغها. وفيما عدا واقعات اغتيال الحسن بن على وقتل الحسين بن على وزيد بن على زين العابدين ويحيى بن زيد وغير ذلك، بما صاحبها من صور أليمة وتمثيل بشع وتصرفات بربرية، فقد حدثت واقعات أخرى صارت لما بعدها مثلا ومثالا.

فقد حدث أن توفى المغيرة بن شعبة وهو أمير الكوفة فجمعت الكوفة إلى البصرة تحت إمارة زياد بن أبى سفيان (أو ابن أبيه) فدخل الكوفة فى ألفين من شرطة البصرة، ثم صعد على المنبر وخطب فى الناس. وما إن فرغ من الخطبة حتى حصب (قذف بالحجارة) وهو لم يزل

على المنبر. فجلس حتى سكت الناس ثم دعا قوما من خاصته وأمرهم فوقفوا بالسيوف على أبواب المسجد، ثم أمر بكرسي فوُضع له على باب المسجد وطلب من الناس (المصلين) أن يخرجوا (في تشكيل) أربعة أربعة يحلفون بالله مامنهم من حصبه، فمن حلف خلاه، ومن لم يحلف عزله وحبسه حتى جمع ثلاثين، ويقال بل كانوا ثمانين، قطع أيديهم على الفور في ذات المكان، بتهمة الحرابة(١٧).

وقابل زياد هذا رجلا (اسمه أوفى بن حصن الطائر) فسأله عن عثمان بن عفان فلم يقل شرا، فسأله عن معاوية فلم يقل شرا، فسأله عن نفسه هو فقال الرجل : بلغني أنك قلت بالبصرة : والله لآخذن البرئ بالسقيم والمقبل بالمدبر، قال زياد : قد قلت ذلك، فقال الرجل : خبطتها عشواء (أي من غير بصيرة) فقتله زياد على الفور جزاء هذا القول.

وكان حجر بن عدى الكندى في المسجد يستمع إلى خطبة زياد بن أبي سفيان، فقال هذا : . . . إنا قد جربنا وجُربنا، وسسنا وساسنا السائسون، فوجدنا هذا الأمر لايصلح آخره إلا بما صلح أوله (١٤).. ووجدنا الناس لايصلحهم إلالين في غير ضعف وشدة في غير عنف، وإني والله لا أقوم فيكم بأمر إلا أمضيته على أذلاله (طرقه). فشغب عليه حجر. وفي مرة تالية قال زياد - وقد أراد أن يبطش بحجر: - وأيم الله لئن لم تستقيموا (له لا لله) لأداوينكم بدوائكم، وما أنا بشئ إن لم أمنع باحة الكوفة من حجر وأدعه نكالا لمن بعده. ثم أرسل زياد كتابا إلى الخليفة معاوية شدّد فيه على حُجر، فكتب اليه معاوية أن شده في الحديد ثم احمله إليَّ. فلما جاء كتاب معاوية أراد قوم حجر أن يمنعوه فقال: لا، ولكن سمع وطاعة. فشُدَّ في الحديد ثم حُمل إلى معاوية، فلما دخل عليه قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال له معاوية: أمير المؤمنين ! أما والله لا أقيلك ولا استقيلك، أخرجوه فاضربوا عنقه؛ ثم أخرج وضرب عنقه،(١٨) وكانت هذه ثاني مرة في الإسلام يقتل فيها رجل صَبْرًا (أما الأول فقد كانت عقبة بن أبي معيط بعد غزوة بدر)(١٩).

وقد قيل إن عائشة (زوج النبي) قابلت معاوية فقالت له : يامعاوية أين كان حلمك عن حُجر !! قال لها : ..لم يحضرني رشيد (أي لم يكن معي مشير عاقل). وهكذا أقر الخليفة أنه لم يكن رشيدا ولم يكن في حاشيته كلها رشيد.

وفي سنة ٦٠هـ خلع أهل المدينة بيعة يزيد بن معاوية (لما عُرف عنه من فسق). فأرسل يزيد جيشا بقيادة مسلم بن عقبة حيث قاتل أهل المدينة فهزمهم في موقعة الحَرَّة الشهيرة. ثم أصدر القائد المسلم أمراً لجيش المسلمين باستباحة مدينة النبي ثلاثة أيام (كأمر الخليفة له)- كما يفعل الغزاة ! الأجانب الهَمَج بأي شعب مهزوم . وبذلك أبيحت دماء وأموال وأعراض المسلمين لغيرهم من المسلمين. وقيل إنه قتل في هذه الأيام الثلاثة أربعة آلاف وخمسمائة مسلم، وأنه قد فُضت بكارة ألف فتاة بكر. ثم ألزم القائد المسلم من بقى في المدينة من المسلمين أن يبايعوا

يزيدا على أنهم خَوَل (عبيد) له، ومن أبى منهم هذه الصيغة المشينة المهينة للمبايعة قُتل. ومن وقت موقعة الحرة هذه وقف دور المدينة فى التاريخ الأسلامى حتى عهد قريب.

وعندما وصل نبأ ما حدث فى المدينة إلى يزيد خليفة المسلمين وأمير المؤمنين قال:-

ليت أشياخى ببدر شهدوا .·. جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلّوا واستهلّوا فرحا .·. ولقالوا ليزيد لا فشل

أى أن الخليفة - الذى يوجبون له السمع والطاعة بحكم الدين - ويُدْعَى له بالتوفيق والتأييد من على منابر المساجد جميعا - ويرى البعض أنه خليفة الله سبحانه - هذا الخليفة رأى فى موقعة الحرة الفظيعة، التى لاتقع الا من غزاة برابرة همج على شعب أجنبى مهزوم ضعيف، ولايتصور حدوثها من مسلمين على مسلمين فى صدر الاسلام وأول دفعاته - رأى الخليفة فى هذه الموقعة، التى هى سبة فى وجه أى مؤمن، انتقاما لأشياخه، أى آبائه وأجداده، من أهل المدينة (الذين كان يعبر عنهم بالخزرج نسبة إلى كبرى قبيلتيها) لما وقع من هؤلاء الخزرج فى حق هؤلاء الأشياخ حين حاربوهم فى صفوف النبى ليهزموا آل سفيان وينصروا راية الاسلام!! فهل يمكن أن يعد مثل هذا الخليفة خليفة لله أو خليفة للمسلمين أو حتى مجرد عامل مسلم !؟ وهل يجوز أن تعد غزوات هذا الخليفة غزوات فى سبيل الله أو لنصر الاسلام؟

إن موقعة الحرة هذه هى المعيار الصحيح لغزوات يزيد بن معاوية، وغزوات الخلفاء الأمويين جميعا. فإن كانت الموقعة قد وقعت فى سبيل الله ولنصر الاسلام وتثبيت الشريعة، فلمثل هذه الأغراض وقعت باقى الغزوات. أما ان كانت الموقعة هجمة بربرية ونزلة جاهلية، لاصلة لها بالدين أو الشريعة، وأنها كانت لتثبيت ملك وبسط سلطان واشباع أهواء، فعلى مثلها كانت باقى الغزوات. هذه بتلك، ولايمكن أن يكون الخليفة على مثل هذا الكفر بالله وبكل قيمة، وهذا التردى العقلى والنفسى والخلقى، وامتهان كل قيم الاسلام وأعراض المسلمين، ثم يتحول فى لحظة أخرى - أو موقعة تالية - من النقيض إلى النقيض.

شعر بهذه المعانى معاوية بن يزيد بن معاوية (الخليفة الثالث) فخلع نفسه من الخلافة عن رضا ورغبة وقد أبى الظلم على نفسه، ورفض أن يفسد سياسة باسم الدين وأن يطغى تحزبا تحت راية الشريعة، وأن يستذل الناس بسلطان الاسلام. وخطب فى الناس قائلا : أيها الناس ما أنا بالراغب فى الائتمار عليكم لعظيم ما أكرهه منكم !! وإنى لأعلم أنكم تكرهوننا أيضا لأننا بُلينا بكم وبُليتم بنا... وقد كان أبى يزيد بسوء فعله واسرافه على نفسه غير خليق بالخلافة على أمة محمد فركب هواه واستحسن خطاه، وأقدم على ماأقدم من جراءته على الله وبغيه على من استحل حرمته...»[٢٠]

فهذا هو الخليفة يعترف أنه يكره فى الناس مايراه منهم وأنه يعلم أن الناس تكرهه، وهو يعترف أن خليفة المسلمين وأمير المؤمنين (أو خليفة الله، كما يقول البعض) يزيد، والده، كان

فاسقا غير جدير بالخلافة، اجترأ على الله واستحل الحرمات! فهل بعد هذا الاعتراف الذى صدر من أهله أى اعتراف آخر بأن من يسمى زورا وبهتانا خليفة الله أو خليفة الرحمن، ليس الا خليفة ابليس وخليفة الشيطان!!

فماذا حدث للخليفة الغر الذى أخذته براءة الشباب وغضاضة الحياة فاعترف بالحق وأقر بالواقع. لقد مات بعد أربعين يوما من خلعه نفسه (وعمره ٢١ أو ٢٣ سنة). فهل مات ميتة طبيعية أم قتل لجرأته على قول الحق والاعتراف بالواقع!؟ قتلته الأيدى صاحبة المصالح فى تزييف الحق وتزوير الواقع، والادعاء بأن الظلم حق والعدوان شرع والإفساد دين!؟

أما معلمه «عمر المقصوص» فقد اتهم بأنه هو الذى دفعه الى أن يقول ماقال ويفعل مافعل، وأنكر من جانبه فلم يصدقه بنو أمية، ودفنوه حيا!!!

وقد سلف بيان قول عبد الملك بن مروان حين قال «لاأداوى هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لى (لا لله!!) قناتكم». وعبد الملك هذا هو الذى استعمل الحجاج بن يوسف الثقفى وسيره لقتال عبد الله بن الزبير بمكة، ثم أوصى – وهو على فراش الموت – ابنه يزيد به.

وروى عن عمر بن عبد العزيز (الخليفة الأموى الثامن فيما بعد) أنه قال : الوليد (ابن عبد الملك بن مروان – الخليفة السادس) بالشام، والحجاج بن يوسف الثقفى بالعراق، وقرة بن شريك بمصر، وعثمان بن حيان بالحجاز : امتلأت والله الأرض جورا. وقال عمر أيضا: لو وضعنا الحجاج بن يوسف الثقفى فى كفة وجاءت كل الأمم بولاتها الظلمة فى كفة أخرى لرجحت كفة الحجاج (فى الظلم).

هذه شهادة شاهد عدل من أهلهم ومن أهلنا. لقد أخرج من السجن – عندما ولى الخلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان – ثلاثون ألف شخص كان الحجاج قد سجنهم دون ذنب، ظلما وعدوانا.

وفى عهد هشام بن عبد الملك (الخليفة العاشر) أظهر شخص يدعى الجعد بن درهم مقالته بخلق القرآن (والتى صارت دستورا للإيمان فى عهد الخليفة العباسى المأمون) فأرسل الخليفة إلى والى العراق (خالد القسرى) يأمره بقتله، فحبسه ولم يقتله، فبلغ الخبر الخليفة فكتب إلى واليه يلومه ويعزم عليه أن يقتل الجعد بن درهم، فأخرجه الوالى من الحبس فى وثاقه، ولما صلى العيد يوم الأضحى قال فى آخر خطبته: انصرفوا وضحوا يقبل الله منكم، فإنى أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم، ثم نزل من على المنبر وذبحه ذبح الشاه!!!؟(٢١)

* * *

هذه نماذج من المظالم التى لايمكن أن تقع إلا فى جاهلية وبربرية وهمجية، فى دول ظالمة ومن حكام لايعرفون الله. وفى شعوب تؤمن بالله على حرف وتعتقد فى الإسلام على خوف، فلا تقول قولة حق لأحد ولا تدفع أى ظلم عن أحد.

وفى هذه المظالم قال عمر بن عبد العزيز (وهو ماهو) : لقد ملئت الأرض جورا. فكأن

الأرض ملئت جورا وحشيت ظلما ونشرت فسادا فى عهد الإسلام الأول، فى ضحى الأمجاد العظيمة وعز القيم والأخلاق. وهذه هى الفترة التى يدعو البعض إلى عودتها - جهلا أو غرضا - ويظن أنها خير بلا شر، وحق بلا ظلم، وصلاح بلافساد؛ فى حين أنها كانت طغيانا لاحدود له، ومظالم لاتكف ولاتنتهى، وظلاما بلا أى أمل فى إشراق سعيد أو فجر جديد.

الترف والمفاسد

يحض الاسلام - كما هو شأن الدين دائما - على الزهد والتقشف والاعتدال، وربما حبذ الفقر الذى يحول دون فساد الثراء، وطغيان الغنى، وسطوة المال، ومساوئ الاكتناز، وعبث المترفين.

ففى القرآن : «للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لايستطيعون ضربا فى الأرض» (سورة البقرة ٢٧٣:٢)، «للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم» (سورة الحشر ٨:٥٩) فالقرآن بذلك يحبذ غنى النفس وفقر المال عن فقر النفس وغنى المال، وفى هذا المعنى - الذى يحبذه القرآن - يقول الشاعر الجاهلى :-

غنى النفس ماعمرت غنى ∴ وفقر النفس ماعمرت شقاء

وهو اتجاه مضاد ومعاكس للنزعة الجاهلية التى تفضل المال على الخلق، والترف على الزهد، والسطوة على التواضع، والاكتناز على الإنفاق. وفى هذه المعانى الجاهلية يقول عروة بن الورد :

دعينى للغنى أسعى فإنى ∴ رأيت الناس شرهم الفقير

وقد روى عن النبى (صلى اللع عليه وسلم) أنه قال :: اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين. وروى عن عائشة (زوج النبى) أنها قالت : ما شبعنا من طعام قط إلا بعد فتح خيبر.

فالمسلمون الأوائل كانوا يعيشون عيشة زهد وتقشف وربما ضنك. فلما حدثت الفتوح اتسعت أحوالهم وأصابهم الرخاء وزادت أموالهم وتكدست كنوزهم. ففى أيام عثمان بن عفان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له هو يوم قُتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف درهم. وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف إبلا وخيلا كثيرة. وبلغ الثُمن الواحد مما ترك الزبير بن العوام بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف ألف فرس وألف أمة. وكانت غلة طلحة بن عبيد الله من العراق ألف دينار كل يوم، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك. وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس، وله بعير وعشرة آلاف رأس من الغنم، وبلغ الربع من متروكه (ميراثه) بعد وفاته أربعة وثمانين ألف دينار. وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ماكان يكسر بالفئوس، غير ماخلف من الأموال والضياع وتقدر بمائة

الف دينار. وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى دورا بمصر والكوفة والاسكندرية. وبنى طلحة دار بالكوفة، وشيد دارا بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج. وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق، ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات. وبنى المقداد بن الأسود داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن.(٢٢)

بهذا أدت الغنائم والفيوء إلى تحول المسلمين من حال شديد الفقر ظاهر المسبغة إلى حال مسرف الغنى بيّن الترف، بما ينتج عن ذلك من آثار سلبية ونتائج وخيمة على قيم الإسلام وأخلاق المسلمين.

وقد ظهر الترف وبانت المفاسد فى أحوال الخلفاء وقادة المسلمين، وفى قصور هؤلاء وهؤلاء، ثم انتقلت منهم إلى سائر الناس الذين قلدوهم وتمثلوا بهم، على نحو مايقال : إن الناس على دين ملوكهم.

فالخلفاء الأمويون - بدءا من معاوية بن أبى سفيان - وفيما عدا معاوية الثانى (قليل الأيام) وعمر بن عبد العزيز - تطهموا بطهام الملك وتحشموا بحشم القياصرة وتلبسوا لبوس الأكاسرة، وتوسعوا فى المظاهر والتبذير الى أقصى درجة. واتخذ معاوية - ثم من تبعه - الخدم والحشم والجوارى والعبيد. وكان يمشى وصاحب الشرطة أمامه بالحربة. ووضع بينه وبين الناس حجابا. واتخذ لنفسه فى المسجد مقصورة خاصة يصلى فيها. وزاد يزيد الثانى فخرج يوم العيد بين صفين من الجنود يحملون السلاح.

وضيق الخلفاء على غيرهم من بطون قريش، وبخاصة العباسيين والعلويين، ومنعوهم - كما منعوا غيرهم - من مباشرة السياسة أو ممارسة الشئون العامة أو مجرد الاتصال بها، وحجروا عليهم أى تفكير فى هذه المسائل، فالتزم هؤلاء أراضى الحجاز وانصرفوا إلى اللهو والغناء والشراب والمجون، خاصة وكانوا قد حصلوا - باعتبارهم أو اعتبار آبائهم العنصر الفاتح - على أكثر الأموال وأفضل الجوارى وأرفعهن نسبا وأكثرهن تأدبا، فأدبوهم بأدبهن ورقوهم بذوقهن، ومن ثم أسرفوا فى اللهو والترقق والترف والفساد شأن كثير من محدثى النعمة الذين غنوا بعد مسبغة وشبعوا بعد جوع ونالوا بعد حرمان.

بذلك حوت الدولة الإسلامية كثيرا من المتناقضات. فقد كان فيها فقه وفيها ترف، سلطة وفتن، دين ودنيا، جد ولهو، عمل وعبث، شظف وتنعم. وقد ظهر فى ذلك الجو من المفاسد مالا يقل عن مفاسد أى عصر أو أى مصر. فقد انتشر شرب الخمر والتشبيب بالنساء حتى فى موسم الحج، واللهو واللعب، والغناء والرقص، والتخنث واللواط. وأمتلأت مكة والمدينة- أرض الحرمين- بالمغنين والمغنيات، بما صاحب ذلك ولزم عنه من حواشى الفساد ولوازم التدنى.

واجتمع فى زمن واحد من مشهورى الغناء جميلة وهيت وطويس والدلال وبرد الفؤاد ونومة الضحى ورحمة وهبة الله ومعبد ومالك وابن عائشة ونافع بن طنبوره وعزة الميلاد وحبابة

وسلامة وبلبلة ولذة العيش وسعيدة والزرقاء وسعيد بن مسجح وابن سريج والغريض وابن محجر.

وروى أن سعيد بن مسجح المغنى أفسد فتيان قريش وأنهم أنفقوا عليه أموالهم، فكَتب عبد الملك بن مروان إلى واليه ليقبض عليه ويسيِّره إليه. وكذلك رُوى أن الإمام مالك بن أنس كان يتبع المغنين وهو حدث ويأخذ عنهم ويزمع أن يكون منهم لولا أن نصحته أمه ألا يفعل لأنه قبيح الوجه لا يُلتفت إليه إن احترف الغناء، فانقلب إلى الفقه.

وقد أدت شهرة الحجاز بالغناء إلى نشوء مقامات وألحان نُسبت إليه فسُميت «حجازية» وشاع عن أهل الحجاز السماع والطرب- كما شاع عن أهل العراق فيما بعد شرب الخمر- حتى قال الشاعر :-

رأيه في السماع رأى حجازى ∴ وفى الشراب رأى أهل العراق

أى أن القائل- والمتمثل- يحب السماع ويجيزه كرأى أهل الحجاز، ويحب الشراب ويحله كرأى أهل العراق.

وفى عهد عمر بن الخطاب هجا الشاعر الحطيئة بعض المسلمين فسجنه عمر ثم اشترى منه أعراض المسلمين بأن يكف عن هجائهم لقاء صدقة جارية(٢٣). وفى العهد الأموى إذا بالشاعر القرشى عمر بن أبى ربيعة (٢٤) (المتوفى سنة ٩٣ هـ) يتعرض لفضليات القرشيات ويشبب بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان الخليفة، وعائشه بنت طلحة، ولبانة بنت عبدالله بن عباس، وسكينة بنت الحسين بن على، والثريا بنت على بن عبد الله الحارس، ورفلة بنت عبد الله بن خلف (أخت طلحة الطلحات). ونظرا لجزاله شعر عمر بن أبى ربيعة وسهولته فقد جرى على كل الألسن فأشاع الفحش وهتك الآداب وعرّى الحرمات حتى قال ابن جريج: ما دَخَل العواتق فى حجالهن شئ أضر عليهن من شعر ابن أبى ربيعة. وقال هشام بن عروة : لا ترووا فتيانكم شعر عمر بن أبى ربيعة لئلا يتورطوا فى الزنا تورطا.

وشُهر الفسق والفجور عن بعض الخلفاء أنفسهم. فقد عرف عن يزيد بن معاوية أنه كان يشرب الخمر ويلعب بالكلاب ويجاهر بالفسق والتهاون بالدين.

عندما ولى الخلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان قدم عليه أربعون رجلا من مشايخ دمشق وحلفوا له أن ليس على الخلفاء حساب ولا عقاب فى الآخرة؛ فسدر فى لهوه، حتى اختلى بجارية له فى عزلة عن الناس جميعا ، وعن شواغل الحكم؛ وإذ ماتت من شرقة إثر وقوف حبة فاكهة (عنب أو رمّان) فى حنجرتها ، ذهب عقله ومات كمدا عليها بعد أسبوعين من وفاتها .

وكان الوليد الثانى يتظاهر (أى لايخفى) الزندقة، منهمكا على شرب الخمر واللذات والقصف واللهو، وشهر باللواط. وكان شاعرا مطبوعا مولدا للمعانى والأفكار والتعبيرات حتى ليقال إن أبا نواس (الحسن بن هانىء) نقل عنه أكثر أغراضه ومعانيه.

وعندما بُشّر الوليد بالخلافة وأتاه القضيب والخاتم قال :-

طاب يومى ولذ شرب السلافه ∴ وأتانا نعى من بالرصافة
وأتانا البريد ينعى هشاما ∴ وأتانا بخاتم الخلافة
فأصطبحنا من خمر عانة صرفا ∴ ولهونا بقينة عرافة

وأقسم ألا يغادر مكانه حتى يُغَنّى هذا الشعر، فحدث.

ويقول الوليد خليفة المسلمين وأمير المؤمنين وإمام المتقين :-

أدنيا منى خليلى ∴ «عَبــْدَلاً» دون الإزار
فلقد أيقنت أنى ∴ غير مبعوث لنار
واتركا من يطلب الجنة ∴ يسعى فى خسار
سأروض الناس حتى ∴ يركبوا دين الحمار

ويقول :-

أنا الإمام الوليد مفتخرا ∴ أجر بردى، وأسمع الغزلا
ما العيش الاسماع محسنه ∴ وقهوة [٢٥] تترك الفتى ثملا
اسحب ذيلى إلى منازلها ∴ ولا أبالى من لام أو عذلا
لا أرتجى الحور فى الخلود ، وهل ∴ يأمل حور الجنان من عقلا؟
إذا حبتك الوصال غانية ∴ فجازها بذلها ، كمن وصلا

وقيل إنه عندما أحيط به دخل القصر وأغلق أبوابه وأنشد يقول :-

دعوا لى «هندا» و«الرباب» و«فرتنى» ∴ ومُسْمعة، حسبى بذلك مالا
خذوا ملككم، ولاثبت الله ملككمُ ∴ فليس يساوى بعد ذاك عقالا
وخلوا سبيلى قبل عير وما جرى [٢٦] ∴ ولا تحسدونى أن أموت هزالا [٢٧]

والوليد هذا- الذى يقال إنه خليفة الله- حاول أن يضع له مقصفا على الكعبة ويشرب فيه الخمر هو ورفاقه، لولا أن نُصح ألا يفعل. كما قيل- فى وصف انحلاله- إنه راود أخاه عن نفسه.

وبعد مقتله- لاقبل ذلك أبدا - قال حمزة بن بيض الشاعر عنه :-

ياوليد الخنا تركت الطريقا ∴ واضحا وارتكبت فجا عميقا
وتماديت واعتديت وأسرفـ ∴ ـت وأغويت وانبعثت فسوقا

أبدا هات ثم هات وهاتى .'. ثم هاتى حتى تخر صعيقا

أنت سكران ماتفيق مما تر .'. تق نتفا وقد فتقت فتوقا

والوليد - خليفة المسلمين (أو خليفة الله كما يقال) وأمير المؤمنين وإمام المتقين وحامى حمى الإسلام ورافع لواء الشريعة ، أنكر نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) فقال:

تلعب بالنبوة هاشمى .'. بلا خبر أتاه ولاكتاب

وحدث مرة أن استفتح بالمصحف فظهرت له آية «واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد» فمزق المصحف ضربا بالسهام، وهو يسبح فى حوض من الخمر ، ويقول:

أتوعد كل جبار عنيد .'. فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشر .'. فقل يارب مزقنى الوليد

وحدث أن واقع جارية له وهو سكران ، وجاء المؤذنون يؤذنون للصلاة فحلف ألا يصلى بالناس إلا هى ، فلبست ثيابه وتنكرت وصلت بالمسلمين وهى جنب سكرى.

وفى عهد الوليد بن عبد الملك كان والى مصر قرة بن شريك العبسى، وكان ظلوما غشوما عسوفا ، وكان يدعو بالخمر والملاهى فى جامع مصر (جامع عمرو بن العاص)

وفى عهد سليمان بن عبد الملك كثر المخنثون فى المدينة فأرسل سليمان إلى أبى بكر محمد بن عمرو الأنصارى وإلى المدينة كتابا يقول له فيه «إحص المخنثين» فوقعت نقطة على الحاء فأصبحت «اخص المخنثين» ومن ثم فقد خصى الوالى كل المخنثين. وكلمة «احص» «والاحصاء» تفيد أن المخنثين آنذاك كانوا كثرة تقتضى الإحصاء، ولم يكونوا قلة لا يبالى بها أحد.

وكان خلفاء بنى أمية عموما لايعبأون بالصلاة، ويؤخرونها حتى آخر وقتها ، إلى أن عدل عن ذلك سليمان بن عبد الملك.

وبنى عبد الملك بن مروان قبة الصخرة ببيت المقدس ودعا الناس الى زيارتها بدلا من زيارة الكعبة، فصرف الناس عن أداء الحج - وهو ركن من أركان الإسلام - مخافة أن يقابلهم فى مكة عبد الله بن الزبير فيأخذ منهم البيعة له. وكان الناس يوم عرفة يقفون بقبة الصخرة إلى أن قتل عبد الله بن الزبير.

* * *

وهكذا فى عز الخلافة الأموية وفى ضحى التاريخ الإسلامى كان الفسق كثيرا والفجور سافرا يقع فى قصور الخلفاء ويحدث بين صفوف المسلمين ، فكانت الخمر والغناء واللواط والتخنث والتشبيب بالنساء. وحدث مالايمكن أن يحدث فى وقتنا الحالى أن تصلى جارية مخمورة بالمسلمين بدلا من الخليفة، وأن يجاهر الخلفاء بالزندقة والفسق والفجور، وأن يُصرف

الناس عن الحج، وأن يشرع أمير المؤمنين فى وضع مقصف له فوق الكعبة يلهو ويسكر ويتلوط فيه، وأن يعلن هذا الخليفة أنه لادين ولاوحى ولاشريعة.

فأين كل ذلك مما يحدث اليوم ، ويقال اليوم، على أى مستوى يكون القول أو الفعل!؟

العنصرية

يقول الجاحظ (عمرو بن بحر ٧٧٥ - ٨٦٨م) إن دولة بنى العباس أعجمية خراسانية ودولة بنى مروان عربية أعرابية[٢٨].

ومايقوله الجاحظ عن دولة بنى مروان خاصة - أو الخلافة الأموية عامة - يدل دلالة واضحة على أن الدولة الأموية لم تقم على أسس إسلامية ، بل قبلية ؛ ولم ترتفع على عمد دينية، بل عنصرية . فالإسلام دين عام شامل لايقتصر على جماعة ولايميز قبيلة ولايمالىء أسرة ، وهو يدعو الى المساواة بين جميع البشر. وفى القرآن : «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (سورة الحجرات ٤٩: ١٣). والشعب لغة هو القبيلة العظيمة، وقيل الحى العظيم يتشعب من القبيلة، وقيل هو القبيلة نفسها، والجمع شعوب. والقبيل هو الجماعة من الناس يكونون ثلاثة فصاعدا من قوم شتى. والقبائل هى البطون، بطون العرب.[٢٩] ومع أن لفظ الشعب فى الآية المنوه عنها لايعنى الشعب بالمعنى السياسى المعاصر، إلا أن مفهوم الآية القرآنية ، وسياق القرآن كله، يفيد المساواة بين جميع الناس بحيث لايتميز أحد عن أحد بسبب قبلى أو عنصرى.

ولأن الإسلام نزل على العرب أولا ، وبلغة عربية غير أعجمية ، فقد صار العرب المسلمون يرون أنهم حماة الإسلام وحملة الدين القويم وهداة الشعوب الضالة. وإثر فتح فارس ومصر والشام تجذّر لديهم الإحساس بالتفوق والاستعلاء . وبعد عهد الخلفاء الراشدين ، وقيام الدولة الأموية ، تملك القوم شعور بالسيادة والعظمة والتعالى فنظروا إلى غيرهم من الأمم نظرة السيد إلى المسود والمالك إلى العبيد؛ وتأسس الحكم الأموى على هذا الاعتقاد الخاطىء والمفهوم الفاسد.

بهذا قامت الدولة الأموية على عنصرين : العنصر العربى من جانب ، والموالى من جانب آخر. والموالى هم كل شخص غير عربى وإن كان مسلما عليه أن يتولى ، أى أن يتخذ له مولى من العرب حتى يحميه ويسانده . بذلك كانت الدولة عنصرية تسوّد العنصر العربى وتستذل أو تضطهد الموالى من غير العرب.

وقد بدأ ذلك بالحديث الذى يقول «الأئمة من قريش» ثم شرع هذا المبدأ يُصاغ فى الشعر ويجرى فى القول ويفعل فى السياسة ويحكم فى الادارة.

فهذا كثير عزة يقول :

ألا إن الأئمة من قريش .·. ولاة الحق أربعة سواء

ولم يقتصر معنى الأئمة – فى العمل السياسى والحكم الإدارى – على معنى الإمامة العظمى أو رياسة الدولة ، بل إنه امتد الى جميع الولايات والإمامات والرياسات والوظائف فحُظرت ولاية القضاء وإمامة المصلين ورياسة الناس على غير العرب. وكانت العرب ، حتى زوال الدولة الأموية ، تسير على أسلوب معين، فإذا أقبل العربى من السوق ومعه شيء ورأى مولى دفعه إليه ليحمله عنه، فلايمتنع المولى ولايغير عليه السلطان (أى لايحميه) . وإذا لقى العربى مولى راكبا وأراده أن ينزل فعل المولى. وإذا رغب أحد فى تزوج مولاة خطبها الى مولاها العربى (الذى يتولى حماية أسرتها) دون أبيها أو جدها.

وغالت بنو أمية فصارت لاتستخلف بنى الإماء حتى ولو كانوا عربا. وقالوا فى ذلك: لاتصلح لهم العرب. ويعلل الأصمعى هذا المسلك بقوله: إن الامتناع عن تولية بنى الإماء (أولاد الجوارى) كان للاستهانة بهم. وذهب البعض الى أكثر من ذلك فمنع توريث الهجناء (أولاد الجوارى) خلافا لنص القرآن.

وقال المختار لابراهيم بن الأشتر فى معركة : إن عامة من عندك من هؤلاء الحُمْراء (أى الموالى) وإن الحرب إن ضَرّستهم هربوا ، فأحمل العرب على متون الخيل، وأَرْجل الحمراء أمامهم» فصار الموالى راجلين والعرب راكبين.

ورُوى أن رجلا من الموالى خطب بنتا من أعراب بنى سليم وتزوجها ، فشكوا ذلك إلى والى المدينة ، فأرسل الوالى إلى المولى وفرق بينه وبين زوجه وضربه مائتى سوط ، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه. وقيل فى مدح الوالى الذى فعل ذلك:

قضيت بسنة وحكمت عدلا .·. ولم ترث الحكومة من بعيد

وفى المائين للمولى نكال .·. وفى سلب الحواجب والخدود

فأى الحق أصهر للموالى .·. من اصهار العبيد إلى العبيد

وعلى ماسلف فإن الشعر تضمن الشعور ضد الموالى والهجناء (أولاد الجوارى) فهذا شاعر يقول:

إن أولاد السرارى .·. كثروا يارب فينا

رب أدخلنى بلادا .·. لا أرى فيها هجينا

وقال الشاعر جرير يهجو الموالى:

يامالك بن طريف : إن بيعكمُ .·. رفد القرى، مفسد للدين والحسب

قالوا نبيعكه بيعا فقلت لهم .·. بيعوا الموالى واستحيوا من العرب

وقال المبرد: إن جلة الموالى أنفت من هذا البيت لأنه حطهم وأنزل من قدرهم.

وزاد الطين بلة، وسوءا على سوء، أن الدولة فرضت الجزية على من أسلم من أهل الذمة، وكان قراء البصرة يبكون لذلك(٣٠) حتى وُلى الخلافة عمر بن عبد العزيز فرفع الجزية عمن أسلم، فلما قيل له إن موارد بيت المال سوف تنقص ، قال: إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) أرسل هاديا ولم يرسل جابيا.

وهذا الاستعلاء المتوالى من جانب العرب والاستذلال المتتالى للموالى ، دعا بعض هؤلاء لا إلى مجرد طلب الولاء العربي، بل إلى ادعاء النسب العربى كذلك. فأبو مسلم الخراسانى الذى قوّض الدولة الأموية ادعى لنفسه نسبا عربيا . واسحاق الموصلى المغنى مضى إلى عربى يدعى خازيم بن خزيمة فتولاه (أى طلب اسحق أن يكون مولى له).

وفى هذا المعنى يقول الشاعر:

يـــروح بنسبة المولـــى .·. ويصبح يدعى العــــربا
فـلا هذا، ولا هـــــذا .·. ك يدركـه إذا طلــــبا
يشـم الشيخ والقيصوم .·. كى يستوجب النســـبا
فصــار تشبهـا بالقـــو .·. م جلفـا، جافـيا، جشـبا

وادعى والبة بن الحباب نسبا الى العرب فقال فيه أبو العتاهية:

أوالب أنت فى العـرب .·. كمثل الشيص فى الرطب
هلم إلى الموالى الصـــ .·. ـيد فى سعة وفى رحـــب
فأنت بنا لعمر اللـــ .·. ـه أشبه منك بالعـــربى

وقال بشار بن برد فى رجل ادعى نسبته إلى عرب:

إن عمـــــروا فاعـرفوه .·. عـــربى مـــن زجـــاج
مظلـم النســبة لا يُعـــ .·. ـــرف إلا بالســـراج

وكان ولابد مع الاعتزاز المبالغ فيه بالعنصر العربى ، ومحاولة بعض الموالى نسبة أنفسهم إلى العرب ، أن يحدث رد فعل آخر مبالغ فيه أيضا من العنصر الأعجمى ، وبخاصة الفرس الذين رأوا أنهم أعرق نسبا وأبعد حضارة وأبلغ مدنية وأرق طباعا من العرب أنفسهم ؛ وبذلك لم تعد دولة الإسلام أمة موحدة بل جماعات متفرقة متعددة متحزبة متعارضة، تشتتها القومية وتبددها الشعوبية.

وفى هجاء العرب، والانتصار للموالى، يقول الشاعر مخاطبا العربى:

أحين كُسيت - بعد العرى - خزا .·. ونادمت الكرام على العقار (٣١)
تفاخــر يا ابـــن راعـــية وراع .·. بنى الأحرار ، حسبك من خســار

تريغ بخطبة كسر الموالى .·. وينسيك المكارم صيد فار
وكنت إذا ظمئت الى قراح .·. شركت الكلب فى ولغ الإطار

وقد ظلت هذه النعرة الجاهلية بين العرب والعجم ، بين السادة والعبيد ، تشتد وتقوى على هذا الجانب وذاك، حتى تجمع الموالى حول أبى مسلم الخراسانى (وهو مولى) وكانوا من أهم العوامل لتقويض الدولة الأموية التى كانت - كما يقول الجاحظ - عربية اعرابية، أى عربية بدوية أو عربية بُدائية أو عربية جاهلية.

ودولة تقوم على هذا الأساس الفاسد والعماد الخاطىء ، وتتنكب أهم مبادىء الإسلام فى المساواة بين الناس عامة والمكافأة بين المؤمنين خاصة، دولة غير إسلامية ، وإن ادعت الإسلام تخابثا به، أو زعمت الإيمان تعابثا به.

الحجاج والقرآن

الحجاج بن يوسف الثقفى (٦٦٠ - ٧١٤ م) كان معلما - بالطائف - للغة العربية، ثم انتقل الى صفوف الجند، وصار أهم عُمال عبد الملك بن مروان ثم ابنه الوليد بن عبد الملك. وكان هو ثانى من رمى الكعبة بالمنجنيق فى حصاره لعبد الله بن الزبير، ثم قتله فقضى على خلافته، ووطأ المنابر كما مهّد الطرق للمروانية (عبد الملك والوليد) واشتهر بالقسوة والظلم والعسف حتى صار علما فى ذلك.

ولأنه مدرس لغة عربية فقد تدخل فى مصحف عثمان وغير أحد عشر حرفا هى :[٣٢]

١ - «لم يتسن وانظر» سورة البقرة ٢ : ٢٥٩ جعلها «لم يتسنه» بالهاء.
٢ - «شريعة ومنهاجا» سورة المائدة ٥ : ٤٨ جعلها «شرعة ومنهاجا».
٣ - هو الذى ينُشركم» سورة يونس ١٠ : ٢٢ جعلها «يسيركم».
٤ - «أنا آتيكم بتأويله» سورة يوسف ١٢ : ٤٥ جعلها «أنا أنبئكم بتأويله».
٥ - «سيقولون لله لله لله» سورة المؤمنون ٢٣ : ٨٥ جعلها «سيقولون الله الله».
٦ - «من المخرجين» سورة الشعراء ٢٦ : ١١٦ جعلها «من المرجومين»
٧ - «من المرجومين» سورة الشعراء ٢٦ : ١٦٧ جعلها «من المخْرجين».
٨ - «نحن قسمنا بينهم معايشهم» سورة الزخرف ٤٣ : ٣٢ جعلها «معيشتهم».
٩ - «من ماء غير ياسن» سورة محمد ٤٧ : ١٥ جعلها «غير آسن»
١٠ - «فالذين آمنوا منكم واتقوا» سورة الحديد ٧:٥٧ جعلها «وانفقوا»
١١ - «وماهو على الغيب بظنين» سورة الشمس (التكوير) ٨١ : ٢٤ جعلها «بضنين».

ولو أن الأمويين كانوا يقدسون القرآن الكريم شأن المسلمين ، ويقدرون السلف الصالح كحال المؤمنين ، لما تركوا الحجاج - أهم عمّالهم - يغيّر فى القرآن ، ولو لفظا واحدا، حتى وإن كان

خطأ من النساخ. فلقد سبق أن سمعت عائشة زوج النبى بعض أخطاء فى كتابة القرآن الكريم فلم ترفعها ولم تُشر بذلك وإنما قالت إنها واثقة أن المسلمين سيقومونها بألسنتهم.

والذى يدلل على أن الحجاج قصد إظهار جراءته على القرآن ليس إلا ، أنه لازالت توجد حتى الآن بعض الأخطاء النحوية واللغوية - لابد أن تكون قد وقعت من النساخ - ولم يصححها الحجاج ، كما لم يجرؤ أحد على تقويمها إلى اليوم. من هذه - على سبيل المثال:

١ - «إن هذان لساحران» (سورة طه ٢٠ : ٦٣) بدلا من «إن هذين لساحرين»

٢ - «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى » (سورة المائدة ٥: ٦٩) بدلا من «الصابئين».

٣ - «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما» (سورة المائدة ٥: ٣٨) بدلا من يديهما»(٣٣)

الفـــرق

يتميز التاريخ الإسلامية بخاصية معينة ، تظهر فى التاريخ البشرى عموما ، لكن ليس بمثل ظهورها وبروزها فى التاريخ الإسلامى، هى قيام الحركات السياسية أولا ثم ظهور الفرق والتيارات والمذاهب بعد ذلك ، حول الحركة التى ظهرت ابتداء ، وبقصد تبريرها أو تسويغها أو تثبيتها. وربما كانت علة وضوح هذه الخاصية فى التاريخ الإسلامى أن هذا التاريخ محكوم ببعض العوامل التى بدأت منذ ماقبل الإسلام، فى العهد الجاهلى، حين كانت جل تصرفات العرب الجاهلية آنذاك حركات بلا فكر، وتصرفات دون مذهب، وردودا بغير أى اعتقاد. فلما جاء الإسلام لم تكن هذه العوامل قد انتهت وزال كل أثر لها فاستمرت فاعليتها مع الأحداث، وخاصة أن تداخل السياسة مع الإسلام فاجأ المسلمين بانشقاقات سياسية وحركات حزبية وتصرفات جاهلية ، منذ الفترة الأولى (فى النصف الثانى من عهد عثمان بن عفان، وقبل مرور عشرين عاما على وفاة النبى) وكانت المفاجأة من قبل أن يتكامل للمسلمين فكر أو تتحدد لهم مذاهب أو ينبنى لهم فقه، فأدى ذلك الى تأثر كل اتجاهاتهم الفكرية بالحركات السياسية ؛ بالخلافة من جانب حزب الخليفة ، وبطلاب الخلافة من جانب حزب المعارضة ، فالحركة السياسية تبدأ لتأييد موقف أو تحبيذ اتجاه أو تعزيز حاكم ثم يلتف الفكر حول الحركة فيلتصق بها ويُؤثر فيها ويختلط معها، فإذا به مجرد تبرير للموقف أو تسويغ للاتجاه أو تقديس للحاكم أو المطالب بالحكم.

بهذا نشأت أهم الفرق فى بواكير التاريخ الإسلامى، ومن أبرزها : الخوارج، والشيعة ، وجماعة المتكلمين.

أ) فالخوارج نشأوا أصلا كاحتجاج على موقف على بن أبى طالب من التحكيم على الخلافة ، ثم كغضبة مما أحدثه الصراع على الخلافة بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى

سفيان من فرقة بين المسلمين وحروب بين المؤمنين. وبعد ذلك صار الخوارج فرقة تشعبت الى فرق كثيرة ، ونشأ لها اتجاه فكرى كان أساس المذهب الحربى فى الإسلام. ويظهر هذا المذهب فى عدة عناصر أهمها: حاكمية الله، وتحريف معانى القرآن الكريم، وتكفير الأمة الإسلامية، هذا فضلا عن العدمية والفوضوية.

فقد رفع الخوارج فى وجة على بن أبى طالب شعار «لاحكم إلا لله» وهو شعار مأخوذ عن الآية «إن الحكم إلا لله» (سورة الأنعام ٦: ٥٧، سورة يوسف ١٢: ٤٠، ٦٧) ثم شرعوا فى استعمال الآيات «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .. الظالمون .. الفاسقون» (سورة المائدة ٥: ٤٤- ٤٥- ٤٧) لوصم كل الحكام وكل الخصوم بالكفر، على اعتبار أنهم لايحكمون بما أنزل الله، وأن الخوارج وحدهم هم الذين يحكمون بما أنزل الله.

وفكرة حاكمية الله أو تكفير من لم يحكم بما أنزل فكرة براقة لكنها غير صحيحة، تصدر عن نفوس مشحونة بالعواطف الفائرة ولا تخلص من عقول راجحة مركوزة على التفكير ، ذلك أن الحكم لله بالإطلاق ، لكنه للناس بالفعل ؛ ولو لم يكن الفرد - حاكما أو محكوما - مسئولا عن فعله لما كان ثم سبيل للمساءلة الدنيوية أو المحاسبة الأخروية ! فمادام الله هو الذى يحكم ويفعل فماهو أساس مسئولية الحاكم أو الفرد إذن!؟

واستعمال الآيات «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون... الظالمون... الفاسقون» على النحو الذى استعملها به الخوارج- أو يستعملها غيرهم - تحريف لمعانى القرآن ، باستعمال آيات فى غير الغرض الذى تغياه التنزيل، واستخدام آيات أنزلت فى غير المسلمين ليوصف بها المسلمون. وهذا الأسلوب الذى اتبعه الخوارج صار أساس القاعدة الفقهية التى نشأت فيما بعد والتى ترى أن «العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب»، والتى تتأدى فى أن آيات القرآن الكريم لاتفسر بعد معرفة أسباب تنزيلها ولكن بمجرد عموم ألفاظها. ونتيجة تفسير آيات القرآن على عموم اللفظ، بعد اطراح سبب التنزيل ، أن تجتث الآيات من السياق القرآنى وتُقتطع من تاريخ التنزيل وتُطلق على أشياء لم تنزل بسببها أو واقعات لم تقصدها إطلاقا أو أوضاع لاترمى إليها أبدا. وبذلك يكون الخوارج قد بدأوا الطريق فى تحريف معانى القرآن الكريم، ثم تلقف غيرهم هذا الأسلوب ، لاعتبارات سياسية غالبا، ثم فقهّوه وقننوه فى القاعدة السالف بيانها فأثر ذلك تأثيرا سيئا جدا على العقل الإسلامى والفهم الشرعى والتاريخ الإسلامى.

وعادى الخوارج الأمة الإسلامية كلها ، واعتبروها كافرة ، لأنها لم تخرج على الحكام كما خرجوا هم، ولم تهجر الجماعة إليهم هم. وبذا بذر الخوارج بذار فتن لم تزل قائمة ومستمرة وفعالة حتى اليوم.

يضاف الى ذلك أن الخوارج جوّزوا ألا يكون للأمة خليفة أو إمام ، كما أجازوا لكل فرد -

نتيجة عدم وجود حكومة - أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، من تلقاء نفسه وبما يتراءى له. وبهذا وُضعت أسس الفوضوية والعدمية فى المجتمع الإسلامى والشخصية الإسلامية.

ب) أما الشيعة ، فقد نشأوا - على ماسلف - للمطالبة بأحقية أولاد على بن أبى طالب الحسن والحسين - ثم ذريتهما - بالخلافة . ونتج عن هذا الاتجاه السياسى اتجاه دينى كامل ، ومذاهب فقهية متعددة؛ هى الاتجاه الشيعى - الذى يخالف السنة ويجانب فقهها فى أشياء كثيرة - والمذاهب الإمامية (الجعفرية) والزيدية والإسماعيلية.. وغيرها.

جـ) ونتيجة لموقف المسلمين من أصحاب الشرائع الأخرى وبخاصة اليهود والمسيحيين ، فقد دخل هؤلاء الى الإسلام بفلسفاتهم ومسائلهم الفكرية وحواراتهم الجدلية ، وبخاصة مسألة خلق «كلمة الله» (المسيح أو التوراة) ، ومن ثم أثيرت مسألة خلق القرآن (كلام الله) وهى المسألة التى ذُبح بسببها الجعد بن درهم - كما سلف البيان - والتى صارت فيما بعد جزءا من صميم العقيدة ، وخاصة فى العصر العباسى ، وفى عهد الخليفة المأمون بالذات.

فالفرق ، والحركات ، وكثير من المذاهب ، نشأ فى الإسلام نتيجة للسياسة وأثرا للتحزب ، وكان المحرك لها جميعا منصب الخليفة أو مركز الخلافة. فالمؤيدون لفريق فى جانب والمعارضون لهم فى جانب آخر، وبين الأثنين جماعة ثالثة.. وهكذا توالى التاريخ ، والحركة الأساسية له تكمن فى الخلافة الإسلامية.

هوامش وتعليقات

١ - المراجع المشار إليها فى الفصول السابقة.
٢ - ابن هشام - المرجع السابق - الجزء الأول - ص ٢٧٦.
٣ - المرجع السابق - ص ٢٦٢.
٤ - الطبرى - المرجع السابق - الجزء الرابع ص ٢٠٧.
٥ - ابن خلدون - المقدمة - المرجع السابق ص ٣٦٠.
٦ - يراجع ماسلف فى الفصل السابق.
٧ - ابن خلدون المرجع السابق - ص٣٦٨.
٨ - كان على بن أبى طالب قد حمل على عائشة أيام حديث الإفك ولم يصدق روايتها ونصح النبى بطلاقها حتى نزلت الآية القرآنية التى تبرىء عائشة. وقد صار ثم عداء بين على وعائشة ، أو اشتد بينهما، وظل متصلا لايهدأ حتى إذا ما علمت عائشة بمقتل على قالت:

فألقت عصاها واستقر بها النوى .·. كما قرّ عينا بالإياب المسافر

تقصد من ذلك أن عليا بموته قد أراح واستراح. ولما راجعتها إحداهن فى ذلك القول عن علىّ بعد مقتله، رددت عائشة قول الشاعر عمن نعاه:

فإن يك نائيا فلقد نعاه .·. نعىّ ليس فى فيه تراب

وكأنها بذلك تمتدح من نعى عليا بن أبى طالب.
٩ - بايع معاوية أهل الشام واختلف أهل العراق حتى صالحه الحسن بن على فأجمع الناس على بيعته فى جمادى الأولى سنة ٤٢ هـ (٦٦٢م).
١٠ - ابن عبد ربه - العقد الفريد - الجزء الثانى - ص٣٠٧. وقد علق معاوية على خطبة المغيرة قائلا: اجلس فأنت سيد الخطباء
١١- فى العملات الإسلامية الموجودة بالمتحف البريطانى ثلاث عملات لثلاثة خلفاء نقشت عليها عبارة خليفة الله، وهى على التوالى لعبد الملك بن مروان والمأمون والخليفة الناصر.
١٢ - السيوطى - تاريخ الخلفاء - ص٢١٧.
١٣ - ابن خلدون المرجع السابق - ص ٣٦٩.
١٤ - وُجدت بجثة الحسين ٣٣ طعنة ، ٣٤ ضربة غير الرمية.
١٥ - عباس محمود العقاد - الأعمال الكاملة - أبو الشهداء.
١٦ - وبعد وفاة يزيد بن معاوية التقى ابن الحصين بعبد الله بن الزبير فى الكعبة فعرض عليه أن يبايعه للخلافة على أن يسير معه إلى دمشق لمبايعته، فأبى ذلك عبد الله بن الزبير، وكان رفضه بصوت عال بعد أن كان حديث ابن الحصين إليه خافتا، فرد عليه هذا بقوله، انك لأحمق العرب، أأدعوك إلى الخلافة فتدعونى إلى الحــرب.

١٧ - الطبرى - المرجع السابق - الجزء الخامس صفحة ٢٣٤ ، ٢٣٥.
١٨ - المرجع السابق صفحة ٢٥٦، ٢٥٧: وقد زعم زاعم أن شخصا دخل على معاوية بن أبى سفيان وقال له «السلام عليك أيها الأجير» ثم وصل من هذا القول الهازل الى استنتاج عابث مؤداه أن الخليفة فى العهد الأموى ، وفى كل العهود ، كان أجيرا للمحكومين . ومن هذا الوهم استخلص البعض نظرية تتأدى فى أن الحاكم فى تاريخ الإسلام كان أجيرا للمحكومين (هكذا!!!) . وعلى هؤلاء جميعا ترد قصة جحر بن عدى وحدها دون غيرها، فقد قال لمعاوية «السلام عليك أيها الأمير» ومع ذلك قتل صبرا (أى بالحبس والرمى حتى الموت) دون اتهام أو دفاع أو محاكمة أو تسبيب، وبأمر اعترف الخليفة أنه تم دون رشد.. وهكذا يكون الأجـيرا
١٩ - كان عقبة بن أبى مُعَيْط صديقا للنبى (صلى الله عليه وسلم)أثناء أن كان فى مكة ، وبتحريض من خصم للنبى بصق عليه وقاطعه.. وعندما أسر فى موقعة بدر أمر النبى (صلى الله عليه وسلم) بقتله صبرا، وقبل أن يموت قال عقبة للنبى: ومن للأولاد يامحمدا؟ قال: لهم النار. ومن هؤلاء الأولاد الذين قال النبى إن النار لهم الوليد بن عقبة الذى ولاه عثمان بن عفان إمارة البصرة فصلى الفجر بالناس وهو مخمور فزاد فى عدد الركعات والسجدات، فلما نبهه الناس التفت اليهم وقال: هلا زدتكم!!
٢٠- الوافى - المرجع السابق - الجزء الثانى - ص ١٠٠٠ .
٢١ - أحمد أمين - ضحى الإسلام - المرجع السابق - الجزء الأول صفحة ٣٣٤.
٢٢ - ابن خلدون - المقدمةُ المرجع السابق - ص ٣٦٢.
٢٣ - وهو فى الحبس أرسل الحطيئة الى عمر يستعطفه فقال:

ماذا تقول لأطفال بذى مـــرخ .·. زغب الحواصل لاماء ولاشجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة .·. فاغفر عليك سلام الله ياعمر

وإلى ما بعد وفاة عمر بفترة كان الحطيئة يخشاه، فإذا ذكر ترحم عليه.
٢٤ - عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة من مخزوم بطن من قريش، وكانت العرب تنكر الشعر على قريش فلما ظهر عمر بن أبى ربيعة اعترفوا لها بالتفوق فى الشعر!!
٢٥ - القهوة هى الخمر.
٢٦ - أى فى الحال.
٢٧ - رسالة الغفران - المرجع السابق - صفحة ٢٣٦ ومابعدها.
٢٨ - الجاحظ - البيان والتبيين ٣ : ٢٠٦.
٢٩ - لسان العرب : مادة: شعب، قبيلة.
٣٠ - أبو يوسف - الخراج ، أحمد أمين - المرجع السابق صفحة ٣٦٣
٣٢ - العقار: الخمر
٣٢ - أبو بكر عبد الله بن أبى داود سليمان بن الأشعب السجستانى - كتاب المصاحف - دار الكتب العلمية - بيـروت لبـنان - الطبعـة الأولى - صفحة ١٣٠، ابراهيم الإبيارى - الموسوعة القرآنية - الجزء الأول - ص ٣٦١ ومابعدها.
٣٣ - القرطبى - المرجع السابق. ويرى بعض اللغويين أن ماورد فى كتابة مصحف عثمان صحيح لغوياً، وقدموا دلائل لغوية على ذلك، الموسوعة القرآنية - المرجع السابق - ص ٣٥٨ ومابعدها.



ثبت الخلفاء

	هجرية	ميلادية
١- السفاح أبو العباس عبد الله بن محمد	١٣٢	٧٥٠
٢- المنصور أبو جعفر عبد الله بن محمد	١٣٦	٧٥٤
٣- المهدى أبو عبد الله محمد بن المنصور	١٥٨	٧٧٥
٤- الهادى أبو محمد موسى بن المهدى	١٦٩	٧٨٥
٥- الرشيد أبو جعفر هارون بن المهدى	١٧٠	٧٨٦
٦- الأمين أبو موسى محمد بن الرشيد	١٩٨	٨١٣
٧- المأمون أبو جعفر عبد الله بن الرشيد	١٩٨	٨١٣
٨- المعتصم بالله أبو اسحاق محمد بن الرشيد	٢١٨	٨٣٣
٩- الواثق بالله أبو جعفر هارون بن المعتصم	٢٢٧	٨٤٢
١٠- المتوكل على الله أبو الفضل جعفر بن المعتصم	٢٣٢	٨٤٧
١١- المنتصر بالله أبو جعفر محمد بن المتوكل	٢٤٧	٨٦١
١٢- المستعين بالله أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم	٢٤٨	٨٦٢
١٣- المعتز بالله أبو عبد الله محمد بن المتوكل	٢٥٢	٨٦٦
١٤- المهتدى بالله أبو اسحاق محمد بن الواثق	٢٥٥	٨٦٩
١٥- المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل	٢٥٦	٨٧٠
١٦- المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق	٢٧٩	٨٩٢
١٧- المكتفى بالله أبو محمد على بن المعتضد	٢٨٩	٩٠٢
١٨- المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن المعتضد	٢٩٥	٩٠٨
١٩- القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد	٣٢٠	٩٣٢
٢٠- الراضى بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر	٣٢٢	٩٣٤
٢١- المتقى بالله أبو اسحاق ابراهيم بن المقتدر	٣٢٩	٩٤٠
٢٢- المستكفى بالله أبو القاسم عبد الله بن المكتفى	٣٣٣	٩٤٤
٢٣- المطيع لله أبو القاسم الفضل بن المقتدر	٣٣٤	٩٤٦
٢٤- الطائع لله أبو الفضل عبد الكريم بن المطيع	٣٦٣	٩٤٧

٢٥- القادر بالله أبو العباس أحمد بن اسحاق المقتدر	٣٨١	٩٩١
٢٦- القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله	٤٢٢	١٠٣١
٢٧- المقتدى بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن محمد	٤٦٧	١٠٧٥
٢٨- المستظهر بالله أبو العباس أحمد	٤٨٧	١٠٩٤
٢٩- المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر	٥١١	١١١٧
٣٠- الراشد بالله أبو منصور جعفر	٥٢٩	١١٣٤
٣١- المقتفى لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر	٥٣٠	١١٣٥
٣٢- المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفى	٥٥٥	١١٦٠
٣٣- المستضئ بنور الله أبو الحسن على بن المستنجد	٥٦٦	١١٧٠
٣٤- الناصر لدين الله أبو العباس أحمد	٥٧٥	١١٧٩
٣٥- الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر	٦٢٢	١٢٢٥
٣٦- المستنصر بالله أبو جعفر المنصور	٦٢٣	١٢٢٦
٣٧- المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله	٦٤٠	١٢٤٢

الخلافة العباسية فى مصر

٣٨- المستنصر بالله أبو القاسم أحمد (الأسود)	٦٥٩	١٢٦٠
٣٩- الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن المستظهر	٦٦١	١٢٦٢
٤٠- المستكفى بالله أبو الربيع سليمان	٧٠١	١٣٠١
٤١- المستمسك بالله ابراهيم الواثق	٧٤٦	١٣٤٥
٤٢- الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفى	٧٤٦	١٣٤٥
٤٣- المعتضد بالله أبو الفتح بن أبى بكر المستكفى	٧٥٣	١٣٥٢
٤٤- المتوكل على الله أبو عبد الله محمد	٧٦٣	١٣٦١
٤٥- المستعين بالله أبو الفضل بن المتوكل	٨٠٨	١٤٠٥
٤٦- المعتضد بالله أبو الفتح داود	٨١٦	١٤١٣
٤٧- المستكفى بالله أبو الربيع سليمان	٨٤٥	١٤٤١
٤٨- القائم بأمر الله أبو البقاء حمزة	٨٥٤	١٤٥٠
٤٩- المستنجد بالله أبو المحاسن يوسف	٨٥٩	١٤٥٤
٥٠- المتوكل على الله عبد العزيز أبو المعز يعقوب	٨٨٤	١٤٧٩
٥١- المستمسك بالله أبو صابر يعقوب	٩٠٣	١٤٩٧
٥٢- المتوكل على الله محمد بن المستمسك	٩٢٢	١٥١٦

تضافرت عوامل عدة لتقويض وإسقاط الخلافة (الدولة) الأموية واستبدال خلافة (دولة) أخرى بها من الهاشميين. وكانت أظهر هذه العوامل : المفاسد والمظالم، وغضب الموالى، وتطلع الهاشميين إلى الخلافة.

فالمفاسد والمظالم - خلال الدولة الأموية - كانت عامة كثيرة منتشرة؛ وكان المجتمع الاسلامى - حديث العهد - قريب عهد بها. فمنذ نشأت الخلافة الإسلامية لم يصادف هذا الكمّ الزاخر المتتالى من المفاسد والمظالم، فاعتقد المسلمون أن هذه وتلك خاصة بالخلافة الأموية وبنى أمية وبنى مروان وحدهم، وأنها تزول بزوالهم وتنقضى بانقضائهم، فيحل العدل والسلام والأمن والرخاء تلقائيا. ولم تكن الخلافة قد استطالت، وتعددت، وجرب المسلمون أنواعا متعددة، وأسَرًا مختلفة، ودولا متغيرة، حتى يصلوا إلى النتيجة المؤكدة من أن المفاسد والمظالم هى اللحمة والسدى لكل حكومة شمولية، وكل نظام استبدادى؛ سواء كان مدنيا أم دينيا، بل إنها فى النظام الدينى أشد وأعتى.

وكانت الخلافة الأموية - على ماسلف - عربية أعرابية، أى عربية بدوية أو بدائية، فلم تستوعب روح الاسلام فى نشر الإخاء الإنسانى، ومن ثم تعالت بالعنصر العربى مما أدى إلى قيام تعال مقابل بالعناصر غير العربية من الموالى. ومع الوقت تجمع صوت الموالى فصار زئيرا، واشتدت قوتهم فأصبحت حربا، وتحددت أهدافهم فى القضاء المبرم على الخلافة الأموية.

وفى سبيل تقويض هذه الخلافة لتستبدل بها خلافة هاشمية، والى الهاشميون الثورة على الخلفاء الأمويين واحدا إثر واحد، فكانوا - بثوراتهم المتصلة - يجمعون حولهم وضمن معتقداتهم كل قوى المعارضة التى لم يكن أمامها سواهم، فرأت فيهم أملا محددا للخلاص وجبهة مركزة للعمل. وكان الهاشميون يرجعون كل مساوئ الخلافة الأموية إلى عدم الحكم بالشريعة، أو بشرع الله، أو بما أنزل الله؛ وهو اتجاه - وتعبير - بدأه الخوارج، كما أنف البيان، باستعمال خاطئ لآيات القرآن الكريم التى نزلت فى يهود المدينة ولا تخاطب أمة الإسلام، ثم والى الهاشميون استعماله، كشعار سياسى، فوصموا حكم الأمويين بأنه مخالف لشرع الله، ووعدوا بأن يحكموا - حكما دينيا - بما أنزل الله، فيما لو آلت إليهم الخلافة.

تلك هى أهم العوامل التى تضافرت لتقويض الخلافة الأموية، فلما اشتدت فى ذاتها أو بالتفاعل مع غيرها، وحان الوقت وساعدت الظروف، قام فى خراسان الفارسية أبو مسلم الخراسانى فقاد الثوار حتى قضى على الخلافة الأموية وأقام الخلافة العباسية.

والخلافة العباسية خلافة لبنى العباس وحدهم دون آل طالب، أى أنها اقتصرت على جزء من الهاشميين ولم تشملهم جميعا، مما دعا إلى الانشقاق فى صفوفهم إلى عباسيين يحكمون وطالبيين يعارضون.

وأول الخلفاء العباسيين أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس الهاشمى. وقد كان شابا دمويا، ولى الخلافة وعمره ثمانية وعشرون عاما (وقيل أربعة وعشرون وقيل اثنان وثلاثون) وحكم مدة أربع سنين وثمانية أشهر، وتوفى وعمره ثلاثة وثلاثون عاما. وعندما ولى الخلافة اعتلى المنبر وخطب الناس فقال "... الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه وكرمه وشرفه وعظمه واختاره لنا فأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه والناصرين له، فألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصنا برحم رسول الله (صلعم) وقرابته، وأنشأنا من آبائنا وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته... «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا» وقال تعالى : «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى» وقال : «وأنذر عشيرتك الأقربين» وقال : «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى» فأعلمهم... فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفئ والغنيمة نصيبا تكرمة لنا وفضلا علينا... وزعمت الشامية (أهل الشام) الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا فشاهت وجوههم... وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها... (ثم أضاف) : أنا السفاح المبيح والثائر المنيح... لكم منا ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذمة العباس.. أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير فى العامة والخاصة بسيرة رسول الله.. واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام... »!!

ومن هذه الخطبة الافتتاحية للخلافة العباسية يبين أن الهاشميين (قبل أن ينقسموا إلى عباسيين وطالبيين) كانوا يرون أنهم هم الأحق بالخلافة، وأن الخلافة الأموية كانت ابتزازا وظلما للناس؛ ثم أكدت الخطبة على صلة القرابة بين النبى وبين بنى العباس، بما يعنى أن السبب الأول والأوجب للخلافة هو قرابة الخلفاء للنبى، وهو سبب سوف يفصح عن معانى الإرث والوراثة. وجعلت الخطبة حقوق النبى (صلى الله عليه وسلم) فى الفئ والغنائم حقوقا للخلفاء كذلك، كما أكدت أن العطاء لهم والتودد إليهم هو القصد من القرآن الكريم.

ومع هذا التمثل بالقرآن، والتعلل بقرابة النبى، فقد وقع تحلل من كل قيمة أو مبدأ أو

حرمة؛ ذلك أن العباسيين بدأوا حكمهم بنبش قبور الخلفاء الأمويين، ثم القضاء على من بقى منهم فى مذبحة فظيعة.

فلقد نبش العباسيون قبر معاوية بن أبى سفيان فوجدوا فيه حطاما كأنه الرماد. ونبشوا قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته. ونبشوا قبور باقى الخلفاء فلم يجدوا إلا العضو بعد العضو، غير هشام بن عبد الملك فإنهم وجدوه صحيحا لم تبل منه إلا أرنبة أنفه فضربوه بالسياط وصلبوه وحرقوه وذروا الرماد فى الريح.

وتتبع أبو العباس بنى أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم، فأخذهم ولم يُفلت منهم إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس مثل عبد الرحمن بن معاوية المعروف بعبد الرحمن الداخل. وكان أبو العباس قد أمّن سليمان بن هشام بن عبد الملك وكبار القوم من الأمويين ثم دعاهم إلى مأدبة عشاء فدخل عليهم الشاعر سديف (الشريف) وقال له :-

لايغرنك ماترى من رجال .·. إن تحت الضلوع داء دويّا

فضع السيف وارفع السوط حتى .·. لاترى فوق وجهها أمويا

فأمر بهم السفاح (ويقال بل عمه عبد الله بن على) فضُربوا بالعُمُد حتى قتلوا، ثم بَسَطوا عليهم الأنطاع، وأكل هو الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم حتى لفظوا الأنفاس جميعا.

وتلى السفاح فى الخلافة، بعهد منه، أخوه أبو جعفر عبد الله بن محمد المنصور، وهو المؤسس الفعلى للدولة العباسية. وقد افتتح خلافته بقتل عمه عبد الله بن على خوفا منه أن ينازعه الملك أو يشغب عليه فيه، ثم انقلب على أبى مسلم الخراسانى فقتله كذلك. ولما قال له هذا : استبقنى يا أمير المؤمنين لعدوك، قال المنصور : ... وأى عدو أعدى منك !؟

* * *

وخرج على أبى جعفر المنصور محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب وهو الملقب بالنفس الزكية فأرسل إليه المنصور كتابا يقول فيه «... إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ... ولك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله أن أؤمنك وجميع ولدك واخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم...» فلما وصل الكتاب إلى محمد (النفس الزكية) رد على المنصور بكتاب يقول فيه «طسم تلك آيات الكتاب المبين... وأنا أعرض عليك الأمان بمثل ماعرضت على... إن أبانا علياً كان الوصى وكان الإمام **فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء**، ثم قد علمت أنه لم يطلب الأمر أحد مثل نسبنا وشرفنا وحالنا... فلسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء، وليس يمت أحد من بنى هاشم بمثل الذى نمت به من القرابة والسابقة... أنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد لأنك أعطيتنى من الأمان والعهد ماأعطيته رجالا قبلى، فأى الأمانات تعطينى؟ أمان... عمك عبد الله بن علىّ أم أمان أبى مسلم!؟».

فرد المنصور بكتاب يقول فيه «.. بلغنى كلامك.. فإذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ولا كالعصبة والأولياء... وإنكم بنو بنته (الرسول) وإنها لقرابة قريبة ولكن لايجوز لها الميراث، ولاترث الولاية، ولايجوز لها الإمامة فكيف تورث بها.. لقد طلبها (الإمارة) أبوك بكل وجه فأخرج فاطمة نهارا ومرّضها سرا ودفنها ليلا فأبى الناس إلا الشيخان (أبو بكر وعمر)... (و) لقد علمت أن مكرمتنا فى الجاهلية سقاية الحاج الأعظم وولاية زمزم فصارت للعباس بين اخوته فنازعنا فيها أبوك فقضى لنا عليه عمر.. ولقد طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم فلم ينلها إلا ولده.. (و) ميراث النبى له والخلافة فى ولده.. (لقد) حزنا عليكم مكارم الآباء وورثنا دونكم خاتم الأنبياء..».

وهكذا يظهر بجلاء من تلك الكتب الثلاثة رأى العباسيين فى العلويين، ورأى العلويين فى العباسيين، كما يبين بوضوح أنهم جميعا يتكلمون عن الخلافة باعتبارها إرثا لهم وميراثا عن النبى، يتجادلون فيمن هو الأولى والأحق بالوراثة، كأنما هى عَرَضٌ مادى أو تركة مُخلَّفة؛ ولم يتكلم أحد منهم قط عن الخلافة باعتبارها حقٌّ الله أو حق الشعب، ولا بوصفها دفاعا عن الإسلام أو صيانة لجماعته أو ذودا عن شريعته. وتفاخروا كما تتفاخر القبائل الجاهلية، بالعصبية والعنجهية، بالجدود والآباء، ولم يتحدثوا أبدا عن قيم الدين أو أخلاق الإسلام أو مبادئ الشريعة.

وفكرة «ورث الخلافة» ومعنى اعتبار الخلفاء «خلفاء الله» هاتان اللتان بدأتا منذ بدأت الخلافة ذاتها، وتأكدتا مع إقامة الخلافة العباسية، صارتا أساسا لفكر المسلمين ونسيجا لوجدانهم، فشكلتا فهمهم ومباشرتهم لحقوقهم إزاء الخلافة، كما صاغت للخلافة فهمها وممارستها لحقوقها إزاء الأمة.

ففى الخلاف الذى كان قد حدث بين أبى جعفر المنصور وأبى مسلم الخراسانى كتب أبو داود (خليفة أبى مسلم فى الولاية على خراسان) رسالة إليه جاء فيها :«.. إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله فى أرضه..!»

وقال ابن هرمة الشاعر للمنصور :-

وما الناس اجتبوك بها ولكن .·. حباك بذلك الملك الجليل
تراث محمد لكم وكنتم .·. أصول الحق إذ تُفنى الأصول

وقال أبو العتاهية فى مدح المهدى :-

ولو رامها أحد غيره .·. لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب .·. لما قبل الله أعمالها

وقال ابن خفضة فى مدح الهادى عندما عقد له المهدى البيعة :-

ياابن الذى ورث النبى محمـدا .·. دون الأقارب من ذوى الأرحام

وقال الشاعر للهادى :-

أيا أمـين اللـه فى خلقـه .·. ووارث الكعبـة والمنبـر

وقال منصور النميرى فى مدح الرشيد :-

من لم يكن بأمـين الله معتصمـا .·. فليس بالصلوات الخمس ينتفـع

وقال أبو بكر ابن الخبازة فى مدح المتوكل :-

خليفـة ربى وابـن عـم نبيـه .·. وخير بنى العباس منهمو ولى

وعندما كتب أبو يوسف الفقيه المشهور تلميذ أبى حنيفة النعمان كتاب الخراج صدّره إلى هارون الرشيد بقوله «إن الله بمنّه ورحمته وعفوه جعل **ولاة الأمر خلفاء فى أرضه**، وجعل لهم نورا يضئ للرعية ماأظلم عليهم من الأمور فيما بينهم، وبين مااشتبه من الحقوق عليهم».

ففكرة «ورث الخلافة» ومعنى «خلفاء الله» قد رسّخا فى الوجدان الإسلامى ورسّبا فى العقل الإسلامى حصانة شديدة للخليفة واعتبارا حادا بأنه أخذها من الله وأنه يمثل الله لا الشعب، وبذلك كان فوق المساءلة بعيدا عن المحاسبة؛ واختلطت أسماؤه بصفات الجلالة كما صارت سلطاته هى حبل الله المتين.

قال المهدى وهو يوبّخ مسلما «.. أما منعتك **جلالة** أمير المؤمنين أن تفعل كذا وكذا..»

وقال أبو جعفر المنصور لولده فى كتابه الذى عهد إليه فيه بالخلافة «.. **السلطان حبل الله المتين وعروته الوثقى ودينه القيم**..»

وبهذه المعانى المائعة والعبارات المرسلة، اختلطت السياسة بالدين وامتزجت الشريعة بالحكم، واضطربت معانى السلطان بمعانى الجلالة، فلم يتضح مجال كلٍّ ولم يتحدد نطاق أىٍّ.

* * *

ولما ركن الخلفاء العباسيون إلى فكرة خلافة الله ووراثة النبى واستطابوا ألفاظ الجلالة واسترخوا فى معانى العصمة، فسدُوا وأفسدوا، فلم يعصمهم ضمير ولم ينههم خلق ولم يضبطهم معيار ولم يحدهم حد ولم يقفهم قانون ولم يعارضهم أحد، فلم يقيموا عدلا بل كانت العدالة هى مصلحتهم هم لا عدل الله، ولم يتبعوا استقامة بل كانت الاستقامة هى مشيئتهم هم لا استقامة الشريعة، ولا رعوا لله حقا بل كان الحق كل الحق مايريدون هم لا ما أمر به الله، ولاحفظو لله حقوقا بل كان الحق كل الحق مشيئتهم هم وما يرغبون فيه وما تشتهيه أنفسهم. والنتيجة المحتومة للدولة الشمولية الدكتاتورية التى استنام فيها واستراح لها كل الخلفاء العباسيين (عدا من لايحسب) أن تتدهور الخلافة ويتحلل نظام الحكم ويتخلف الشعب كله.

وهكذا دارت الدوائر على الخلفاء العباسيين فدالت دولتهم وضعفوا ووهنوا، وبعد أن كانوا يجمعون بين السلطتين الروحية والزمنية بدأ السلطان ينزع منهم شيئا فشيئا حتى صاروا ألعوبة فى يد الحكام ودمية فى عرف السلاطين؛ مما دعا المتوكل أن يضمن هذه المعانى بيتين من الشعر كان يتمثل بهما فيقول :-

أليس من العجائب أن مثلى ∴ يرى ما قل ممتنعا عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا ∴ وما من ذاك شئ فى يديه

بدأ نفوذ الموالى مع بداية الخلافة العباسية ذاتها، فقد قامت على أكتاف الفرس وصار لهؤلاء نفوذ واسع، خاصة بعد أن غالى المنصور فى استعمالهم فى كافة الولايات والمناصب. وفى عهد هارون الرشيد كانت أسرة البرامكة الفارسية هى التى تتحكم فى كل أجهزة الدولة. وفى عهد المعتصم مال إلى استعمال الترك حتى صارت لهم الغلبة فى عهد المتوكل، ثم قتلوه وعينوا ابنه المنتصر خليفة بدلا منه. ومن هذا الوقت صار الأمر فى أيدى الموالى (الترك ثم الفارسيين) يعينون الخلفاء ويخلعون الخلفاء الذين لحقت بهم مهانة بالغة.

من ذلك أن الموالى هم الذين عينوا المستعين بالله بن المنتصر ثم أمروه بعد ذلك أن يخلع نفسه من الخلافة.. وهكذا. ورشحت جارية اسمها «عَلَمْ» المستكفى بالله بدلا من المتقى وأصبحت قهرمانة له، فلماعُزل قتلت.

وفى عهد المعتمد على الله بن المتوكل انفصلت السلطة الزمنية - أى السلطان - عن السلطة الروحية - أى الخلافة، فكانت الخلافة للمعتمد بينما كان الملك والسلطان لأخيه الموفق ومن بعده لابنه أحمد المعتضد. وفوض الراضى أمر المملكة إلى الأمير محمد بن رائق وأصبح الحكم الفعلى للملوك، بينما صار الخلفاء ألاعيب ودمى يعينهم الملوك والقواد والخدم والنساء.

وصار دس السم للخلفاء قاعدة شبه مطردة، فكثير منهم عُرف أنه مات مسموما مثل المتوكل، وكثير منهم شكا أعراض التسمم قبل وفاته. وسُملت أعين الخليفة القاهر ثم الخليفة المتقى ثم الخليفة المستكفى، وأصبحت عادة سمل الأعين المأخوذة عن البيزنطيين ضمن تقاليد العصر العباسى.

وظهر الخليفة القاهر للناس وقد كف بصره وعليه جبة قد ذهب وجهها وبقى بها بعض قطن بطانتها وهو يرتدى «قبقابا» خشبيا ويتسول الناس اذ يقول لهم : ياأيها الناس تصدقوا علىّ، بالأمس كنت أمير المؤمنين وأنا اليوم من فقراء المسلمين.

وتولى بعد الترك بنو بويه، فاستمروا فى حكم الدولة من بغداد من ٣٣٤ - ٤٧٥ هـ (٩٤٥ - ١٠٥٥م) أى حوالى قرن من الزمان. وبنو بويه قواد مرتزقة من بلاد الجبل بفارس، زادت سلطتهم جدا منذ عهد المطيع لله بن المقتدر وكان منهم عضد الدولة (المتوفى سنة ٣٧٢هـ، ٩٨٢م) وهو أول من سُمىّ ملكا فى الإسلام ثم سمى نفسه شاهنشاه أى ملك الملوك (وهى تسمية تنافى العقيدة الإسلامية).

ومع الوقت انحط قدر الوزارة كما انحط شأن الخلافة من قبل، فاستصغر الناس الوزارة، وكان أولاد الوزير يأخذون الرشاوى لقضاء الحاجات.

* * *

وفي هذا الانحدار المزرى والانحطاط البالغ تقطعت أوصال الخلافة وتفككت أجهزة الدولة فصارت دويلات، وغلب على كل منطقة ملك أو أمير أو حاكم. ففى حوالى سنة ٣٣٤هـ - سنة ٩٣٥م كانت فارس والرى وأصبهان والجبل فى أيدى بنى بويه، وكرمان فى يد محمد بن الياس، والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مضر فى أيدى بنى حمدان، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج الإخشيدى، والمغرب وشمال أفريقيا فى يد الفاطميين، والأندلس فى أيدى ملوك الطوائف، وخراسان فى يد نصر بن أحمد الساسانى، والأهواز وواسط والبصرة فى يد البريديين، واليمامة والبحرين فى يد أبى طاهر القرمطى، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم؛ ولم يبق فى يد الخليفة ووزارته إلا بغداد وأعمالها.

ويشكو المؤرخ المسعودى من «ضعف الإسلام فى ذلك الوقت وذهابه، وظهور الروم على المسلمين، وفساد الحج، وعدم الجهاد، وانقطاع السبيل، وفساد الطريق...» ويضيف :«إنه لم يزل (يقصد : كان) الإسلام مستظهرا إلى هذا الوقت، فتداعت دعائمه وهى أسه».

ويضيف المؤرخ المقدسى عن بغداد عاصمة الخلافة فيقول «كانت أحسن شئ للمسلمين، وأجلّ بلد... حتى ضعف أمر الخلافة فاحتلت وخف أهلها. فأما المدينة فخراب، والجامع فيها يعمر فى الجمُع، ثم يتخللها بعد ذلك الخراب ... وهى كل يوم إلى وراء ... مع كثرة الفساد والجهل والفسق وجور السلطان».

* * *

واتصل الخليفة أبو جعفر المنصور بشرلمان ثم بـ «يبن» ملكى الفرنجة يستعديهما على عبد الرحمن الداخل الخليفة الأموى ويتواطأ معهما لإسقاطه. كما يقال إن الخليفة الناصر هو الذى دعا التتار إلى التدخل لحمايته، فلما دخلوا بغداد (١٤ صفر ٦٥٦هـ) دمروها وقتلوا الخليفة المستعصم شر قتلة، وقضوا على الخلافة العباسية فانتهى أمر الخلافة تماما، وظلت ديار الإسلام بلا خلافة مدة ثلاث سنوات ونصف حتى سنة ٦٥٩هـ - ١٢٦٠م، حين أعادها الظاهر بيبرس سلطان مصر (من المماليك الجراكسية أو المماليك البحرية) إذ أحضر له العربان شخصا أسود اسمه أحمد أبو القاسم وادعوا أنه من سلالة العباسيين فنصبه الظاهر بيبرس خليفة باسم المستنصر ونصب هذا الخليفة الظاهر بيبرس سلطانا، ومن ثم أصبحت القاهرة - بدلا من بغداد - مقر الخلافة العباسية.

وعندما ولى بعد المستنصر الخليفة الحاكم بالله (العباسى) قال فى أول خطبة له «... أيها

الناس اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام... والسلطان ركن الدنيا والدين...». وبهذا التقرير يكون الخليفة قد أشار إلى منصبه بلقب الإمامة لا الخلافة، وهو تعبير شيعى، كما أنه اعتبر الإمامة فرض من فروض الإسلام دون أن يذكر - أو يسأله أحد أو يناقشه فقيه - أى فرض هى ؟ وهل هى فرض أضيف إلى فروض الإسلام (أو أركانه) الخمسة لدى السنة فأصبحت الفروض ستة كما هى لدى الشيعة؟ أم أنه كان يستعمل التعبير على سبيل المجاز لشد أزر الخليفة والسلطان فى حروبهم ضد التتار وضد الفرنجة؟ أم أنه كان متأثرا فى استعمال اللفظ بحكم الشيعة الفاطميين لمصر فترة طويلة؟

ومع أن الخليفة أعلن أن الإمامة فرض من فروض الإسلام وأن السلطان ركن الدنيا والدين، فإن السلطان انقلب عليه وخشى منه فأسكنه بقلعة الجبل ومنعه من الاجتماع بأحد من أهل الدولة، ثم أسقط اسمه من سكة النقود وأبقاه على المنابر فقط.

وظلت الخلافة العباسية فى مصر حتى الغزو العثمانى ٩٢٣هـ - ١٥١٧م.

الفـــتن

كانت الخلافة الأموية - كما سلف البيان - عهدا للفتن والقلاقل. وكذلك، فإن الخلافة العباسية لم تكن عهدا ذا أمان وهدوء وسلام، بل اشتدت فيه الفتن وزادت القلاقل، وكانت هذه وتلك متتالية متلاحقة، تأتى من كل فج وتنتشر فى كل سماء.

فتن الحكم :

فور وفاة أبى العباس السفاح وولاية أبى جعفر المنصور دعا عمه عبد الله بن على إلى خلافته هو بدلا من المنصور، فقتله المنصور. ثم خرج أبو مسلم الخراسانى على المنصور فقتله كذلك.

ودست السم للخليفة المهدى جاريته حُسْنه.

وحاول الخليفة الهادى خلع ولاية العهد من هارون الرشيد ونقلها إلى ابنه هو، فأبى هذا؛ ثم قُتل الهادى بواسطة جوارى الخيزران أم هارون.

واستخلف هارون أولاده الأمين ثم المأمون ثم المعتصم وأخذ العهد على ذلك، فلما ولِّى الأمين حاول خلع المأمون من ولاية العهد وجعلها لابنه موسى، فثارت بينهما الحرب التى قُتل فيها الأمين.

وقبل أن يلى المأمون الخلافة كان فى خراسان فبُويع بها فى بغداد لعمه ابراهيم المهدى فلما دخل المأمون بجيوشه بغداد فر هذا هاربا حتى قبض عليه المأمون ثم تركه حيث اختلط بالمغنيين ولبس لباسهم حتى لايؤخذ بتهمة التطلع إلى المُلك.

ودعا العباس بن المأمون لنفسه بالخلافة فى خلافة عمه المعتصم.

وانقلب المنتصر بن المتوكل على أبيه الخليفة إلى أن قتله، وفى ذلك يقول البحترى :-

وكان ولى العهد أضمر غدره .·. فمن عجب أن ولى العهد غادره

فلا ملك الباقى تراث الذى مضى .·. ولا حملت ذلك الدعاء منابره

ثم قتل المنتصر طبيبه، بعد أن وضع السم على مشرط شرّطه به.

وبويع للمعتز بالخلافة فى عهد الخليفة المستعين، وأجبر المستعين على خلع نفسه، غير أن المعتز - مع ذلك - أرسل إلى المستعين من قتله وحمل إليه رأسه.

وأنهى إلى الخليفة المعتز أن أخاه المؤيد يتآمر عليه فحبسه هو وشقيقه أبا أحمد، ولما نمى إليه أن البعض يجتمعون بالمؤيد فى محبسه أدرجه فى لحاف مسموم وشد طرفاه حتى مات.

وكانت للخليفة المعتضد مظالم كثيرة، كما كان كغيره سفاكا للدماء والغًا فى الآلام فدس له السم شخص (يدعى اسماعيل بن بلبل)، وقيل إن جارية له سمته بمنديل.

وهكذا لم تقف فتن الملك ولم تنته حتى انتهت الخلافة ذاتها.

فتن الناس :

سنة ١٣٣هـ وفى عهد أبى العباس السفاح خرج عليه بعض من كان من عمال الأمويين وكان أشدهم أبو الورد مجزه بن الكوثر بن زفر بن الحرث الكلابى - وكان من أصحاب آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد - وانضم إليه كثيرون من أهل قنسرين وأهل حمص وتدمر ومعهم أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية الذى قالوا عنه إنه السفيانى (أى المهدى المنتظر من ولد أبى سفيان) وسير السفاح عمه عبد الله بن على فهزمهم.

وبعد أن قُتل أبو مسلم الخراسانى - فى خلافة أبى جعفر المنصور - خرج من أهل خراسان عدد غفير من الناس بقيادة شخص يدعى سنباد، أرادوا الثأر لأبى مسلم، وكان عامّتهم من أهل الجبال فساروا إلى نيسابور وغلبوا عليها وعلى قومس والرى وقتلوا وسبّوا الكثيرين، فسير إليهم المنصور جيشا، ولما أوشك هذا الجيش على النصر أمر سنباد فحُملت السبايا من النساء المسلمات على الجمال وهن يصحن وامحمداه! ذهب الإسلام! غير أن المعركة انتهت بهزيمة سنباد.

وفى خلافة المنصور كذلك خرجت عليه الراوندية، وهم قوم من خراسان على مذهب أبى مسلم كانوا يقولون بالتناسخ ويزعمون أن روح آدم حلت فى شخص يدعى عثمان بن نهيك وأن الخليفة أبى جعفر المنصور هو ربهم الذى يقيتهم! وحدثت منهم فتنة شديدة، وحاربهم المنصور حتى استأصلهم وقطع دابرهم.

ثم ظهر - فى ذات العهد - رجل من خراسان اسمه استاذسيس ادعى النبوة وآمن به حوالى ثلثمائة ألف مقاتل. وقد حاربهم المنصور حتى أسر استاذسيس وبنوه وتفرق الباقون. ويقال إن استاذسيس هذا هو أبو مراجل أم المأمون وأن ابنه غالب هو خال المأمون.

وفى عهد المهدى ظهر الزنادقة بحلب فوجه إليهم ابنه الرشيد لحربهم. وفى هذا الوقت ظهر رجل اسمه يوسف ادعى الولاية واستغوى كثيرا من الناس، كما ادّعى النبوة شخص يدعى يوشيا فحورب حتى قُتل وصُلب. وظهر شخص يدعى عطاء ويُلقب بالمقنّع الخراسانى، قيل إنه خيل للناس صورة قمر يطلع فيروه على بعد شاسع، ومازال به المهدى حتى قتله.

وفى عهد الرشيد (سنة ١٧٥هـ) قامت فتنة كبيرة فى دمشق بين المُضرية واليمانية. وفى هذا العهد خرج رافع بن الليث فيما وراء النهر بسمرقند.

وفى عهد المأمون استقل عبد الله بن سرى بحكم مصر حتى حاربه المأمون، كما استولى قوم من الأندلس على الاسكندرية.

وفى عهد الواثق خرج عليه الفقيه أحمد بن نصر وبايعه خلق كثير على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفرقوا الأموال فى الناس دينارا لكل واحد، فأرسل الواثق من قبض عليه ثم قام إليه بالسيف فقتله بنفسه.

وفى خلافة المتوكل قامت فتنة بين البجاة أهل النوبة وأهل مصر. وخرج جند المتوكل عليه وشقوا عليه عصا الطاعة لولا أن وُجِّهوا إلى الحرب بخدعة.

وفى عهد جعفر المهتدى بالله قامت حرب بين الترك الذين كانوا يعادونه والمغاربة الذين كانوا يوالونه. واشتد ساعد الترك وتغلبوا على المغاربة وقبضوا على الخليفة وسلموه إلى رجل فوطئ (أى اعتصر) مذاكيره حتى قتله. وقيل مات بالخناجر، وقيل إنه جُعل بين لوحين عظيمين وشد بالحبال إلى أن مات. وقيل قُتل خنقا كُبس عليه بالبسط والوسائد حتى مات.

وقامت فى خلافة المقتدر فتنة الحنابلة؛ ذلك أن جماعة الحنابلة قويت شوكتهم وعظمت عصابتهم فجعلوا يبالغون فى اظهار عقيدتهم ويسوقون الناس كرها إلى احترام شيعتهم والعمل بقولهم، فكانوا يكبسون دور العامة وقواد الجند، فإن وجدوا نبيذا أراقوه وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء. واعترضوا الناس فى بيعهم وشرائهم، ومنعوا مشى الرجال مع النساء والصبيان فإذا رأوا أحدا من الناس مع امرأة أو صبى سألوه عن الذى معه من هو فإما أن يخبرهم وإلا ضربوه. وخرجوا يوما على صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة وكادوا يبطشون به جهارا فاضطربت بغداد من فعالهم وضج الناس، فأمر صاحب الشرطة (واسمه بدر الخرشتى) بأن لايجتمع من الحنابلة اثنان ولايناظرون فى مذهبهم ولايصلى منهم إمام، فلم يفد ذلك فيهم، وزاد شرهم وكثر تعرضهم للناس وعظمت فتنتهم واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون المساجد، وكان إذا مر بهم شافعى المذهب أغروا به العميان فيقومون عليه ويضربونه. وخاف الخليفة شر العاقبة وأصدر فيهم كتابا ينكر عليه فعلهم ويقبح أعمالهم إلى أن انتهوا.

وفى ذات العهد قامت حرب بين السنة والشيعة، فكانت كأنها حرب دينية سفكت بينهم الدماء وأحرقت الدور وزال الأمن وكثر السلب والنهب فى الليل والنهار واشتد البلاء وعظمت الفتنة ومازالت نارها تتأجج فترة طويلة.

ثورات الخوارج :

وطوال العصر العباسى كان الخوارج يعادون الخلافة ويرون أن الخلفاء العباسيين شأنهم شأن خلفاء بنى أمية كلهم لايصلح للخلافة، ولم يتم اختياره باختيار صريح من جماعة المسلمين، ولم يستوف الشروط التى يجب توافرها فى الإمام، وأنه يجب الخروج عليهم جميعا، ومقاتلة كل خليفة وعزله إن أمكن، وقتله إن كان ثمة سبيل إلى ذلك.

وفى عصر السفاح تحركوا فى عمان، وكانوا من الخوارج الإباضية، وقاتلهم السفاح قتالا شديدا، كانت الحرب فيه سجالا حتى أضرم جيش الخليفة النار فى بيوتهم فأشتعلت بما فيها ومن فيها من أولادهم وأهاليهم، ومن ثم وضعوا السيوف فقُتلوا.

وفى عهد المنصور ثار الخوارج بالجزيرة - القسم الشمالى بين دجلة والفرات - فأرسل إليهم جيشا هزمهم.

وثار الخوارج كذلك فى المغرب، من صفيريه وإباضية، فحاربهم المنصور مدة خمس عشرة سنة حتى انقضى أمرهم.

وفى عهد المهدى خرجت جماعة منهم بخراسان فقتلهم المهدى وصلبهم، كما خرج بالموصل رجل يدعى يس التميمى واستولى على أكثر ديار ربيعة والجزيرة فبعث إليه المهدى من قتله.

وفى عهد الرشيد خرج الصحصح بالجزيرة وغلب على ديار ربيعة فسيرّ الرشيد إليه من قتله.

وفى ذات العهد كانت ثورة الوليد بن طريف الخارجى بالجزيرة، وعظم أمره حتى هُزم جيشه بعد وقائع عنيفة وقُتل.

وفى عهد المتوكل خرج كثير من الخوارج، وكانت ثمّ حروب هائلة وكروب مستمرة.

ثورة الزنج :

فى عهد الخليفة المتوكل بن المعتصم بالله ثار العبيد السود فى بغداد والقسم الأسفل من العراق بزعامة على بن محمد بن عيسى المعروف بالبرقعى وبمعاونة القرامطة. وكانت للثورة نزعة تحريرية للعبيد واتجاه اشتراكى لعله أخذ عن القرامطة. ولم تخمد ثورة الزنج إلا بعد جهد جهيد وخراب كثير ودمار شديد.

وفى سنة ٢٥٧هـ اكتسح الزنج مدينة البصرة عنوة وأتوا فيها من صنوف القسوة والبربرية مايفوق الوصف شناعة ووحشية.

وفى فعالهم يقدم ابن الرومى صورة تُغنى عن أى وصف، فيقول :-

بينما أهلها بأحسن حال .·. إذ رماهم عبيدهم باصطلام

دخلوها كأنهم قطع الليل .·. إذ راح مدلهم الظلام

أى هول رأوا بها! أى هـــول .·. حق منه يشيـب رأس الغـلام
إذ رموهم بنارهـم عـن يميـن .·. وشمـــال وخلفهـــم وأمـــام
كم أغصّوا من شارب بشـراب .·. كم أغصّوا من طاعـم بطعـام
أين ضوضاء ذلك الخلق فيـها .·. أيـن أسواقهـا ذوات الزحـام
رب قـوم باتـوا بأجمـع شمــل .·. تركـوا شملهـم بغيـر نظـام

ثورات الشيعة :

ظل الشيعة يقومون بالثورات، ثورة إثر ثورة؛ ويخرجون على الخلفاء، مرة بعد مرة، طوال عهد الخلافة العباسية، وهم يرجون لأنفسهم الخلافة.

فقد سلف بيان خروج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب على أبى جعفر المنصور. وقد كان مع محمد هذا (الملقب محمد المهدى أو النفس الزكية) أخوه ابراهيم، كما أنه كان قد أرسل ابنه عليًا إلى مصر يدعو إليه الناس فقبض عليه عامل مصر وأرسله إلى المنصور فاعترف له وأخبره بأسماء أصحاب أبيه، فأمر به فحبسوه وظل محبوسا حتى توفى المنصور.

وذهب محمد (النفس الزكية) إلى المدينة واستولى عليها وخطب الناس فقال لهم «قد كان من أمر هذا الطاغية عدو الله (أبو جعفر) مالم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندا لله فى ملكه وتصغيرا للكعبة الحرام.. اللهم إنهم لأحلوا حرامك وحرموا حلالك وأمّنوا من أخفْت وأخافوا من أمّنت..». وظل به المنصور إلى أن قتله ثم صلب عاملُه (عيسى بن موسى) أصحاب محمد (النفس الزكية) مابين ثنية الوداع إلى دار عمر بن عبد العزيز صفّين، وبقوا على هذه الحال أياما ثلاثة؛ ثم أنزلوا فألقيت جثثهم على مقابر اليهود ثم بعد ذلك فى خندق فى «أصل ذباب».

وبعد سنة من ولاية موسى الهادى ظهر الحسين بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب بالمدينة فبويع له بالخلافة، وهزم هو وأتباعه أتباع والى المدينة (عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب) فى المسجد وانتهبوا بيت المال وكان فيه بضعة عشر ألف دينار وقيل سبعون ألفا. ثم ذهب الحسين إلى مكة ودعا إلى تحرير العبيد التى تلحق به فأتاه العبيد؛ غيْر أن الهادى سيّر إليه جيشا فهزمه وقتله، وأفلت من المنهزمين إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على فهرب إلى مصر ثم إلى أرض المغرب. وفى عهد الرشيد أغْوى الشماخ اليمامى وهو أحد شيعة إدريس فوضع السم لادريس وقتله.

وفى أيام المستعين ظهر بالكوفة يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن على بن أبى طالب فسيّر إليه الخليفة من قتله. ثم ظهر بالرى - فى ذات العهد - أحمد بن عيسى بن على بن

الحسين بن على بن أبى طالب ودعا إلى الرضا من آل محمد غير أنه انهزم، ولم تكد تسكن الفتنة حتى ظهر بقزوين الحسن بن اسماعيل بن أحمد بن عبد الله بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب فسير إليه الخليفة جيشا هزمه وقتله.

وهكذا ظلت الحرب سجالا، ظاهرة وخفية، ساكنة ومحتدمة، بين العباسيين والعلويين، طوال الخلافة العباسية. وكان العباسيون أشد قسوة على العلويين من الأمويين أنفسهم لأنهم كانوا يعرفون دخائلهم وأساليبهم منذ أن كانوا يعملون سويا فى العهد الأموى. وقد اشتدت شكوى العلويين من العباسيين حتى ترحّموا على أيام بنى أمية. وفى ذلك يقول الشاعر :-

ياليت جور بنى مروان عاد لنا .·. ياليت عدل بنى العباس فى النار

وقد بكى الإمام الشيعى محمد بن عبد الله بن حسن وقال : لقد نقمنا على بنى أمية مانقمنا، فما بنو العباس إلا أقل خوفا لله منهم، وإن الحجة على بنى العباس لأوجب منا عليهم. ولقد كان للقوم (بنى أمية) أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبى جعفر (المنصور).

وكان نصيب العلويين فى كل ثوراتهم الفشل والقتل والتنكيل حتى صارت أعيادهم أحزانا وضحكاتهم أنّات وابتساماتهم دموعا.

وفى ذلك يقول ابن الرومى :-

لكل أوان للنبى محمد .·. قتيل زكى بالدماء مضرج

وقد كان السجال بين العباسيين والعلويين يقوم أساسا على أحقية كل منهم بخلافة النّبى ووراثة الملك؛ فلا يتصل بالإيمان ولا بأساس الدين ولابتطبيق الشريعة ولابحقوق المسلمين ولا بأموال المؤمنين. وتركز هذا الخلاف على السلطة فى مساجلات شعرية كان الفرقاء يتداولونها من بعد الشاعر.

قال مروان بن حفصة وهو يمدح المهدى عندما عقد البيعة لابنه الهادى :-

ياابن الذى ورث النبى محمدا .·. دون الأقارب من ذوى الأرحام

الوحى بين بنى البنات وبينكم .·. قطع الخصام فلات حين خصام

ماللنساء مع الرجال فريضة .·. نزلت بذلك سورة الأنعام

أنّى يكون وليس ذاك بكائن .·. لبنى البنات وراثة الأعمام

وأغاظ البيت الأخير العلويين جدا فردوا عليه بقولهم :-

لم لايكون وإن ذاك لكائن .·. لبنى البنات وراثة الأعمام

للبنت نصف كامل من ماله .·. والعم متروك بغير سهام

ما للطليق وللتراث وإنما .·. صلى الطليق مخافة الصمصام[٢]

وقيل إن صالح بن عطية (وهو شيعى) لما سمع البيت الأخير من قصيدة مروان بن حفصة

عاهد الله أن يقتله، ثم تقرب إليه حتى أنس إليه مروان، ومازال صالح يتحين الفرصة حتى واتته فاغتال مروان.

ثورة القرامطة :

القرامطة فرقة باطنية من الاسماعيلية الشيعة، وهم أصحاب دعوة انتشرت فى بعض البلاد الاسلامية سنة ٩٠١م، وزعزعت أركان العالم الإسلامى ولم ينته أمرها إلا عندما اصطدمت بالحملات الصليبية. وقد انتشرت الدعوة فى اليمن برياسة حمدان القرميطى (أى أحمر العينين) حينما بعث ميمون القداح الكوفى الشيعى - وكان داعية لولده عبيد الله المهدى جد الفاطميين - باثنين من الدعاة إلى اليمن سنة ٩٠٤م هما على بن الفضل الحميرى اليمنى الأصل ومنصور بن حسن الكوفى للدعوة لعبيد الله. ونجح على بن الفضل نجاحا كبيرا واستولى على ذمار وصنعاء سنة ٩٠٦م وتغلب على جيوش الخليفة الهادى. وقامت فى اليمن فتن وحروب كثيرة واستباح أتباع على بن الفضل كثيرا من الحرمات. وذكر بعض مؤرخى اليمن أنه ادعى النبوة وكان اسمه يُذكر فى الصلاة. وهدأت الحال بعض الشئ عندما مات مسموما سنة ٩١٥م بيد أحد الأشراف الذى كان قد دُس عليه. وبموته انتهى أمر دولة القرامطة فى اليمن.

أما زميله منصور بن حسن فقد تغلب على جزء من بلاد اليمن وجعل مركز دعوته فى بلدة فيه. وظلت دعوة القرامطة مستمرة بمبادئها فى بعض أنحاء اليمن حتى وقت قريب. ويعرف اتباعها باسم المكارمة أو الباطنية.

وقد قطع القرامطة الطريق بين مكة والشرق. وفى سنة ٩٢٨م (٣١٦هـ) شنوا غارات متفرقة تقوم بها العصابات من صحراء الشام إلى جبل سنجار، وخربوا الشام تخريبا شديدا، ثم امتدت غاراتهم ففتحوا البصرة والكوفة وأعملوا فيها النهب وألقوا الرعب فى كل مكان. وفى سنة ٩٢٩م (سنة ٣١٧هـ) اقتحموا برياسة أبى طاهر القرمطى مكة ونهبوا أموال الحجاج وقتلوهم حتى فى المسجد الحرام وفى البيت نفسه، وقلعوا باب البيت كما قلعوا الحجر الأسود وأنفذوه إلى هجر، واقتسموا كسوة الكعبة بينهم ونهبوا دور أهل مكة. وبينما شارك بعض أهل مكة المغيرين فى نهب البلد الحرام فقد نهض لمقاومتهم البدو الأعراب الذين يقيمون خارج مكة. وفى سنة ٩٣٨م (سنة ٣٢٧هـ) كتب أبو على عمر بن يحيى العلوى إلى القرامطة كتابا فقبلوا عدم الإغارة على الحجاج. وفى سنة ٩٥٠م (سنة ٣٣٩هـ) ردوا الحجر الأسود إلى مكة.

على أن أعمال القرامطة الظاهرة، على قسوتها وفظاعتها، لاتماثل دعواهم بانتهاء الشريعة الإسلامية وانتهاء الدعوة المحمدية، وحلول نبى آخر منهم ودعوة جديدة بدلا منها، وهو الأمر الذى عبر عنه الشاعر فقال وهو على المنبر ببلدة «الجند» :-

خذى الدفّ ياهذه والعبــى .·. وغنى هزازيك ثم اطربى

تولــى نبّى بنى هاشــــــم .·. وهذا نبّى بنى يعــــرب

لكـل نبـى مضــى شـــرعـة .·. وهذى شـرائع هذا النبـى

فقد حط عنا فروض الصـــلاة .·. وحط الصيـام ولم يُتعـب

فلا تطلبى السعى عند الصـفا .·. ولا زورة القـبر فى يثـرب

الحشاشـون:

وهى فرقة شيعية اسماعيلية سرية دعت إلى إمامة نزار بن المستنصر (الخليفة الفاطمى). وقد أسسها حسن الصّباح الذى انضم وهو حدث إلى الدعوة الفاطمية ووفد على مصر فى خلافة المستنصر الفاطمى (١٠٣٥ - ١٠٩٤م) وانضم فيها إلى مؤيدى إمامة نزار، ثم عاد إلى إيران وبث دعوته فالتف حوله كثيرون واستطاع أن يستولى على قلعة ألمْوت الجبلية الحصينة وجعلها مقرا لدعوته، ووجه اهتمامه إلى الاستيلاء على قلاع أخرى وإلى التخلص من أعدائه بالاغتيال، فكان ممن قضى عليهم الحشاشون الوزير السلجوقى نظام الملك (١٠٩٢م). وقد ساعد الحشاشين على تقوية صفوفهم وتوسيع نطاق دعوتهم ضعفُ الخلافة العباسية ونزاعات السلاجقة على العرش وانقسام العالم الإسلامى على نفسه وقيام الحروب الصليبية. وقد تميزوا بتنظيم دقيق وباتخاذ الاغتيال أداة يتخلصون بها من أعدائهم. واتسع نطاق الدعوة حتى شمال الشام. وفى سنة ١٢٥٦م هاجم هولاكوخان التترى قلعة ألموت وقضى على الحشاشين بفارس. ثم قضى عليهم فى الشام السلطان الظاهر بيبرس المملوكى سنة ١٢٧١م، ولم تبق منهم إلا فرق متفرقة فى سوريا وإيران والهند.

الحــروب:

فى عهد الخلافة العباسية قامت حروب كثيرة مع ملوك الروم انتهت بالحروب الصليبية التى استمرت قرنين من الزمان (سنة ١٠٩٥م - سنة ١٢٩١م). وقد كان لهذه الحروب أثر شديد، وبعيد على النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى العالم الإسلامى كله، ولعل هذه الآثار مازالت ممتدة حتى العصر الحالى.

هذا فضلا عن حروب التتار التى هاجمت بغداد برياسة هولاكو التترى ودمرت بغداد وقضت عليها (سنة ١٢٥٨م - ٦٥٦هـ) وقتلت الخليفة المستعصم بالله، وقتلت أهلها طائفة بعد طائفة، وجماعة إثر جماعة، ولم يسلم إلا من كان صغيرا فأُخذ أسيرا، ودام القتل والنهب فى بغداد نحو أربعين يوما ثم نودى بالأمان. واتجه التتار بعد بغداد إلى الشام ومصر ولم يقفهم إلا الجيش المصرى بقيادة سيف الدين قطز (الملقب بالملك المظفر).

وكانت مدة الخلافة حتى تدمير بغداد ٥٢٤ سنة حكم فيها ٣٧ خليفة.

الاستبداد

كان كثير من الخلفاء العباسيين شبانا غير مستقرى الشخصية ولامتوازنى النفس ولاهادئى الطبع فزلزلتهم السلطة المطلقة وأفسدهم التقديس المبالغ فيه، ومن ثم صاروا إلى اتجاهات غير سوية وإلى طباع دموية متطرفة؛ فكان الاستبداد والبطش والعنف والقتل أسرع إلى نفوسهم من أى شئ آخر، وكانوا يتسمون بالتطرف الشديد فى التدين الظاهر والتطرف الشديد فى العدوان السريع. وامتزج التطرفان معا ليقدما نماذج غريبة للحكام الذين يضحكون ويبكون فى آن واحد، ويتعبدون ويظلمون فى لحظة واحدة.

فأبو العباس السفاح وُلّى الخلافة أربع سنوات وثمانية أشهر تقريبا ، وتوفى وعمره ثلاثة وثلاثون عاما (على الأرجح).

ومحمد المهدى ولى الخلافة عشر سنوات وشهرا، وتوفى وعمره اثنان وأربعون عاما (أو ثلاثة وأربعون)؛

ومُوسى الهادى وُلّى الخلافة سنة وثلاثا أشهر، وتوفى وعمره ستا وعشرون سنة (أو ثلاثة وعشرون)؛

وهارون الرشيد وُلّى الخلافة ثلاثة وعشرين سنة تقريبا، وتوفى وعمره سبع وأربعون سنة (أو خمس وأربعون)؛

ومحمد الأمين وُلّى الخلافة أربع سنين وثمانية شهور، وقتل وعمره ثمانية وعشرون عاما؛
والواثق بالله وُلّى الخلافة خمس سنوات وتسعة أشهر، وتوفى وعمره ست وثلاثون سنة تقريبا؛
والمتوكل على الله وُلّى الخلافة أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام، وتوفى وعمره أربعون سـنة؛

والمنتصر بالله ولى الخلافة ستة أشهر ، وتوفى وعمره ست وعشرون سنة تقريبا .. وهكذا؛

ويتركز إدراك هؤلاء الخلفاء - وغيرهم - للاستبداد فى بيتين من الشعر دسهما خصوم البرامكة على الرشيد فغنتهما مغنية له ومن ثم حركا فيه نزعاته الدفينة فنكبهم. ويقول البيتان:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعـد .·. وشفت أنفسنا مما تجـد
واسـتبدت مـرة واحـــدة .·. إنما العاجز من لايستبد

فالاستبداد ضرورة وإلا كان المرء عاجزا ، ولاسبيل لتوقى العجز إلا بالاستبداد، لا بالصبر ولا بالحلم ولا بالأناة ولابغيرها. والاستبداد لابد أن يكون مرة واحدة أى بطشا سريعا بلا رحمة وعنفا حاسمًا كالقضاء المبرم.

وقد سلف بيان، ما أحدثه أبو العباس السفاح فى قبور الخلفاء الأمويين، وما فعله مع من تبقى منهم رغم أنه كان قد أعطاهم الأمان.

وأبو مسلم الخراسانى - منشىء الدولة العباسية بسيوفه وسيوف جيوشه - كان طاغية داهية جبارا. خطب يوما فقام إليه رجل وقال له : ماهذا السواد الذى أرى عليك. فقال أبو مسلم على الفور : حدثنى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله أن النبى (صى الله عليه وسلم) دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء. وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة. ثم التفت إلى غلامه وقال : ياغلام اضرب عنقه، فضرب السياف عنقه فأطاحها. وقيل إن أبا مسلم قتل فى أيام ولايته ستمائة ألف نفس صبْرا، عدا من قُتل فى الحروب.

وأبو جعفر المنصور كان مستبدا ظالما باطشا قتلت جيوشه العلويين الخارجين عليه ومنهم عيسى بن زيد - وهو الذى كان دعاة العباسية أنفسهم يدعون له قبل انشاء خلافتهم - فطيف برأسه فى طبق أبيض بالمدينة.

وقال رجل للمنصور «لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو». فقال المنصور : لأن بنى مروان لم تبل رممهم، وآل أبى طالب لم تغمد سيوفهم، ونحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة واليوم خلفاء، فليست تتمهد لهيبتنا فى صدورهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة. واستنصح المنصور عمرو بن عبيد (المعتزلى) فقال له : إنه ماعُمل وراء بابك بشئ من كتاب الله ولا سنّة نبيه... ببابك ألف مظلمة، أردد منها شيئا نعلم أنك صادق. ووشى إلى المنصور برجل اسمه الفضيل بن عمران كان قد عينه كاتب وولى أمر ابنه جعفر؛ فقيل للمنصور إن الفضيل يعبث بجعفر ابنه، فبعث المنصور برجلين وأمرهما أن يقتلا الفضيل حيث وجداه، فضربا عنقه. وقيل للمنصور : إن الفضيل كان أبرأ الناس مما رُمى به، وقد عجلت عليه! فوجه رسولا وجعل له عشرة آلاف درهم إن أدركه قبل أن يُقتل، فقدم الرسول قبل أن يجف دمه. واستنكر الأمر جعفر بن المنصور وقال لمولاه سويد «مايقول أمير المؤمنين فى قتل رجل عفيف ديّن مسلم بلا جرم ولاجناية» فقال سويد : هو أمير المؤمنين يفعل مايشاء وهو أعلم بما يصنع. (١١١)

وكان المهدى مولعا باللهو ويأذن بالشراب فى حضرته فنهاه عن ذلك وزيره يعقوب بن داود طهمان فألقاه فى السجن. وغضب بشار بن برد من يعقوب الوزير فقال :

بنى أمية هبوا طال نومكم .·. إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا .·. خليفة الله بين الزق والعود

فقتل المهدى بشارا لقوله هذين البيتين بعد أن اتهمه بالزندقة، وكأنه لم يتزندق قبلهما !!

واستدعى المهدى معاوية بن يسار ومعه ابنه الذى اتهم بالزندقة فسأله تلاوة بعض آيات القرآن فلم يتمكن، فقال المهدى لوالده : قم فتقرب إلى الله بدمه، فتعثر الأب ووقع وارتعد، فأمر المهدى بعض الحضور بقتل الولد فقُتل أمام والده.

ووقع بشر بن الليث أسيرا للرشيد فقال له : والله لو لم يبق من أجلى إلا أن أحرك شفتى بكلمة لقلت : اقتلوه. ثم أمر قصابا ففصل أعضاءه ومثل به تمثيلا.

وقبض الرشيد على يحى بن عبد الله (أخو النفس الزكية) بعد أن أعطاه العهد، ثم استفتى الرشيد العلماء فى نقض العهد فوافقه بعض الفقهاء، ومنهم محمد بن الحسن الشيبانى (تلميذ أبى حنيفة) فحبس الرشيد يحيى.

وقبض على الإمام محمد بن إدريس الشافعى ضمن عشرة حُشروا إلى الرشيد لاتهامهم بالتشيع فقتلهم الرشيد واحدا بعد واحد. ولما وصل للتاسع كان غلاما انكر التهمة وقال للرشيد : إن كان لابد من ضرب عنقى فأنظرنى أكتب إلى أمى بالمدينة فهى عجوز لم تعرف بخبرى، فرفض الرشيد هذا المطلب البسيط (الإنسانى!!) وأمر بضرب عنقه. ولم يعف الرشيد عن الإمام الشافعى إلا بعد أن شهد له الفقيه محمد بن الحسن الشيبانى، وبعد أن قال هو للرشيد : ياأمير المؤمنين : أأدع من يقول أنى ابن عمه إلى من يقول إنى عبده؟ قصد من ذلك أن العباسيين يقولون انهم أبناء عم لبنى قريش بينما يقول بنو عبد المطلب (كما قال حمزة) إنهم عبيد لهم.

وكان هارون الرشيد قد رضع فى طفولته من زوج يحيى بن خالد البرمكى (الفارسى) فصار ابنا لها بالرضاع، وأخا فى الرضاع لولديها جعفر والفضل. وتوطدت العلاقة - فيما بعد - بينه وبين جعفر حتى كانا يتلازمان دائما ويدخلان فى ثوب واحد فانطلقت ألسن العامة فى حقهما. وولى الرشيد آل البرامكة الوزارة وترك لهم أمر تدبير المملكة، وولى جعفرا على مصر ثم خراسان. وكانت العباسة أخت الرشيد تحضر سهراته الماجنة فعقد زواجها على جعفر البرمكى ليحلل حضورهما معا سهراته الليلية، على ألا يدخلا ببعضهما. وعلم الرشيد بعد فترة أن الزواج الذى قصد أن يكون نظريا غير عملى قد انتهى إلى مالا يرغب فقامت علاقة زوجية بين الزوجين - من وراء ظهره - أثمرت ولدا نجيبا. وغضب الرشيد غضبا شديدا من ذلك، ودس عليه أعداء البرامكة من استثار عواطفه الملتهبة وميوله الاستبدادية فغنت له جارية بيتى الشعر السالف بيانهما :-

ليت هندا أنجزتنا ماتعـد .·. وشفت أنفـسنا مما تجـد

واسـتبدت مـرة واحـدة .·. إنما العـاجز من لايسـتبد

وثارت مشاعر الرشيد الجريحة وانطلقت اتجاهاته الدموية فقتل جعفرا، وزج فى السجن بأبيه يحى وأخيه الفضل وصادر أموالهم جميعا. ورفض أى شفاعة فيهم حتى من ظئره (أمه فى الرضاع). ووضع الرشيد رأس جعفر على جسر وجثته على جسر آخر، وكان كلما شاهد الجثة بكى، وظل كذلك حتى أمر بإحراق الجثة. واستدعى الرشيد ابن جعفر والعباسة وحادثه فأعجب بنجابته ثم أمر بقتله. ولم يطق الرشيد بعد نكبة البرامكة أن يقيم فى بغداد فبارحها إلى الرقة ثم خراسان.

ويقول بعض المؤرخين إن الرشيد نكب البرامكة لسيطرتهم وعلو مكانتهم ولأنه كان يطلب،

القليل فلا يجده؛ وهو تعليل واه لايصمد للتحليل السليم. فلو صح ذلك لكان من الأيسر والطبيعى أن يعزل الرشيد البرامكة دون أن ينكبهم، أو أن ينكبهم دون قتل لجعفر بالذات ثم لابنه من بعده (وهو ابن أخته) والبكاء كلما شاهد جثة جعفر. والذى يفسر هذه الواقعة الشنعاء أنها كانت نتيجة عاطفة مريضة جياشة فجعت وطعنت فأرادت الانتقام وهى تملك الرقاب والأموال بكلمة، فانتقمت انتقام المحب المفجوع والعاشق الجريح!

وفى عهد المأمون قال أحمد بن أبى خالد عندما عُرضت عليه الوزارة «لم أر أحدا تعرض للوزارة وسلمت حاله!».

وغضب المأمون يوما على شاعر فأمر به فأخرجوا لسانه من قذاله (قفاه).

وكان للمأمون قائد يدعى على بن هشام له جارية اسمها «متيم» اشتد عشقه لها لحسنها وجودة غنائها، فتلطف المأمون ذات ليلة إلى ابن هشام وطلب إليه أن يحضرها إلى قصره. ليسمعها، فأحضرها ابن هشام، ولما سمعها المأمون طرب لها طربا شديدا وحلت من قلبه محلا رفيعا فسأل ابن هشام أن يهبها له فتجاهل هذا سؤال الخليفة وعاد بجاريته مسرعا إلى داره؛ واستشار فى الأمر من أشار عليه بأن تحمل منه «متيم» لأن المأمون لايحب الجوارى ذوات الأولاد ففعل ابن هشام. وأسرها المأمون فى نفسه وطغت عليه دمويته فأمر بقتل على بن هشام متذرعا بأمور لفقها له تلفيقا، ثم أمر بمصادرة أملاكه وأمواله، كما أمر بتخريب واحراق القصر الذى عاش فيه مع «متيم».

ودعى محمد بن الحرث إلى الواثق فى يوم لم يكن يدعى فيه فقال «دخلنى فزع شديد وخفت أن يكون ساع قد سعى بى أو بلية قد حدثت فى رأى الخليفة علىّ...» غير أن الواثق أمره بالغناء ثم طرب فأمر له بعشرة آلاف درهم وتخوت.

وقتل الواثق بنفسه - فى مجلسه - أحمد بن نصر لأنه لم يكن يقول بخلق القرآن.

وأمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن على وهدم ماحوله من المنازل والدور وأن يبذر ويسقى موضع القبر وأن يمنع الناس من اتيانه، ولم يبق للقبر أثر.

وكان المعتضد إذا غضب على القائد النبيل الذى يختصه من رجاله أمر أن تحفر له حفرة ثم يدلى على رأسه ويطرح التراب عليه ونصفه الأسفل ظاهر على التراب ويداس التراب فلا يزال كذلك حتى تخرج روحه (من دبره، كما كانوا يظنون!) وذكر من عذاب المعتضد أنه كان يأخذ الرجل فيكتف ويقيد ويؤخذ القطن فيحشى فى أذنه وخيشومه وفمه وتوضع المنافخ فى دبره حتى ينتفخ ويعظم جسده ثم تسد دبره بشئ من القطن ثم يفصد - وقد صار كالجمل العظيم - من العرقين الموجودين فوق الحاجبين فيموت. وربما كان يوضع الرجل فى أعلى السطح مجردا وموثقا ويرمى بالنشاب حتى يموت. واتخذ المعتضد المطامير وجعل فيها أصناف العذاب، وجعل عليها شخصا «متولى» لعذاب الناس.

أما المكتفى بالله فقد تغيرت أحواله بمجرد ولايته الخلافة فركب متن هواه وسلك مسلك أبيه ومالت نفسه إلى الإيذاء والعبث بحقوق الرعية - كغيره. وأمر أن يتخذ له قصر بناحية الشماسية بإزاء قطربل فأخذ بهذا السبب ضياعا كثيرة ومزارع كانت فى تلك النواحى، صادرها - بغير ثمن - من ملاكها.

وعندما ولى القاهر الخلافة قبضوا على والدة الخليفة السابق المقتدر وطالبوها بما عندها من أموال فاعترفت بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترف بشئ من المال والجواهر فضربوها أشد مايكون الضّرب وعلقوها من قدميها وضربوا المواضع الحساسة من بدنها فحلفت أنها لم تمتلك إلا ماقدمته. واشتدت بها العلة من إيذائها فماتت، ودفنها ثلاثة من خدمها فقتلوا ووضعت رءوسهم فى خزانة الرءوس (أى الخزانة التى كانت توضع فيها رءوس من يأمر الخليفة بقتلهم ويحب الاحتفاظ برءوسهم بعد قتلهم).

* * *

تلك نماذج من الاستبداد والمظالم تتضمن كافة أنواع التعذيب والقتل والمصادرة والعدوان على الحريات والاعتداء على الحرمات، مما لايمكن أن يتصور عاقل أن يصدر عن منصب إسلامى كالخلافة!! وعن خلفاء المسلمين وأمراء المؤمنين (وأنوار الله!!).

ولم تقتصر المظالم أو يقف الاستبداد على الخلفاء وعندهم، وإنما انتشر منهم إلى الوزراء والحكام والولاة حتى استشرى فى كل أنحاء الدولة فصار كل خيط لهم ظلم وكل نسيج لهم عسف. وأبو العلاء المعرى يشير إلى فساد الولاة والحكام والساسة فيقول فى شعره :-

مُلّ المقـام فكـم أعاشـر أمـــة .·. أمرت بغير صلاحها أمراؤهـــا

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها .·. وعدوا مصالحها وهم أجراؤهـــا

ويقول :

يسوسـون الأمـور بغـير عقــل .·. فيُسمـع أمرهـم ويقال ساســةُ

فـــأف من الزمـان وأف منـــى .·. ومن زمن رياسته خساســـــةُ

ويقول :

سـاس الأنام شـياطين مـسلطـــة .·. فى كل مصر من الوالين شيطـان

من ليس يحفل خمص الناس كلهم .·. أن بات يشرب خمرا وهو مبطـان

فالناس من العامة، الذين يعبر الشعر عن وجدانهم وعما يتردد فى ضمائرهم، يرون أن الحكام شياطين مسلطة عليهم، وأنهم مبطنون شاربو خمر، يسوسون الأمور بغير عقل، أخساء، يظلمون الرعية ويستبيحون كيدها، ويتجاوزون مصالح الناس مع أنهم أجراء لهم.

غير أن الناس كانوا يتعلقون بالأوهام، ويتخلقون بالمثاليات، ويتطلعون إلى المعانى

الصحيحة للحكم، تلك التى صارت فى عهود الخلافة ضربا من المجاز ونوعا من الخبل!!

الاستهداد مع الفقهاء والعلماء:

عاش الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت خلال الخلافتين الأموية والعباسية (٨٠-١٥٠هـ)، وقد أراد يزيد بن عمر بن هبيرة أن يوليه قضاء الكوفة أيام مروان بن محمد (آخر الخلفاء الأمويين) فرفض أبو حنيفة ذلك، فضربه الوالى مائة سوط وظل يضربه كل يوم عشرة أسواط لاقناعه!! أو لإجباره على النزول على إرادته، فلما يئس الوالى من أبى حنيفة خلى سبيله.

وبعد بناء مدينة بغداد استدعى الخليفة أبو جعفر المنصور أبا حنيفة النعمان وعرض عليه أن يلى قضاء الرصافة فاعتذر أبو حنيفة من ذلك، فألحق به المنصور عسفا وعنتا.

والإمام أبو عبد الله مالك بن أنس (٩٣-١٧٩هـ) كان يتجنب السياسة حتى لايؤذى أو يقتل، ومع ذلك فقد سُعى به إلى جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس وهو والى المدينة وعم أبى جعفر المنصور فقيل له إن مالكا حّدث بحديث النبى (صلعم) «ليس على مستكره طلاق» وأنه يقصد بذلك أن إيمان بيعة الخلفاء العباسيين ليست شيئا ملزما بل إنها حدثت على الإكراه فليس على المبايع مبايعة. وقد غضب الوالى من ذلك ودعا بمالك إليه وجرده من ثيابه وضربه بالسياط، ومُدت يده حتى خُلعت كتفه. وقد استرضى الخليفة المنصور بعد ذلك مالكا فغفر للحكم العباسى هذه الإهانة البالغة وأثنى على المنصور وعلى علمه وفضله!!

أما الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ) فكانت جريمته الكبرى أن قال مايقوله أهل السنة جميعا من أن القرآن كلام الله الأزلى، وأنه ليس بمخلوق، وهو قول على الضد من قول المعتزلة. وإذ كان الخليفة المأمون معتزليا يرى أن القرآن مخلوق فقد أصدر مرسوما بأن تكون عقيدة المسلمين مثل عقيدة المعتزلة، وأمر وهو فى طرسوس باحضار أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح، فحُملا إليه حملا غير كريم فوصلا طرسوس بعد وفاة المأمون. وتوفى محمد بن نوح فبقى أحمد بن حنبل فى الساحة وحده وأعيد إلى بغداد. وأمام الخليفة المعتصم - الذى تلى المأمون - أصر أحمد بن حنبل على أن القرآن غير مخلوق فأمر الخليفة بجلده وتعذيبه وأودعه السجن فظل فيه ثمانية وعشرين شهرا.

وكما اعتذر أبو حنيفة من ولاية القضاء فقد اعتذر منها أبو سفيان الثورى وفر هاربا حتى لايؤذى إيذاء أبى حنيفة.

أما ابن المقفع فقد كتب للمنصور كتابا سماه «رسالة الصحابة» ينصح فيه الخليفة بحسن اختيار من يعاونه وحسن سياسة من يحكمه. فأمر به المنصور وقطع أصابعه التى كتبت الرسالة ثم قطع أطرافه قطعة قطعة وشويت على النار أمام عينيه، وأجبر على أكلها، حتى مـــات.

الخـلاعة والمجـون

كانت الدولة الأموية أعرابية بدوية فكانت ساذجة بدائية حتى فى لهوها وعبثها، تنقل عن بعض البلاد المفتوحة عاداتها لتصبغها بصبغتها هى وتضفى عليها من خصالها الكثير. لذلك، كانت الخلاعة شبه مستورة وكان اللهو قرب مخفور، أما فى العصر العباسى فقد صارت الخلاعة مجترئة متبجحة وأصبح اللهو سافرا مستهترا. لقد كانت الدولة العباسية دولة الموالى فأقاموها على طباعهم وأسسوها على أذواقهم، فإذا بالترف والنعيم يعم ويسود وينتشر، ثم يتحول مع الوقت إلى خلاعة ومجون وفساد.

بدأ الأمر فى قصور الخلفاء المهدى والرشيد والأمين والواثق والمتوكل حيث أصبحت القصور مغانى حافلة ومقاصف للهو وحانات للشرب وساحات للرقص وأماكن للعبث، ثم تبعهم فى ذلك المياسير وأولاد الخاصة ثم انتشر الأمر حتى ساد جل طبقات الشعب، فإذا ببغداد تحفل بالمواخير وبيوت الدعارة وأماكن الفسق ومحال القمار ودور الغناء. وكان العراقيون يبيحون شرب النبيذ كما كان الحجازيون يبيحون السماع والغناء، فجمع الناس اللهو فى بيت واحد من الشعر يرددونه فيبيحون به الشرب والغناء جميعا :-

رأيه فى السماع رأى حجـازى .·. وفى الشراب رأى أهل العـراق

وسدر الناس فى غيهم بلا ضابط ولا رابط، لا يعبأون بحرام ولايلتفتون لحلال، بل يعبر عنهم بيت من الشعر قاله أبو نواس (الحسن بن هانى المتوفى سنة ١٩٨هـ) الذى كان أحسن من يعبر عن روح العصر وخلق الناس آنذاك :-

فإن قالوا حرام قـل حـرام .·. ولكـــن اللذائـــذ فـى الحـرام

إنه منطق اللذة دون التفات إلى دين وأسلوب العبث بغير اهتمام بأى قيم.

لقد أولع الناس بالغناء وتفننوا فيه، كما أبدعوا فى مجالس الغناء كثيرا من الملح والنوادر. وكان من المغنيين والمغنيات فى ذلك العصر ابراهيم المهدى (أخ الرشيد) وعلية المهدى (أخته) وإبراهيم الموصلى واسحاق الموصلى وذات الخال ويحى المكى ومخارق وشاريه ومعبد وسليم الكوفى وسياط وبذل وغيرهم. وكان الخليفة الواثق يضع الألحان كما كان إبراهيم المهدى كذلك.

وعنى الناس بتربية الحمام وتغالوا فى أثمانه، من قبيل الترف. ولعبوا بالشطرنج والنرد وغلوا فى ذلك. وتهارشوا بالديوك والكلاب، وأولعوا بالنقش والتصوير. وأغربوا فى الاحتفال بعيد النيروز (رأس السنة الفارسية). وكثرت الإماء والبغايا والعاهرات والمخنثون. وفسدت بغداد - وغيرها من المدن - فسادا كبيرا حتى قال شاعر عنها :-

قل لمن أظهر التنسك فى الناس .·. وأمسى يعد فى الزهـــاد
الزم الثغــر والتواضـع فيـــــه .·. ليس بغداد منزل العبـــاد

وكان بشر بن الحارث يقول : بغداد ضيقة على المتقين لاينبغى لمؤمن أن يقيم بها.

وتبين مدى الهاوية التى انحدرت إليها أخلاقيات العصر العباسى من تعقبها فى نواح ثلاث :- الترف، والخمريات، والغزل بالمذكر.

الــترف:

كانت للرشيد زهاء ألفى جارية وللمتوكل أربعة آلاف جارية. وكانت الجوارى تُفضّل عن الحرائر، وفى ذلك يقول القائل : إن الأمة (الجارية) تُشترى بالعين وترد بالعيب، والحرة غل فى عنق من صارت إليه.

وكان المهدى مولعا باللهو يأذن بالشراب فى حضرته، وعلم ذات يوم أن ابراهيم الموصلى يشرب مع ولديه موسى وهارون فضربه على ذلك.

وكان الرشيد يشرب النبيذ.

واحتج الحسين بن على بن أبى طالب على عمر بن عبد العزيز بن الخطاب لإقامته حد شرب الخمر على ثلاثة أشخاص شربوا النبيذ، وقال له : لقد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لأن أهل العراق لايرون به (شرب النبيذ) بأسا.

وأظهر المتوكل أكثر من أى خليفة آخر فى مجالسه اللعب والمضاحك والهزل، وكانت له مدينة اسمها «الماخورة» (ولعله من هذا الاسم جاء وصف كل دار لهو بأنها ماخورة).

وكان للمنتصر بساط عليه صور لأشخاص وعليه نقوش وكتابة فارسية.

وعندما ولى جعفر المهتدى بالله بن هارون حاول القضاء على العبث والخلاعة والمجون فقضى على نفسه، ومما فعله يبين حال من سبقه. لقد أخرج الملاهى وحرم سماع الغناء ومنع الشراب وأمر بنفى المغنيات وطرد الكلاب والسباع وتغيير المنكرات. وأمر باخراج آنية الذهب من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم. وعمد إلى الصور التى كانت فى المجالس فمحيت. وذبح الكباش التى كان يناطح بها بين يدى الخلفاء والديوك، وقتل السباع المحبوسة. ورفع بُسط الديباج.

وكان الخلفاء قبله ينفقون على موائدهم فى كل يوم عشرة آلاف درهم فخفض ذلك إلى مائة درهم. وكان يقول : إنى أستحى من الله أن لايكونٍ فى بنى العباس مثل عمر بن عبد العزيز فى بنى أمية. غير أن الناس لم تطق مافعل ولم تتحمل تقواه فقتلوه بوطء (عصر) مذاكيره، وكانت كل مدة خلافته أحد عشر شهرا وخمس عشرة ليلة.

الخمـــريات

فى الشعر العربى فصول عن الخمريات؛ وتعقب شعر الخمريات طويل وبعيد، لذلك يحسن

الاقتصار على بعضه ممن كان يمثل العصر العباسى. وأفضل من كان يعبر عن هذا العصر أبو نواس؛ ذلك أنه لم يكن بدعة فى وقته ولا كان نموذجا مرفوضا، لكنه كان معبرا حقيقيا عن واقع الحياة، ومصورا بارعا لأفعال الناس، وواصفا دقيقا لما كان يجرى فى وقته، منه ومن غيره على حد سواء.

يقول أبو نواس فى اجتراء بلا خشية :-

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ∴ ولاتسقنى سرا إن أمكن الجهر

ويقول :

وزاهرىّ سما فى فرع مكرمة ∴ من معشر خلقوا فى الجود غايات

ناديته بعدما مال النجوم وقد ∴ صاح الدجاج ببشرى الصبح مرات

فقلت والليل يجلوه الصباح كما ∴ يجلو التبسم عن غر الثنيات

«ياأحمد المرتجى فى كل نائبة ∴ قم سيدى! نعص جبار السماوات»

وقال الأقيشر (أبو معرض، من الكوفة) :-

وصهباء جرجانية لم يطف بها ∴ حنيف، ولم تنفر بها ساعة قدر

فقلت اصطبحها، أو لغيرى فاهدها ∴ فما أنا بعد الشيب، ويحك، والخمر

إذا المرء وفى الأربعين ولم يكن ∴ له دون مايأتى حياء ولاستر

فدعه، ولاتنفس عليه الذى أتى ∴ وإن جر أرسان الحياة له الدهر

وقال ابن الرومى :-

أحل العراقى النبيذ وشربه ∴ وقال الحرامان المدامة والسكر

وقال الحجازى : الشرابان واحد ∴ فحلت لنا من بين اختلافهما الخمر

سآخذ من قوليهما طرفيهما ∴ وأشربها لافارق الوازر الوزر

وأوجد الناس - كما فعل ابن الرومى - تعلأت فقهية لشرب الخمر، كما ادعى بعضهم وجود مذاهب تحلها، منها مذهب عبد الله بن مسعود الصحابى، وفى ذلك يقول الشاعر :-

من ذا يحرم ماء المزن خالطه ∴ فى جوف خابية ماء العناقيد

إنى لأكره تشديد الرواة لنا ∴ فيه، ويعجبنى قول ابن مسعود

الغزل بالمذكر :

أما المثلية (ميل الجنس لذاته أو اللواط)(٣) فقد صارت شائعة ذائعة، يجاهر بها الخلفاء والعلية، مالو جاهر به شخص مغمور فى العصر الحالى لعُد فاسقا ساقط الحياء، ولقضى عليه اجتماعيا وأدين أدبيا ومابقى فى وظيفة أو استمر فى منصب.

وأشهر معبّر عن الغزل بالمذكر أبو نواس؛ كما أن أشهر من عُرف بالمثْلية الخليفة الأمين

والخليفة الواثق، ونُسب إلى أشخاص مشاهير عدول مثل القاضى يحى بن أكثم والمعتزلى ابراهيم النظام، وغيرهم كثير.

وقد قيل إن الأمين لما ملك (ولّى الخلافة) طلب الخصيان وأبتاعهم وغالى بهم وصيرهم لخلوته فى ليله ونهاره وقوامه وطعامه وشرابه وأمره ونهْيه (!!!) ورفض النساء والحرائر. وقد حاولت أمه زبيدة أن تصرفه عن الغلمان إلى الفتيات اللاتى يتمثلن بالغلمان، فأعدت له البعض منهن وصرن يُسمّين : الغلاميات.

وعن حب الأمين للخصيان يقول أبو نواس :-

صيَّر الخصيان حتى ∴ صير التعيين (٤) دينا

وتغزل أبو نواس فى الأمين نفسه واشتهاه فقال :-

أصبحت صبا لا أقول بمن ∴ من خوف من لايخاف من أحد

إن أنا فكرت فى هواى له ∴ حسبت رأسى قد طار عن جسدى

أنى على ماذكرت من فرْق ∴ لآمل أن أناله بيدى

وعشق الأمين غلاما اسمه «كوثر» فقال فيه :-

مايريد الناس من صـ ∴ ـب بما يهوى كئيب

كوثر دينى ودنيا ∴ ى وسقمى وطبيبى

أعجز الناس الذى يلحـ ∴ ـى محبا فى حبيب

أما الواثق فقد عشق غلاما يدعى «مهج» فقال فيه :-

ياذا الذى بعذابى ظل مفتخرا ∴ ما أنت إلا مليك جار إذ قدرا

لولا الهوى لتجارينا على قدر ∴ وإن أفق منه يوما ما فسوف ترى

وقال إبراهيم النظّام :-

وشادن (٥) ينطق بالظرف ∴ يقصر عنه منتهى الوصف

رق فلو بزت سرابيله ∴ علقه الجو من اللطف

يجرحه اللحظ بتكراره ∴ ويشتكى الإيمان بالطرف

أفديه من مُغْرًى بما سامنى ∴ كأنه يعلم ما أخفى

وقال إمام فقيه فى تلميذه محمد بن الحكم بن أعين القرشى المصرى:-

مرض الحبيب فعدته ∴ فمرضت من حذرى عليه

وأتى الحبيب يعودنى ∴ فبرئت من نظرى إليه

الشعـــوبية

كانت الدولة الأموية- كما قال الجاحظ- عربية أعرابية فمالت إلى العرب وإلى العربية وميزتهم بصورة تنافى روح الإسلام وتنافر مشاعر غير العرب من المسلمين. وقد سلف بيان ما أحدثته الدولة الأموية من فرض جزية على المسلمين من غير العرب ومن سوء معاملة هؤلاء بصفة عامة واعتبارهم عنصرا ثانيا فى المجتمع وطبقة أدنى من طبقتهم هم.

من أجل العنصرية والشعوبية أساسا، ولأسباب أخرى متداخلة متغايرة، تجمع الموالى (المسلمون غير العرب) وعملوا على إسقاط الخلافة الأموية ونجحوا فى ذلك بقيادة أبى مسلم الخراسانى الفارسى.

وشعر بعض العرب باتجاهات الموالى وتخوفوا من النتائج، فقال نصرين سيار يحذر العرب من العدو الفارسى الداخل عليهم :-

أبلـــغ ربيعـــة فى مـــرو وإخـــوتهم ∴ فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضـب

ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا ∴ حـربا يحرق فى حافاتها الحطـب

مابالكـــم تلقحـــون الحـــرب بينكمُ ∴ كأن أهل الحجاز عن رأيكم عُزُب

وتتركـــون عـــدوا قـــد أظلكمـــو ∴ مما تأشب، لا ديـن ولا حسـب

قدمـــا يدينـــون ماسمعـــت بـــه ∴ عن الرسول ولم تنزل به الكتب

فمـن يكن سائلا عن أصل دينهمو ∴ فـإن دينهمـو: أن تُقتل العرب

ورد الفرس هذا الشعور الأسود الضروس بمثله، فكتب إبراهيم الإمام لأبى مسلم الخراسانى يقول له : «إن استطعت ألا تدع بخراسان أحدا يتكلم العربية إلا قتلته فافعل! وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ! وعليك بمضر فإنهم العدو القريب الدار فأبِدْ خضرا ءهم ولا تدع على الأرض منهم دّياراً».

وركن العباسيون إلى الموالى وبخاصة الفرس، فابتدأ المنصور يكثر من استخدامهم، فاستعمل مواليه على الأعمال وقدمهم على العرب، وكثر ذلك من بعده حتى زالت رياسة العرب وقيادتها، وصار الوزراء من الفارسيين مثل آل البرامكة وبيت بنى بويه.

وقال رجل للمأمون : يا أمير المؤمنين ! انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان.

فقال المأمون: أكثرت على يا أخا أهل الشام ! والله ما أنزلتُ قيسا (عرب الحجاز) عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ! وأما اليمن، فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط. وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى (المخلص والمهدى من بيت بنى أمية)

وخروجه فتكون من أشياعه. وأما ربيعة (أهل نجد) فساخطة على الله منذ بعث نبيه فى مضر (الحجاز). ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاريا. اعزب فعّل الله بك".

وانتشرت الشعوبية، أو العنصرية، بين جميع الشعب، بشعورها الردئ وتحزبها المقيت، حتى صارت نسيج الخلافة العباسية. وظهر ذلك فى الأدب حيث يقول العربى:

لا تفترر أنك من فارس .·. فى معدن الملك وديوانه
لوحدّثت كسرى بذا نفسه .·. صفعته فى جوف إيوانه

ويقول المتنبى :-

وإنمـــا الناس بالملوك ومـا .·. تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهـــم ولا حسب .·. ولا عهـود لهـم ولا ذمم

ويرد الشاعر المتوكلى الفارسى وكان من ندماء الخليفة المتوكل فيقول :-

أنا ابن المكارم من نسل جم .·. وحارث إرث ملوك العجـم
لنا علـم الكـابيان الـذى .·. به نرتجى أن نسود الأمـم
فقـل لبـنى هاشم أجمعين .·. هلموا إلى الخلع قبل الندم
وعودوا إلى أرضكم بالحجاز .·. لأكل الضباب ورعى الغنم
فإنى سأعلو سرير الملـوك .·. بحد الحسام وحرف القلـم

أما فى السياسة، وعلى الخلافة، فقد كان من أثر الشعوبية أن صارت الخلافة للعرب والوزارة للشعوب؛ الاسم للأولياء والفعل للموالى. وسيطر الوزراء على مقاليد الحكم حتى صارت الخلافة بلا أى سلطة؛ وهو الأمر الذى دعا الخليفة المتوكل لأن يقول :-

أليس من الغرائب أن مثلى .·. يـرى ما قل ممتنعا علـيه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا .·. وما من ذاك شئ فى يديـه

وظهر أثر الشعوبية فى جند الدولة فقد كانوا خمسة أقسام: خراسانى، وتركى، ومولى (فارسى)، وعربى، وبنوى.

وفى الفقه الإسلامى ظهر أثر الشعوبية على بعض المباحث، وعلى سبيل المثال، مدى كفاءة الفارسى للتزوج من عربية.. وهكذا .

الدولـــة الدينـيـة

من قبل أن تنشأ الخلافة العباسية، وعندما كان الهاشميون ثوارا ضد الخلافة الأموية نادوا بتطبيق حكم الله، ووصموا الأمويين بالكفر حين رددوا- بالمعنى الذى ابتدأه الخوارج- الآية «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون». وعندما استولى العباسيون على السلطة

قال أبو العباس السفاح فى أول خطبة له، وهى شعار الخلافة، إنهم سيحكمون بما أنزل الله. وبهذا الاتجاه وذلك التقرير بدأت الخلافة العباسية وهى دولة دينية تدعى أنها تقيم كل أركانها على أساس الدين وتزعم أنها تباشر كل أنشطتها من خلال الشريعة. وكانت لذلك نتائج عدة بعضها غاية فى السوء، ونهاية فى الإساءة إلى الدين والشريعة والمسلمين. ذلك أن الحكام استغلوا الصبغة الدينية ليضفوا على أنفسهم عصمة وحصانة فيعبثون ولا مُسَائل لهم ويظلمون ولا راد لظلمهم. ومن جانب آخر فلقد صار إخفاق الدولة إخفاقا للتطبيق الدينى، وظلم الخلفاء والحكم مُسْقطاً على الإيمان نفسه، وانتهى فساد الحكم إلى أن يلقى بظلاله الكثيبة على القيم والأفكار الدينية التى احتمى بها الفساد أو سوّغته بأى وسيلة.

وتبدو أهم نتائج الدولة الدينية إبان الخلافة العباسية فى استغلال الدين لصالح الحكم، وظهور الحركات السرية الإسلامية، وبزوغ ما يمكن أن يسمى بالاشتراكية الدينية، وفرض صيغ الاعتقاد بمراسيم تصد عن السلطة.

استغلال الدين لصالح الحكم:

أنشأ العباسيون ما يسمى بديوان الزندقة يشرف عليه صاحب أو متولى الزندقة، مثله فى ذلك مثل صاحب الشرطة ومتولى التعْذيب.

ومنذ بداية الدولة العباسية صارت ألفاظ مثل زندقة وزنديق وتزندق من مفردات التعامل، ومع أن للزندقة معانى عدة فقد شاع استعمالها بمعنى الخروج على أحكام الشريعة الإسلامية.

وقد وجدت فى العصر العباسى أفكار إلحادية كثيرة وآراء متعددة تضاد تعاليم الإسلام، ومع ذلك فإن عقوبة الزندقة لم تكن تُوقعَ فى الغالب إلا لأغراض سياسية وحين يكون ثم تهديد للخلافة ذاتها أو طغْيان مُبَرّر من الخليفة نفسه.

فبشار بن برد كان ملحدا زنديقا، من شعره الذى يمثل مذهبه:-

لاخير فى العيش إن كنا كذا أبدا .·. لا نلتقى وسبيل الملتقى نهـــج
قالوا: حرام تلاقينا ! فقلت لهم .·. مافى التلاقى ولا فى قبلة حرج

ومع ذلك فإن الخليفة لا يضربه حتى الموت بتهمة الزندقة إلا لأنه أهانه واستعدى بنى أمية فقال:-

بنـــى أمية هبوا طال نومـــكم .·. إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فانتظروا .·. خليفة الله بين الزق والعود

وأبو نواس كان صريحا فى إلحاده جريئا على الدين؛ من ذلك أنه يقول:-

فدعى الملام فقد أطعت غوايتى .·. وصرفت معرفتى إلى الإنكار
ورأيـت إتيانى اللذاذة والهوى .·. وتعجلا من طيب هذى الدار

أحــرى وأحــزم من تنظر آجل ∴ علمــى به رجــم من الأخبار
ما جــاءنا أحــد يخــبّر أنــــه ∴ فى جنّة مذ مات أو فى النار

ويقول:-

يا ناظــرا فــى الدين ما الأمر ∴ لا قــــدر صــح ولا جــــبر
ما صح عندى من جميع الذى ∴ تذكــر إلا المــــوت والقــــبر

ومع ذلك فإنه لا يُمس بسوء، ويعيش هانئا ويموت ميتة طبيعية (٦).

تلك أمثلة فحسب، والأمثلة كثيرة وبعيدة تقطع بأن الزندقة- بمعْنى الميل عن الدين- كانت ادعاء سياسيا أكثر منها اتهاما دينيا.

الحركات السرية الإسلامية :

ونتيجة لأن الدولة دولة دينية تزعم أنها تحكم باسم الله فإن معارضتها لا بد أن تكون على أساس دينى هى الأخرى، تجادل فى أن الحكم يحدث باسم الله حقا، وترفع من جانبها شعار الحكم بما أنزل الله. ولهذا السبب فإن المعارضة الأساسية للخلافة العباسية كانت ثورات الشيعــة المتصــلة، وحركــة القرامطــة الشيعــية الأسمــاعيلية، وحركة الحشاشين الشيعية الاسماعيلية - وهى حركة سرية خالصة.

وعلى ما سلف، فقد بدا فى حركة القرامطة اتجاه واضح لإنهاء الشريعة المحمدية تماما واستبدال شريعة أخرى بها (وما خفى كان أعظم) وهو ما عبر عنه الشاعر فقال :-

خذى الدف ياهذه والعبى ∴ وغنى هزازيك ثم اطربى
تولـــى نبــىّ بنى هاشم ∴ وهــذا نبىّ بنى يعرب

فالدولة التى تحكم باسم السياسة تُعارض على أرضية السياسة، أما التى تحكم باسم الدين فلا تُعارض إلا على أسس دينية، وفى الحكم باسم الدين من جانب : والمعارضة باسمه من جانب آخر لابد أن تقع تفسيرات كثيرة، سياسية وليست دينية، حزبية وليست شرعية، ربما كانت شاذة أو عليلة أو معتسفة أو خارجة عن الدين نائية عن الشرع.

الأشتراكية الدينية :

على الرغم من الإدعاء بأن الخلافة العباسية دولة دينية فلقد انتشر الترف والفساد والبذخ بين الحكام، وأسرفوا فى الإنفاق على أنفسهم وملاذهم وحواشيهم وعلى المغنين والمغنيات والشعراء؛ **ولم يحاول أى خليفة أو حاكم أن يضع نظاما واضحا محددا لرعاية الفقراء والمرضى والمسنين بل تركوا أمرهم لحسنات الناس وصدقات المسلمين.** كذلك لم يوضع أى نظام محدد واضح يكفل الحقوق السياسية والمدنية للرعايا. ونتيجة لهذا كله أن كانت المطالبة بالعدالة الاجتماعية أو الكفاية الاقتصادية مترابطة بالفكر الدينى متواشجة بالطلب الشرعى. فما

دامت الدولة تحكم باسم الدين وبدعوى الشرع فلماذا لا تنشر أعلام الحرية ولم لا توطد أركان العدل؟ وهل يكون العيب آنذاك فى الحرية وفى العدل أم يكون فى التطبيق الدينى الخاطئ؟ من البديهى أن بعض الناس تسقط الخطأ على التطبيق الدينى ذاته، وقد يشتد بعضهم أو يحتد بعض آخر فيرى أن التطبيق الدينى أو أن الدين ذاته لم يضع الضمانات الكافية لحقوق الناس الشخصية والسياسية والاقتصادية، وأنها جميعا موكولة إلى الحاكم الدينى «الخليفة» الذى يطبقها وفقا لهواه، ويضيق على الناس ليوسع على نفسه. وفى المجادلة والمحاورة قد يظهر الرأى بأن التزامات الفرد تجاه الشريعة يقابلها حقوق لهم لابد من استئدائها أولا، أو فى القليل، مع التزامن بين أداء الإلتزامات واقتضاء الحقوق.

من قبيل ذلك ما قاله أحمد بن محمد الافريقى الشاعر المعروف بالمتيّم، وهو يخلط الفكر الاشتراكى بالدين، أو الحقوق الاقتصادية بالواجبات الدينية :-

تلوم على ترك الصلاة حليلتى ∴ فقلت : اغربى عن ناظرى وأنت طالق
فوالله لا صليت لله مفلسا ∴ يصلّى له الشيخ الجليل وفائق
وناشٌ وبكتاشٌ وكنباشٌ بعده ∴ ونصْر بن مالك والشيوخ البطارق
وصاحب جيش المشرقين الذى له ∴ سراديب مال حشوها متضايق
ولا عجب إن كان نوح مصليا ∴ لأن له قصرا تدين المشارق
لماذا أصلى ؟ أين باعى ومنزلى؟ ∴ وأين خيولى والحلى والمناطق
وأين عبيد كالبدور وجوههم ∴ وأين جوارىّ الحسان الغوانق؟
أصلى ولا فتر من الأرض يحتوى ∴ عليه يمينى إننى لمنافق
تركت صلاتى للذين ذكرتهُم ∴ فمن عاب فعلى فهو أحمق مائق
بلى إنْ علىَّ الله وسَّع لم أزل ∴ أصلى مالاح فى الجو بارق
فإن صلاة السئ الحال كلها ∴ مخارق ليست تحتهن حقائق

فرض الاعتقاد بمراسيم السلطة:

دخلت فكرة خلق القرآن إلى الإسلام تأثرا باليهودية والمسيحية. ففى اليهودية أن التوراة كلام الله، وثم فرقٌ ترى أنه كلام الله المخلوق لأن الله أزلى وكلامه حادث فى الزمن، أى وقع بعد بدء الزمن ومن ثم فهو مخلوق غير أزلى. وفى المسيحية (وفى الإسلام) أن المسيح كلمة الله، وثم فرقٌ ترى أن جسده أو ناسوته حدث فى الزمان، أى وقع فى فترة تاريخية معينة، ومن ثم فهو غير أزلى. وقد بدأت فكرة خلق القرآن خلال الدولة الأموية، وقال بها الجعد بن درهم الذى ذبحه الوالى خالد بن عبدالله القسرى ذبح الشاة صباح يوم عيد الأضحى جزاء

قالته هذه (وكان الجعد قد أخذ فكرته عن أبان بن سمعان الذى أخذها عن طالون بن أعصم اليهودى). وفيما بعد- فى العصر العباسى- تبنى المعتزلة فكرة خلق القرآن، وقالوا إن القول بغير ذلك يتضمن شركا بالله. واقتنع الخليفة المأمون- ومن بعده الخليفتان المعتصم والواثق- بفكرة خلق القرآن. ومع أن الفكرة من فروع العقائد وليست من الأصول، فكرة فلسفية وليست ركنا اعتقاديا، فإن قيام الدولة على أساس دينى سوغ للمأمون أن يفرضها فرضا على المسلمين ويجعلها أساس الاعتقاد وأصل الدين، ومن ثم فقد أصدر كتابا هاما جاء فيه :-

«... قد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة- ممن لا نظر له ولا روية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استضاء بنور العلم وبرهانه، فى جميع الأقطار والآفاق- أهل جهالة بالله وعَمَى عنه، وضلالة عن حقيقته وتوحيده والإيمان به، ونكوب عن واضحات أعلامه، وواجب سبيله، وقصور أن يقدروا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم، ونقص عقولهم، وجفائهم عن التفكر والتذكر، وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين... على أنه (القرآن) قديم أزلى لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه... وقد قال الله عز وجل فى محكم كتابه الذى جعله لما فى الصدور شفاء وللمؤمنين رحمة : «إنا جعلناه قرآنا عربيا» ... ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنة... ثم أظهروا.. أنهم أهل الحق والدين والجماعة ... فاستطالوا بذلك على الناس، وغروا به الجهال... حتى مال قوم... إلى موافقتهم عليه ومواطأتهم على سئ آرائهم... تصنعا للرياسة والعدالة فيهم... وأولئك (أى الفقهاء) شر الأمة ورءوس الضلال... وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ولسان إبليس الناطق فى أوليائه والهائل على أعدائه من أهل دين الله، وأحق من يُتهم فى صدقه وتطرح شهادته ولا يوثق بقوله ولا عمله، فإنه لا عمل إلا بعد يقين، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد. ومن عمى رشده وحظه من الإيمان بالله وبتوحيده، كان عما سوى ذلك من عمله والقصد من شهادته أعمى وأضل سبيلا. ولعمر أمير المؤمنين إن أحجى الناس بالكذب فى قوله، وتخرص الباطل فى شهادته، من كذب على الله فى وحيه ولم يعرف الله حقيقة معرفته، وإن أولاهم برد شهادته فى حكم الله ودينه من رد شهادة الله على كتابه، وبهت حق الله بباطله.

فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن وإحداثه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه. فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمرهم بنظر من بحضرتهم من الشهود على الناس ومسألتهم على علمهم فى القرآن ،

وترك إثبات شهادة من لا يقر أنه مخلوق محدث ولم يره، والامتناع من توقيها عنده... واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك... »

والأساس الدينى لهذا الكتاب قائم- على الأخص- من العبارة التى وردت فيه من أن «أمير المؤمنين قلده الله واستحفظه أمور رعيته»؛ فالخليفة مقلَّدٌ من الله غير مُنصَّبٍ من الرعية، وما يراه هو رأى الله الذى هو صميم الدين، بلا تفرقة بين أصول الاعتقاد وفروعه ، أو تمييز بين الحواشى والجواهر، ومن لا يؤمن به (رأى أمير المؤمنين) لا يوثق به ولا يُولىَّ ولاية ولا يقلد وظيفة ولا تقبل له شهادة، لأنه ناقص الإيمان غير مكتمل الاسلام.

وقد امتُحن العلماء والفقهاء فى مسألة خلق القرآن ونزل بهم بلاء شديد وعذاب إليهم فقالوا جميعا بخلقه، عدا أحمد بن حنبل الذى أصر على أنه أزلى غير مخلوق. وظلت الحال فى هذه المحنة كذلك طوال عهدى المعتصم (أخ المأمون) والواثق (ابن المعتصم) حتى وَلى المتوكل الخلافة فَعدل عن هذا الاتجاه، ومن ثم انتصر الاتجاه السلفى- بزعامة ابن حنبل- على الاتجاه العقلى الذى قادته المعتزلة. وبالغ أنصار ابن حنبل فى رد فعلهم فدفعوا العقل إلى الوراء كثيرا ، فضلا عن قيامهم ببعض الفتن.

وأمر المتوكل الناس بالتسليم والتقليد، أى بعدم التفكير أو التجديد؛ ومن ثم أصبح هذا المنهج هو المسلك العام والطابع الأساسى للفكر الإسلامى : التسليم والتقليد فى كل شئ، وعدم التفكير أو التجديد فى أى شئ. وظل ذلك الطابع وذاك المنهج مستمرا سائدا حتى عصرنا الحالى الذى أصبح تجديد الفكر الدينى فيه ضرورة حياة ولزوم بقاء، وإلا انتهى الأمر إلى عدمٍ وزوال.

وهكذا أدى طابع الدولة الدينى إلى هذه النتائج التى ختمت على العقل الإسلامى بخاتم الجمود ووصمت التاريخ الإسلامى بالعسف والاضطهاد. ومن المؤسف أن يسهم المعتزلة فى ذلك؛ فمع أنهم فرسان العقل وخيَّالة المنطق وضباط الفكر، فقد تحولوا إلى طغاة ظالمين بمجرد أن دانت لهم السلطة ووصلوا إلى دست الحكم. وقد رد لهم الحنابلة والعامة الصاع صاعين والكيل كيلين بمجرد أن تمكنوا منهم، فعصف ذلك وذلك بالعقل الإسلامى والتفكير الإسلامى وبكل معانى الحرية والعدالة فى الإسلام.

تعليقات وهوامش

(١) أكثر المراجع المشار إليها فى الفصول السابقة، ويضاف إليها :-

١- آدم متز- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى- ترجمه محمد عبدالهادى أبو ريده.

٢- مصطفى الشكعة - إسلام بلا مذاهب.

٣- عارف تامر- القرامطة - منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت.

٤- عبدالحليم الجندى- الإمام الشافعى- دار الكاتب العربى.

٥- ديوان أبى نواس- الحسن بن هانئ - تحقيق أحمد عبدالمجيد الغزالى.

٦-أبو الفرج الاصفهانى- الأغانى.

7- Medieval Islam- a study in cultural Orientation- Gustave E. von grune-baum, chicago university.

8- Ignaz Goldziher, Introduction to Islamic Theology.

9- Alfred Guillame, Islam. a Plican Book.

10- Bernard lewis, The Assassins, a Radical sect in Islam.

(٢) أى أن العباس عم النبى هو من الطلقاء - الذين أطلقهم النبى (صلى الله عليه وسلم) يوم فتح مكة وأنه من ثم منبت الصلة عن الإسلام، لم يصل إلا خوف السيف (الصمصام). وبهذا يكون المسلمون- لا غيرهم- هم أول من زعم أن بعض الناس قد أسلموا، أو صلوا، خوف السيف. وكان ذلك فى جدال سياسى، لكنه أصبح بعد ذلك قولا عاما وفهما مطردا.

3- Homo Sexuality .

(٤) من العُنّة أو العنانة وهى العجز عن الجماع لعيب تكوينى أو اكتسابى فى أعضاء التناسل أو لعدم انتصاب القضيب أو لسرعة ارتخائه بالإنزال قبل الإيلاج أو بعده فورا.

(٥) الشادن ولد الظبيه (المعجم الوسيط مادة: شادن)

(٦) ولم يقتصر الإلحاد على أبى نواس - حتى يكون قولا شاذا مفردا - لكنه كان ديدن البعض، ومنهم أبو العلاء المعرى (٩٧٣ - ١٠٥٧) الذى يقول فى هذا الصدد :

اثنان أهل الأرض : ذو علم بلا ∴ ديـن وآخـر ديـّن لاعقـل لـه

ويقول :-

ولا تحسب مقال الرسل حقا ∴ ولكن قول زور سطروه

وكان الناس فى عيش رغيد ∴ فجاءوا بالمحال وكدروه

ومع هذا القول شديد الالحاد ، فإن أبا العلاء المعرى لم يقتل ولكن مات ميتة عادية!



الدولة الفاطمية (أ)

ثبت الخلفاء

	هجرية	ميلادية
١ - المهدى أبو محمد عبيد الله	٢٩٧	٩٠٩
٢ - القائم أبو القاسم محمد	٣٢٢	٩٣٤
٣ - المنصور أبو طاهر إسماعيل	٣٣٤	٩٤٥
٤ - المعز أبو تميم معد (المعز لدين الله الفاطمى)	٣٤١	٩٥٢
٥ - العزيز أبو منصور نزار	٣٦٥	٩٧٥
٦ - الحاكم (بأمر الله) أبو على المنصور	٣٨٦	٩٩٦
٧ - الظاهر أبو الحسن على	٤١١	١٠٢٠
٨ - المستنصر أبو تميم معد	٤٢٧	١٠٣٥
٩ - المستعلى أبو القاسم أحمد	٤٨٧	١٠٩٤
١٠ - الآمر (بأحكام الله) أبو على المنصور	٤٩٥	١١٠١
١١ - الحافظ أبو الميمون عبد المجيد	٥٢٤	١١٣٠
١٢ - الظافر أبو المنصور اسماعيل	٥٤٤	١١٤٩
١٣ - الفائز أبو القاسم عيسى	٥٤٩	١١٥٤
١٤ - العاضد أبو محمد عبد الله	٥٥٥	١١٦٠

شأن الدول شأن الأفراد ، يمر كل منهم بأطوار حتى ينتهى إلى الزوال . طفولة ساذجة ، ثم فتوة عارمة، ثم شباب قوى ، ثم كهولة ناضجة، ثم شيخوخة آفلة. ولئن اختلفت الأحوال بين فرد وفرد ، بين دولة وأخرى ؛ كأن تستطيل فترة أو حالة أو تقصر فترة أو حالة ، فإن النتيجة واحدة والنهاية محتومة . ذلك قانون واحد يسرى على الجميع بلا استثناء، وسنة الكون التى لامهرب منها على الإطلاق.

وكانت الدولة العباسية قد بدأت سنة ١٣٢ هـ - ٧٥٠ م ، ثم مالبثت - بعد حوالى قرن واحد - أن انحدرت إلى حال الشيخوخة والاضمحلال، واستطالت حالتها تلك حتى انتهت بغزو التتار بغداد وقتل الخليفة المستعصم ؛ أو بغزو العثمانيين مصر، عند من يرى أن الخلافة العباسية فى مصر - رغم ماسلف بيانه عنها - مكملة للخلافة العباسية فى بغداد.

ونتيجة لضعف الخلافة وانحطاطها ، فقد تمزقت بلادها دولا. وكانت الشعوبية (أو القومية) سببا فى استقلال فارس عن دولة الخلافة، فقامت فيها الدولة الطاهرية فى خراسان (٢٠٥ - ٢٥٩ هـ ، ٨٢٠ - ٨٧٢ م) ومنها انتقلت إلى الدولة الصفادية (٢٥٢ - ٢٩٠ هـ ، ٨١٦ - ٩٠٣م)، ثم الدولة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩ هـ ، ٨٧٤ - ٩٩٩ م) التى تفرغت منها الدولة الغزنوية (٣٦٦ - ٥٧٩ هـ ، ٩٧٦ - ١١٨٣ م) ، إذ كان ألبتكين مؤسس هذه الدولة من الموالى الأتراك الذين استخدمتهم الدولة السامانية.

وكان الأمويون قد استقلوا بالأندلس على يد عبد الرحمن الأول الملقب بعبد الرحمن الداخل (٣٨ - ١٧٢ هـ، ٧٥٦- ٧٨٨ م). وفى المغرب تأسست دولة الأدارسة فى مراكش (١٧٢ - ٣١١ هـ ، ٧٨٨ - ٩٢٣) ودولة الأغالبة فى تونس (١٨٤ - ٢٩٦ هـ ، ٨٠٠ - ٩٠٨ م) . وفى مصر كانت دولة الطولونيين (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ ، ٨٦٨ - ٩٠٥م) ثم دولة الإخشيديين (٣٢٣- ٣٥٨ هـ، ٩٣٥ - ٩٦٩م).

وفى عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦- ٢٧٩ هـ، ٨٧٠ - ٨٩٢م) انكمشت الخلافة العباسية إلى حدود الجزيرة والعراق وفى عهد الخليفة الراضى (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ ، ٩٤٠ - ٩٤٤ م) كانت البصرة فى يد ابن رائق، وخوزستان فى يد البريدى ، وفارس فى يد عماد الدين بن بويه، وكرمان فى يد أبى على محمد بن الياس، والرى وأصبهان والجبل فى يد ركن الدولة بن بويه

ويَد كشمير يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة فى يد بنى حمدان، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج الإخشيدى، والمغرب وأفريقية فى يد خلفاء عبد الرحمن الناصر الأموى، وخراسان وما وراء النهر فى يد نصر بن أحمد السامانى، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم، والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القرمطى.

وكان بعض هؤلاء الحكام من الشيعة غير السنيين، مثل دولة بنى بويه، وآل حمدان ، وأبى طاهر القرمطى ، مما هدد الخلافة العباسية ذاتها على أساس مذهبى.

وقوى الوزراء فى بغداد ذاتها حتى أصبح الخليفة ألعوبة فى أيديهم ليس له من الأمر شىء. وقد سلف بيان ماقاله الخليفة المتوكل فى هذا المعنى:

أليس من الغرائب أن مثلى ∴ يرى ما قل ممتنعا عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا ∴ وما من ذاك شىء فى يديه

كانت قوة بنى بويه الفارسية فى بغداد على أشدها (خلال الفترة من ٣٣٤ - ٤٧٧ هـ ، ٩٤٥ - ١٠٥٥ م) وكانوا من الشيعة ففكروا فى عزل الخليفة العباسى ولم يمنعهم من ذلك إلا تخوفهم على أوضاعهم ممن قد يحل محله من الخلفاء الفاطميين.

واشتد البيزنطيون فى هذا الوقت وبدأوا فى غزو الدولة العباسية، وانتصر الامبراطور الرومانى نقفور فوكاس (٣٥٢ - ٣٥٩ هـ ، ٩٦٣ - ٩٦٩م) على العباسيين والحمدانيين ثم على الربضيين. واستطاع الروم فيما بعد أن يستولوا فى سورية على مدينتى المصيصة وطرسوس (٣٥٥ هـ ، ٩٦٥م) ثم حاصروا أنطاكية وحلب واستولوا عليهما. واعترفت بعض هذه البلاد بالتبعية للامبراطورية البيزنطية. واستطاع أحد قواد نقفور (ويدعى جون زيمكسيس) أن يستولى على بعض المدن العريقة مثل الرها وديار بكر ونصيبين الواقعة على نهر دجلة ، ثم امتدت غزوات الروم حتى صحراء بغداد.

وفى الداخل وقعت ثورة الزنج (العبيد السود) واستمرت أربعة عشر عاما (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ ، ٨٦٩ - ٨٨٣ م) وأدت إلى إضعاف وإيهان الخلافة العباسية من الداخل ، بعد أن كانت قد ضعفت ووهنت نتيجة انقسامها إلى دويلات بددتها فرقا، وشعوبية مزقتها شيعا، وكأثر للهزائم التى منيت بها فى الحروب.

وفى مصر كانت تقوم الدولة الطولونية - كما أنف البيان - ثم تبعتها الدولة الإخشيدية. وكان محمد بن طغج الإخشيدى قد قطع الخطبة للخليفة العباسى وذكرها للخليفة الفاطمى، وكانت تلك خطوة تمهد للاعتراف بسلطان الفاطميين الذين كان أتباعهم قد زادوا فى مصر زيادة كبيرة وأخذوا يدعون لهم جهارا نهارا.

وإذ توفى محمد بن طغج الإخشيدى كان ولده أنوجور قاصرا فآلت الوصاية عليه إلى كافور (العبْد) الملقب بالإخشيدى (نسبة إلى مواليه الإخشيديين). وحصل كافور على موافقة

الخليفة العباسى على تولية الأمير الصغير على مصر والشام وعلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة (وكانتا تتبعان حكم مصر). وبعد وفاة أنوجور - التى قيل إنها تمت بدسيسة من كافور - كان أحمد أخوه صغيرا فحال كافور دون تعيينه واليا. وفى سنة ٣٥٥ هـ أخرج كافور كتابا من الخليفة العباسى بتقليده ولاية مصر، فنودى به واليا على مصر ومايليها من البلاد، ودُعى له على المنابر بعد الخليفة.

وظل كافور على رأس الدولة المصرية وبلاد الشام وحاكما للحرمين، زهاء سنتين وأربعة أشهر (١٠ صفر سنة ٣٥٥ - ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ) . وكان منحوس الطالع فتعرضت بلاد الشام فى عهده إلى غزوات القرامطة الذين نهبوها وقبضوا على قافلة مصرية كانت فى طريقها إلى الحج (سنة ٣٥٥ هـ)، ووقعت بمصر زلازل وشبّت نيران هائلة دمرت أكثر مدينة الفسطاط. وأغار ملك النوبة على مصر وعاث فسادا فى البلاد الواقعة بين الشلال الأول ومدينة أخميم (محافظة سوهاج) فأحرق بعض المدن وقتل أهلها ونهب الأموال. وانخفض ماء النيل لمدة تسع سنوات (٣٥١ - ٣٦٠ هـ) قبل عهد كافور ، وخلاله ، وبعده ، حتى قاست البلاد الأمرين من القحط والأوبئة التي نجمت عن ذلك. واشتد الغلاء وندر وجود الطعام، وفشا الموت حتى عجز الناس عن دفن موتاهم ، وثار الجند الترك والروم على كافور لعدم دفعه رواتبهم وأرزاقهم.

كل هذه العوامل - وغيرها - دفع الفاطميين وساعدهم على غزو مصر، خاصة وقد اعتقد المصريون ، مايعتقدونه دوما، من أن الحكم التالى قد يكون أفضل من الحكم الحالى فيرفع عنهم الشدة ويزيل الغمة .. هكذا بمجرد استبدال حكم بحكم، ودون ما عمل فى ذلك أو أخذ بالأسباب.

* * *

كان الهاشميون (العباسيون والعلويون) قد ثاروا على الخلافة الأموية بدعوى أنها اغتصبت حقهم فى الخلافة ، لأنهم عصبة النبى وورثته (والمسلمون ميراث لهم !!!). ولما سقطت الدولة الأموية استقل العباسيون وحدهم دون العلويين بالحكم. وكانت دعواهم فى ذلك تقوم على أن مورثهم العباس عم النبى هو وارثه عصبة (الفاطمة ابنته النصف فرضا من الأموال التى كانت له وللعباس الباقى تعصيبا . وكانت فاطمة والعباس قد زعما - خلافا لرأى أبى بكر - أن من حقهما وراثة الأموال المخلّفة عن النبى). وإلى جانب ذلك ، فقد ادعى العباسيون أن الخلافة تحولت من بيت على بن أبى طالب الى بيت العباس عم النبى بمقتضى وصية أبى هاشم بن محمد بن الحنفية زعيم الشيعة الكيسانية (المتوفى سنة ٦٨ هـ ، ٧١٦م). ذلك أن الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك كان قد دعا أبا هاشم هذا إلى دمشق وأظهر له التودد لكنه كان يضمر له الاغتيال ؛ ومن ثم دس له الخليفة من سمه وهو فى طريقه إلى أرض السرأة وهى قرية

صغيرة بين الشام والحجاز إلى الجنوب من البحر الميت على مقربة من العقبة. وقيل إن أبا هاشم لما أحس بدنو أجله عرج على محمد بن علي بن عبد الله بن العباس وأفضى إليه بأسرار الدعوة الهاشمية وأمده بكتب يسلمها إلى داعى دعاته فى الكوفة ومن يليه من الدعاة، ونزل له عن حقه فى الإمامة ، وأوصى أن يبدأ بث الدعوة عند تمام المائة سنة للهجرة (٧١٨م).

ولما استولى العباسيون على السلطة دون العلويين (بحكم الميراث!!) ظل هؤلاء يتطلعون إليها ويتطمّعون فيها ويرنون الى الخلافة ، فقاموا بثورات عدة على العباسيين انتهت كلها بالفشل والإخفاق ، ومن ثم اتجهت الدعوة العلوية إلى العمل فى الخفاء والتحرك فى الظل حتى تقى نفسها بطش الخلفاء وكيما تضمن عدم إجهاضها فى كل حين.

وممن عملوا فى السر والخفاء عبد الله بن ميمون القداح (نسبة إلى قدح العيون باجراء عملية جراحية تزيل المياه البيضاء منها). ودعا عبد الله بن ميمون هذا إلى عبيد الله المهدى، واتجهت أنظار عبيد الله بن ميمون إلى المغرب، لبعدها عن مقر الخلافة فى بغداد ، ولوجود دول شبه مستقلة بها، وربما لقربها من مصر، ومن ثم فقد أرسل إليها أبو عبد الله الشيعى (٢٨٥ هـ - ٩٤٥ م) حيث حارب ابراهيم بن الأغلب. وفى سنة ٢٩١ هـ استقر الشيعة فى المغرب ونجحوا فى إقامة دولة لهم فسافر إليهم عبيد الله المهدى ودعى له يوم جمعة بمدينة رقادة . وما إن استقر الحكم لعبيد الله المهدى حتى قتل أبا عبد الله الشيعى وأخاه (كما فعل العباسيون من قبل مع أبى مسلم الخراسانى!!). واستطاع المعز لدين الله الفاطمى (الخليفة الرابع) أن يقضى على دولة الأدارسة (فى تونس) بعد أن حكمت زهاء قرنين . وبسقوط دولة الأغالبة ثم دولة الأدارسة دانت بلاد المغرب كلها للفاطميين، فتطلعوا إلى حكم مصر.

كانت مصر مطمعا للفاطميين كما كانت مغنما لغيرهم ، لأن ولاتها كانوا يحكمون المدينتين المقدستين مكة والمدينة (ibso facto) هذا فضلا عن مكانة مصر فى العالم الإسلامى، وثروتها العظيمة ، وتاريخها المجيد، وموقعها الفريد.

وحاول الفاطميون غزو مصر مرات عديدة منذ أن بدأت دولتهم (سنة ٢٦٧ هـ ، ٩٠٩ م)، فغزوها فى السنوات ٣٠١ هـ (٩١٣ م) ، ثم ٣٠٧ هـ (٩١٩ م) ، ثم ٣٢١ - ٣٢٤ هـ (٩٦٨ - ٩٦٩ م)، ثم نجحوا أخيرا حيث دُعى للخليفة الفاطمى على المنابر فيها (شهر محرم سنة ٣٥٩ هـ).

وساعد الفاطميين على غزو مصر أن المسلمين فيها كانت ميولهم مع علىٍّ بن أبى طالب منذ أحداث الفتنة الكبرى. فخلال هذه الفتنة مال أهل البصرة إلى واليهم طلحة بن عبيد الله وجنح أهل الكوفة إلى واليهم الزبير بن العوام؛ أما أهل مصر فقد شايعوا علىّ بن أبى طالب. ولعل من أسباب ذلك أن محمد بن أبى بكر (عديل الحسين بن على بن أبى طالب) عاش فى

مصر زمنا ، وكان بها خلال تلك الفتنة ، حتى قتل بها فيما بعد. ومن جانب آخر، فقد كان كافور الإخشيدى - لضعفه وخوفه من الغزاة الفاطميين - قد تلقى بالقبول دعاتهم الذين قدموا عليه من قبل المعز لدين الله الفاطمى للاعتراف بسيادته . ودعا كافور كثيرا من رجال بلاطه وكبار موظفى دولته إلى تقديم الولاء إلى الخليفة الفاطمى. وعزْمُ كافور الإخشيد على تحويل طاعته من العباسيين إلى الفاطميين كان أمرا مختمرا فى ذهنه، أدت إليه حالة مصر الداخلية فى سنى حكمه مما دفعه الى الاعتقاد بأن عهد الاخشيديين قد آذن بالزوال، وهو أمر سهل للفاطميين غزو مصر من الخارج بعد أن كانت قد غزيت من الداخل.

وعندما استقر الفاطميون فى مصر أسسوا مدينة القاهرة لتكون عاصمة لهم بدلا من الفسطاط ثم شرعوا فى غزو الشام، فحدث بينهم وبين القرامطة نزاع بسبب ذلك، فقد كانت دمشق تدفع الجزية إلى زعيم القرامطة ردحا من الوقت ، ثم انقطعت هذه الجزية عن القرامطة بعد استيلاء الفاطميين على الشام . ووقعت حرب بين الحسن القرمطى الملقب بالأعصم والمعز لدين الله الفاطمى من جراء ذلك. وفى الحرب ، انتصر القرامطة فترة وهددوا مصر ذاتها ثم هُزموا فيما بعد.

واستقر سلطان الفاطميين فى مصر والشام والحجاز. وأدى بعدهم عن المغرب إلى أن يفقدوها . فقد أعلن استقلال افريقية (تونس) بلكين بن زيرى بن مناد شيخ صنهاجة إحدى قبائل البربر، وأسس الدولة الزيرية سنة ٣٦٢ هـ ، ثم حذا الحماديون حذوه سنة ٣٩٨ هـ. وفى سنة ٤٤٣ هـ خلال عهد الخليفة المستنصر زال الحكم الفاطمى عن كل بلاد المغرب .

* * *

والخلافة الفاطمية مثلها مثل الخلافتين الأموية والعباسية كانت خلافة وراثية ، يتوارثها الابن عن أبيه أو تؤول إلى الأقرب عصبة من الخليفة. ويطلب الخليفة بعد أن يولّى بيعة الناس فمن أبى أو اعترض أو تمهل كان السيف جزاءه والقتل عقابه.

ولم يستطل سلطان الخلفاء؛ فمنذ الوهلة الأولى كانت السلطة الحقيقية فى يد الوزراء . ثم تعاظمت سلطة الوزراء مع الوقت حتى زالت الدولة الفاطمية ذاتها. وكان أغلب هؤلاء الوزراء من غير العرب ؛ فجوهر الصقلى - الذى غزا مصر - مولى من صقلية، وبدر الدين الجمالى كان أرمنيا وكذلك ابنه الأفضل الجمالى. وهذه السطوة التى كانت للوزراء أدت بهم إلى أن يتلقبوا بالملوك ، فكان الوزير ملكا، ومن هؤلاء الوزراء الملوك الملك رضوان والملك الصالح (ابن رزيك) والملك الأفضل وغيرهم. وحدث فى عهد الخليفة الحافظ أن الوزير أحمد بن الأفضل الملقب بالأكمل ، استهانة بأمر الخليفة، شله عن التصرف ثم عزله ومنع ذكر اسمه فى الخطبة (فى الجمعة والعيدين). ومن ناحية أخرى فقد أدت سلطة الملك (الوزير) الواسعة وسلطانه المطلق وقدرته على الأموال والأعناق ، أدى ذلك إلى أن يتنازع كثير على الوزارة

وأشهر نزاع ذلك الذى حدث بين شاور وضرغام، فأدى إلى استعداء حاكم الشام نور الدين بن زنكى وتدخله فى شئون مصر (مما انتهى إلى إنشاء الدولة الأيوبية فيما بعد) ، كما أدى إلى الاستعانة بالفرنجة ، وهو الذى طمعهم فى مصر ويسر لهم دخولها.

فقد تنازع على الوزارة (أو على الملك) شاور والى الصعيد وضرغام أمير البرقية (جنود من برقة) . ولما لم يستتب الأمر لأحدهما ، طلب شاور معونة نور الدين بن زنكى صاحب الشام كما طلب مساعدة الفرنجة (من الصليبيين) الذين كانوا منذ عهد المستعلى قد بدأوا يغيرون على سواحل الشام بسبب استثارة الحاكم بأمر الله لهم (كما سوف يلى). وأرسل ابن زنكى قائده أسد الدين شيركوه على رأس جيش إلى مصر فيه صلاح الدين الأيوبى ابن أخى هذا؛ غير أن شيركوه ترك مصر للفرنجة (الصليبيين) مقابل ٥٠.٠٠٠ دينار ، فعاد هؤلاء إلى احتلال مصر. ثم وَلى صلاح الدين الوزارة خلفا لعمه شيركوه فحارب الفرنجة حتى أجلاهم عن مصـــر.

وكان صلاح الدين الأيوبى سنيا ، فأسند المناصب الدينية فى مصر إلى الفقهاء السنيين فبدأ نفوذ السنة يتزايد. ولما سقطت سلطة الخليفة العاضد وصارت إلى الحضيض رغب نور الدين بن زنكى فى إحلال اسم الخليفة العباسى فى الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمى ، وتردد صلاح الدين، غير أن رجلا من فارس قام ودعا للخليفة العباسى (أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧ هـ، ١١٧١م). وتوفى الخليفة العباسى فى العاشر من المحرم دون أن يعرف هذا الذى حدث بعزله. بذلك سقطت الدولة الفاطمية وعادت مصر ولاية فى الخلافة العباسية بعد انقطاع دام مدة قرنين وثمانى سنوات.

* * *

وكان أغلب الخلفاء الفاطميين - كغيرهم من الخلفاء - حديثى السن لم يبلغوا مبلغ الحكمة والحنكة قبل أن يولوا الحكم ، وبعضهم وَلى ومات طفلا لم يصل إلى مرتبة الشباب. فالمعز لدين الله الفاطمى وَلى الخلافة وعمره حوالى أربعين سنة وتوفى وعمره يزيد على الخامسة والأربعين ببضعة شهور، والعزيز وَلى الخلافة وعمره ثمانية عشر عاما وتوفى وعمره اثنان وأربعون عاما، والحاكم بأمر الله ولى الخلافة وعمره أحد وعشرون عاما وتوفى وعمره ستة وثلاثون عاما وبضعة شهور. والمنصور وَلى الخلافة وعمره خمس سنوات وبضعة أشهر وتوفى وعمره حوالى أربعة وثلاثين عاما، والفائز وَلى الخلافة وعمره خمس سنوات ومات وعمره أحد عشر عاما.

والخلافة الفاطمية كانت ، بكل مقياس ، ومن أى جانب ، تهديدا للخلافة العباسية وانتقاصا لها. فإن تكن هى على حق فالعباسية تكون على باطل، وإن تكن العباسية على أصول فالفاطمية تكون على ضلال . لذلك يرى بعض المؤرخين أن الخلافة الفاطمية عدوان

على الخلافة الإسلامية ولاتعد خلافة اسلامية بأى حال. وقد بلغ تهديد هذه الخلافة للخلافة العباسية أن دُعى للخليفة المستنصر على منابر بغداد لمدة سنة ، وكان قد دُعى للمعز لدين الله الفاطمى بمكة بينما ظلت الدعوة فى المدينة للمطيع العباسى.

وذهب تخوف العباسيين من الفاطميين الى أن حثوا الروم البيزنطيين على انتزاع بلاد الشام منهم.

الخلافة المؤلهة

كان من شأن القهر والضغط والكبت الذى لحق بالعلويين إبّان الخلافتين الأموية والعباسية أن لجأوا إلى التقية والسرية والباطنية.

فقد كان على العلوى الشيعى أن يظهر غير ما يبطن وأن يعلن غير ما يخفى ، وربما قال ما لا يؤمن به أو تكلم بما لا يعتقد فيه ، تقية من الإيذاء وحماية من الضرر ووقاية من القتل، حتى صارت التقية مبدأ من مبادىء الشيعة وأصلاً من أصولهم. وروى فى ذلك عن الإمام جعفر الصادق (الإمام الشيعى السادس) أنـه قال : التقية دينى ودين آبائى ؛ وقال : من لا تقية له لا دين له .

وانتهج العلويون الشيعة فى الدعوة إليهم أساليب سرية ومناهج خفية وتعاليم رمزية حتى لا ينكشف أمرهم، أو يُصدم بدعوتهم من يدعى إليها ؛ ومن ثم تعين ألا يعرف دعوتهم إلا من يوثق فيه، حتى يضمنوا الذيوع والإنتشار دون ما ضربات تُجهض أو حملات تفنى .

واتبع العلويون الشيعة فى تفسير القرآن نظام الباطنية [٢] ، فكانوا - وما زالوا - يقولون إن كل آية قرآنية لها معنى ظاهر يتبعه أهل السنة ومعنى باطن لا يعرفه إلا أئمة الشيعة يلقنونه أتباعهم بدرجات وفقا لاستعداداتهم. ومن هذا التفسير الباطنى تكون لهم تراث كامل يكاد يخالف، بل ويناقض، كل التراث السنى من أكبر كبائره حتى أصغر صغائره. [٣]

وفى هذا الجو المنتشر من التقية والسرية والباطنية كان يمكن أن يعمل شخص مجهول أو جماعة غامضة أو هيئة سرية لأغراض معينة، بادعاء الشيعية، دون أن يكشف الأمر أو تتضح الحقيقة . هكذا ظهر عبدالله بن ميمون القداح الاسماعيلى . والاسماعيلية فرقة شيعية تخالف الإمامية فى أنها تدعى أن الإمام جعفر الصادق نص على أن تكون الخلافة لابنه اسماعيل (الإمام السابع فى هذا الاعتقاد) والذى اختفى حال حياة والده، ،وصار أخوه موسى الكاظم هو الإمام السابع فى سلسلة أئمة الشيعة الإمامية الاثنى عشرية.

وعبدالله بن ميمون القداح لا يُعرف له نسب على وجه التحقيق، طالما كان الخفاء حريا بإخفاء كل حقيقة. فثم من يقول إنه محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق تسمى باسمه ذاك تقية وخفاء. وثم آخرون يقولون إن عبدالله بن ميمون كان يهوديا انتهز أسلوب الشيعة فى

العمل السرى والخفى ودخل فى الدعوة الاسماعيلية يتخذها حيلة لضرب الإسلام وتغيير شريعته. وآخرون يقولون إن عبدالله بن ميمون تزوج من أرملة يهودى وأنجب منها أبا محمد عبيد الله المهدى (الخليفة الفاطمى الأول). وفريق غيرهم يرى أن أبا محمد عبيد الله المهدى هذا هو ولد اليهودية من زوجها اليهودى وأنه ليس ولد عبد الله بن ميمون القداح،وإنما لحظ عليه ميمون النجابة فتبناه ودعا إليه بالخلافة.

والاتجاه الذى يقول إن عبد الله بن ميمون القداح اتخذ الدعوة الاسماعيلية سبيلا لهدم الاسلام وتقويض شريعته يقول فى ذلك إنه كان من كبار الشعوبية رجل موسر جدا اسمه محمد بن الحسن جهار يسكن بنواحى الكرج وأصبهان، وأنه كان يبغض العرب ويذمهم ويجمع معايبهم، فكان كل من طمع فى نواله تقرب إليه بذم العرب. وسمع به عبد الله بن ميمون القداح فسار إليه وتفاتحا الحديث وأظهر عبد الله من مساوئ العرب والطعن عليهم أكثر مما عند الشعوبى فاشتد اعجابه به واستغرب أن يعمل بالطب (لا بالدعوة) فقال عبد الله له : إنما جعلت ذلك ذريعة لما وراءه، ألقيه فى الناس وإلى من أسكن إليه على مهل ورفق من الطعن على الإسلام.. وقال : لاتظهر مافى نفسك للعرب... والزم التشيع والبكاء على أهل البيت فإنك تجد من يساعدك من المسلمين ويقولون هذا هو الإسلام. وسب أبا بكر وعمر، وانع عليهما عداوة الرسول وتغيير القرآن وتبديل الأحكام، فإنك إذا سببتهما سببت صاحبهما، فإذا استوى لك الطعن عليهما فقد اشتفيت من محمد، ثم تعمل بعد ذلك فى استئصال دينه.

ويتساند هذا الرأى إلى أنه ظهر من عبد الله بن ميمون لبعض من اختارهم التعطيل (أى تعطيل الفروض) والإباحة (أى إباحة المحرمات) والمكر والخديعة فأذاعوه، فثارت به الشيعة والمعتزلة ومن ثم فر إلى البصرة وأقام فى أسرة عقيل بن أبى طالب مدعيا انتماءه إليهم، ولما حامت حوله الشبهات رحل إلى الشام وأقام فى سلمية إلى أن مات بها (مابين سنتى ٢٧٠ - ٢٧٤ هـ).

هذا المطعن الخطير فى أهل العبيديين (نسبة إلى أبى محمد عبيد الله المهدى أول الخلفاء) الذين تسموا بالفاطميين (نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت النبى صلى الله عليه وسلم) والمجرحْ الغائر فى نسبهم ذهب إليه الخلفاء العباسيون وقالوا به. ففى شهر ربيع الآخر من سنة٤٠٢ هـ (١٠١١م) كتب الخليفة القادر العباسى محضرا فى معنى الخلفاء المصريين (الفاطميون) والقدح فى أنسابهم وقرئت النسخ ببغداد وأخذت عليها خطوط (توقيعات) القضاة والأئمة والأشراف. وجاء فى هذا المحضر عن الفاطميين «..هم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمى، إخوان الكافرين، ونطف الشياطين... (شهدوا جميعا «الموقعون»)أن الناجم بمصر وهو منصور ابن نزار الملقب بالحاكم- حكم الله عليه بالبوار والخزى والنكال- ابن معد بن إسماعيل بن عبدالرحمن بن سعيد.. الذى لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله وتلقب بالمهدى، هو ومن

تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس- عليه وعليهم اللعنة- أدعياء خوارج لانسب لهم فى ولد على بن أبى طالب، وأن ذلك باطل وزور، وأنهم لا يعلمون أن أحدا من الطالبيين توقف عن إطلاق القول فى هؤلاء الخوارج أنهم أدعياء. وقد كان هذا الإنكار شائعا بالحرمين فى أول أمرهم بالمغرب، منتشرا انتشارا يمنع من أن يدلّس على أحد كذبهم، أو يذهب إلى وهم تصديقهم، وأن هذا الناجم بمصر (الخليفة الفاطمى) هو وسلفه كفار وفساق وفجار وزنادقة، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون، فقد عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادّعوا الربوبية...»

وقد تكرر هذا المعنى فى محضر آخر حرر سنة ٤٤٤هـ، سنة ١٠٥٢م؛ ومحضر ثالث حرر سنة ٤٨٨هـ ، سنة ١٠٥٦م.

هذا هو رأى أمراء المؤمنين الخلفـــاء العباسيين فى أمراء المؤمنين الخلفـــاء الفاطميين. فلئن صح فإن الخلافة الفاطمية خارجة عن الإسلام وخارجة على الشريعة، ولئن لم يصح فإن الخلافة العباسية تكون قد تردت فى تكفير أمراء المؤمنين الخلفاء الفاطميين والطعن على نسبهم واتهامهم بكل كبيرة!!

والذى ذهب اليه الخلفاء العباسيون عن الخلفاء الفاطميين كان شائعا بين المصريين ذائعا بين المسلمين (كما قالوا) وعبر عنه المصريون شعرا. فعندما صعد إلى المنبر الخليفة العزيز فى يوم جمعة أوائل أيام خلافته رأى ورقة كُتب عليها :-

إنــا سمعـنا نسـبا منكـرا .·. يُتلى على المنبر فى الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقا .·. فأذكر أبـا بعد الأب الرابع
وإن تُــرد تحقـيق ما قلــته .·. فأنسب لنا نفسك كالطائع[٤]
أو فـدع الأنسـاب مستورة .·. وادخل بنا فى النسب الواسع
فإن أنســاب بـنى هاشـــم .·. يقـصر عنهـا طمع الطـامع

ما جاء فى محاضر الخلفاء العباسيين عن الخلفاء الفاطميين- وخاصة ادعاء الربوبية- يجد له أصلا فى تصرف هؤلاء . فقد أجترءوا على الألوهية وادّعوا مقام الربوبية، كما خرجوا على المواضعات الإسلامية، وجنحوا إلى تقويض الشريعة ذاتها، بل وجهر القرامطة (وهم اسماعيلية) بذلك.

فعندما وصل أول الخلفاء الفاطميين عبيد الله المهدى إلى المغرب ودخل مدينة رقادة خاطبه الشاعر ابن هانئ الأندلسى قائلا :-

حــل برقــادة المســيح .·. حــل بهـا آدم ونـــوح
حل بها أحمد المصطفى .·. حل بها الكبش والذبيح

حل بها الله ذو المعالى .'. وكل شئ سواه ريح

بهذا تكون الخلافة قد ابتدأت وهى تزعم أن الخليفة هو الله ذاته، وأنه كذلك أحمد المصطفى (محمد صلى الله عليه وسلم) والمسيح وآدم ونوح واسماعيل (أو اسحاق الذبيح)، وهو اجتراء شديد على الإسلام وافتراء واضح على الله.

وكان من نتيجة هذا الافتراء وذلك الاجتراء أن كانت صيغة أيمان أهل أفريقية تقوم على صيغة تأليه الخليفة و فتقول «وحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدى الذى برقادة»

وغالى ابن هانئ الأندلسى فى أشعاره التى ينسب فيها الألوهية والنبوة إلى الخلفاء، فقال عن المعز لدين الله الفاطمى:-

هو علة الدنيا ومن خلقت له .'. ولعلة ما كانت الأشياء

ولك الجوارى المنشآت مواخرا .'. تجرى بأمرك والرياح رخاء

فعنت لك الأبصار وانقادت لك ال .'. أقدار واستحيت لك الأنواء

لا تسألن عن الزمان فإنه .'. فى راحتيك يدور حيث تشاء

ويقول عن ذات الخليفة :-

تدعوه منتقما عزيزا قادرا .'. غفار موبقة الذنوب صفوحا

اقسمت لولا أن دعيت خليفة .'. لدعيت من بعد المسيح مسيحا

شهدت بمفخرك السماوات العلى .'. وتنزل القرآن فيك مسيحا

ويقول :-

ما شئت لا ماشاءت الأقدار .'. فاحكم فأنت الواحد القهار

وكأنما أنت النبى محمد .'. وكأنما أنصارك الأنصار

هذا الذى تجدى شفاعته غدا .'. حقا وتخمد أن تراه النار

ويقول :-

وروح هدى فى جسم نور يمده .'. شعاع من الأعلى الذى لم يجسّم

فأقسم لولم يأخذ الناس وصفه .'. عن الله لم يعقل ولم يتوهم

ويقول :-

هذا مَعَدُّ والخلائق كلها .'. هذا المعز متوجا والدين

هذا ضمير النشأة الأولى التى .'. بدأ الإله وغيبها المكنون

النـــور أنت وكـل نـور ظلمـة .'. والفـوق أنت وكـل فـوق دون

فارزق عبادك منك فضل شفاعة .'. واقرب بهم زلفى فأنت مكين

ويقول :-

لو أبصرك الروم يومئذ دَرَت .'. أن الإله بما تشاء كفيل

ويقول :-

هذا ابن وحى الله تأخذ هديها .'. عنه الملائك بكرة وأصيلا

وما قاله ابن هانئ الأندلسى لم يكن مجرد قول شاعر، بل كان اعتقاد الخلفاء وإيمان المعز لدين الله، فلقد كتب المعز خطابا شهيرا إلى حسن الأعصم القرمطى عندما اختصما على جزية الشام جاء فيه :-

«من عبدالله ووليه، وخيرته وصفيه.... رسوم النطقاء، ومذاهب الأئمة والانبياء، ومسالك الرسل والأوصياء... صلوات الله علينا.. إن الله عز وجل إذا أراد أمراً قضاه، وإذ قضاه أمضاه، وكان من قضائه فينا قبل التكوين، أن خلقنا أشباحا، وأبرزنا أرواحا، بالقدرة مالكين، وبالقوة قادرين، حين لا سماء مبنية، ولا أرض مدحية، ولا شمس تضئ، ولا قمر يسرى، ولا كوكب يجرى، ولا ليل يجن، ولا أفق يكن، ولا لسان ينطق، ولا جناح يخفق، ولا ليل ولا نهار، ولا فلك دوار، ولا كوكب سيّار، فنحن أول الفكرة وآخر العمل .... ما فى الآفاق من معجزات، وأقدار باهرات.. من كثيف ولطيف، وموجود ومعدوم، وظاهر وباطن، ومحسوس وملموس... كل ذلك لنا، ومن أجلنا، دلالة علينا، وإشارة إلينا... ونحن ننتقل فى الأصلاب الزكية، والأرحام الطاهرة المرضية.. وكل ذلك دلالات لنا، ومقدمات بين أيدينا، وأسباب لإظهار أمرنا... فما من ناطق نطق، ولا نبى بُعث، ولا وحى ظهر، إلا وقد أشار إلينا.. إنا كلمات الله الأزليات، واسماؤه التامات، وأنواره الشعشعانيات،وأعلامه النيرات، ومصابيحه البينات، وبدائعه المنشآت، وآياته الباهرات، وأقداره النافذات، لا يخرج منا أمر، ولا يخلو منا عصر، وإنّا لكما قال الله سبحانه وتعالى «ومايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة، إن الله بكل شئ عليم».

وقد ادعى الحاكم بأمر الله الألوهية وكان أصحابه عندما يرونه فى الطريق يركعون ويصيحون قائلين : أنت الواحد الأحد والمحيى والمميت.

وقبل أن يتأله كان الحاكم بأمر الله قد رسم للخطباء أن يقولوا فى الخطبة «اللهم صلى على محمد المصطفى وسلم على أمير المؤمنين على المرتضى. اللهم وسلم على أمراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين. اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك (خليفة الله!!)

وفى خطبة منبرية من عهد الحاكم بأمر الله جاء «.. اللهم اجعل نوامى صلواتك، وزواكى بركاتك، على سيدنا ومولانا إمام الزمان، وحصن الإيمان ، وصاحب الدعوة العلوية والملة النبوية ، عبدك ووليك أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الراشدين، وأكرمت أجداده المهديين. اللهم وفقنا لطاعته ، واجمعنا على كلمته ودعوته ، واحشرنا فى حزبه وزمرته.».

وفيما يتعلق بالشريعة ، فإن عبيد الله المهدى أظهر التشيع القبيح وسب أصحاب النبى وأزواجه عدا على بن أبى طالب والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وسلمان الفارسى وأبى ذر الغفارى، وزعم أن أصحاب النبى ارتدوا بعده غير هؤلاء ، وأمر الفقهاء أن يفتوا بمذهب.. منه إحاطة البنات بالميراث(٥).

وأمر الخليفة القائم أبو القاسم بن عبيد الله بلعن الأنبياء وأطلق مناديا ينادى بلعن الغار ومن لاذ به.. وكان يكاتب أبا طاهر القرمطى (لأن الفاطميين والقرامطة جماعة اسماعيلية واحدة) وقد نصح له بأن يحرق الكعبة والمصاحف ، واستجاب أبو طاهر الجبابى لذلك فاعتدى على الكعبة ونزع منها الحجر الأسود كما أنف تفصيله.

وكانت للفاطميين عقائد مذهبية فلسفية مؤداها أن عدد الرسل الذين جاءوا بالشرائع سبعة، ولكل من هؤلاء الرسل صاحب يأخذ عنه دعوته ويكون له ظهيرا فى حياته وخليفة له بعد وفاته. وهؤلاء الأئمة السبعة الأصحاب أو المساعدون هم: الأساس ثم الصامتون، لثباتهم على شريعة اقتفوا فيها أثر واحد من أولهم. ولابد عند انقضاء هؤلاء السبعة ونفاد دورهم من استفتاح دور ثان يظهر فيه نبى ينسخ شرع من مضى قبله، ويكون الخلفاء من بعده ، ثم يكون بعدهم نبى ناسخ يقوم بعده سبعة .. وهكذا حتى يقوم النبى السابع من النطقاء فينسخ جميع الشرائع التى كانت قبله، وهو صاحب الزمان الأخير. وفى اعتقادهم أن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق هو عبد الله بن ميمون، وأنه اتخذ هذا الاسم تخفية له وتعمية عنه، وأن شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) ستنسخ بهم.

ونتيجة لهذا المعتقد فقد صرح القرامطة بنسخ شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) وجهروا بذلك إذ قال شاعرهم البهاء الجندى عن على بن فضل القرمطى:

خذى الدف ياهذه والعبى ∴ وغنى هزازيك ثم اطربى
تولى نبىّ بنى هاشم ∴ وهذا نبى بنى يعرب
لكل نبىّ مضى شرعة ∴ وهذى شريعة هذا النبى
فقد حط عنا فروض الصلاة ∴ وحطّ الصيام ولم يتعب
إذ الناس صلوا فلا تنهضى ∴ وإن صوّموا فكلى واشربى
ولاتطلبى السعى عند الصفا ∴ ولا زورة القبر فى يثرب

* * *

ولربما كان للعداوة الشديدة والخصومة العنيفة بين العباسيين والفاطميين مايدفع العباسيين وأنصارهم الى المغالاة فيما نسب لبعض الخلفاء الفاطميين ، لكن اختلاق كل التاريخ وابتداع كل الواقعات ونحل كل الأقوال أمر من الصعوبة بمكان، هذا فضلا عن وجود بعض الوثائق الثابتة كالمحاضر التى حررها العباسيون والاشعار التى ذكرها ابن هانئ الأندلسى والكتاب الصادر عن المعز لدين الله الفاطمى وتصرفات الحاكم بأمر الله والأفعال التى صدرت عن القرامطة، والمعتقد الدرزى والمعتقد النزارى، وهى أمور تتضافر معا لتجعل مانسب إلى الفاطميين فى جوهره صحيح ثابت ، وأدنى إلى الحقيقة وأقرب إلى الصواب.

الاضطراب الدينى

يتسم عهد الخلافة الفاطمية بالاضطرابات الدينية الظاهرة. ولعل مرد ذلك عدم وجود سياسة مرسومة للخلفاء الفاطميين ، وعدم وضوح آرائهم ومعتقداتهم. فلأنهم باطنيون يخفون الآراء ويضمرون المعتقدات ويعملون فى السر ويتصرفون فى الخفاء ، فإن نتائج تصرفاتهم بدت وكأنها متذبذبة بغير سبب ظاهر متأرجحة دون مبرر مفهوم؛ مع أنها قد تكون متسقة وفقا لمخططهم السرى، مفهومة تبعا لأهدافهم المضمرة، متسلسلة مع نواياهم الخفية.

من مظاهر هذا الاضطراب ، التى أعلنت مرات، وأخفيت مرات، اعتقادهم أن روح الله، أو أن الله ذاته يتجسد فى الخليفة ، وأن الخليفة يحوز صفات الله ويحرز أسماءه؛ وهو اعتقاد يخالف الإسلام تماما ويجانب الإيمان كلية. هذا فضلا عن اجترائهم على لعن الأنبياء ، والصحابة ، واستعمالهم ألفاظا وعبارات لاتسمح بها التقاليد الإسلامية ولاتجيزها القواعد الشرعية.

وقد عملوا على لعن الخلفاء الثلاثة الأول (أبو بكر وعمر وعثمان) ولعن غيرهم من الصحابة، إذ عدوهم جميعا أعداء لعلى. وكان الخطباء يلعنون هؤلاء الخلفاء والصحابة من كافة المنابر ، ونقشت فضائل على وأولاده من بعده على السكة وعلى جدران المساجد بينما نقش سب الصحابة على جدران الجامع العتيق (جامع عمرو) فى الداخل والخارج وعلى أبواب الحوانيت والحجرات وفى المقابر.. وكانت العقوبة الصارمة تنزل بمن يمتدح أى خليفة من الخلفاء السنيين.

وألزم الفاطميون جميع الموظفين المصريين اعتناق المذهب الفاطمى الاسماعيلى، وحتموا على القضاة إصدار أحكامهم وفقا لهذا المذهب، وهو أمر دفع كثيرا من الموظفين المسلمين إلى اعتناق المذهب الشيعى، كما أدى إلى تحول بعض أهل الذمة عن مللهم واعتناق الإسلام ، واتباع المذهب الفاطمى الاسماعيلى بالذات، لكى يتولوا وظائف فى الدولة.

واشتد الفاطميون على أهل السنة ومنعوهم من إقامة مراسمهم. وضرب الخليفة العزيز رجلا مصريا وشهّر به فى المدينة لأنهم وجدوا عنده كتاب الموطأ للفقيه السنى مالك بن أنس.

أبطل الخليفة العزيز صلاة التراويح (سنة ٣٧٢ هـ ، ٩٨٢ - ٩٨٣م) من جميع مساجد مصر، وكانت قد أبطلت فى سوريا؛ وذلك على اعتبار أن الذى نظم هذه الصلاة هو عمر بن الخطاب. وعندما صلى إمام مسجد صلاة التراويح فى عهد الحاكم بأمر الله أمر به فضُرب عنقه. ومنع الفاطميون صلاة الضحى ، وهى من صلوات السنة التى لايعترف بها الشيعة، وشهّروا بجماعة ضبطت وهى تصلى هذه الصلاة.

وأمر الحاكم بأمر الله أن تقام صلوات الظهر والعصر وفقا لمواعيد محددة وليس تبعا لأوضاع الشمس. وأصدر مرسوما يجيز للناس صوم رمضان وفطر شوال بمقتضى حساباتهم الفلكية من غير تحقق رؤية الهلال.

واعتزم الحاكم بأمر الله نبش قبرى أبى بكر وعمر فى المدينة، ورشا رسلا لهذا الغرض. وكاد ينجح لولا أن اكتُشفت المؤامرة وأحبطت.

وحاول الحاكم بأمر الله هدم كنيسة القيامة بالقدس ، وكانت محاولته من أسباب الحروب الصليبية، إذ استفزت المسيحيين الغربيين فهبوا فى حرب دينية للذود عن أحد مقدساتهم، إذ يعتقدون - كما يعتقد كل المسيحيين - أن الكنيسة قد أقيمت فى المكان الذى يقال ان السيد المسيح صلب ودفن فيه ثم قام منه.

وادعى الحاكم بأمر الله الألوهية ، وخوطب صراحة بعبارات وأوصاف الجلالة- على نحو ماسلف - مما أدى إلى نشوء العقيدة الدّرزية التى لم تزل قائمة فى بعض أنحاء الشام. وإذ رفض الوزير الأفضل الجمالى تنصيب نزار بن المستنصر خليفة لأنه كان قد سبه يوما من قبل وفاة أبيه؛ فقد نشأت عن ذلك عقيدة النزارية التى ترى أحقية نزار بالخلافة ، وكان الحشاشون على هذا المعتقد . فكأن مسألة الخلافة (أو الإمامة) - أى الشئون السياسية - أدت أصلا إلى نشوء المذهب الاسماعيلى (الفاطمى) اعتقادا بأن اسماعيل بن جعفر الصادق هو الأولى بالإمامة من شقيقه موسى الكاظم، ثم نشوء المعتقد النزارى ادّعاء بأن نزار بن المستنصر أولى بالخلافة ، هذا فضلا عن العقيدة الدرزية . أى أن الاسماعيلية شقوا عن الإسلام ثلاث فرق : فرقتهم الاسماعيلية (ومنها القرامطة) ، وفرقة الدروز ، وفرقة النزارية.

وتميز عهد الخلافة الفاطمية عموما بمحاباة غير المسلمين من أهل الذمة اليهود والمسيحيين . ففيما عدا فترة من عهد الحاكم بأمر الله نزلت بهم محن شديدة ، فقد كان منهم الوزراء والمستشارون والقادة مثل عيسى بن نسطوروس وأبى نجاح وبهرام وفهد بن ابراهيم ومنشا اليهودى وأبو سعيد التسترى وغيرهم. وتزوج الخليفة العزيز زوجة مسيحية فصار أشد عطفا على المسيحيين ، وعين أخويها بطريقين للأسكندرية وبيت المقدس.

ووجد المسلمون المصريون من ميل الخلفاء الفاطميين إلى غير المسلمين، ومحاباتهم، وتوليتهم المناصب الكبرى، فكتب أحدهم شكاية للعزيز جاء فيها «بالذى أعز النصارى

بعيسى بن نسطوروس واليهود بمنشا بن ابراهيم القرار، وأذل المسلمين بك. إلا نظرتَ فى أمرى! »

وصاغ البعض مرارتهم تلك فى أبيات من الشعر تقول:

يهـــود هذا الزمـان قد بلغوا .·. غاية آمالهم وقد ملكوا

العـز فيهـم والمـال عندهــم .·. ومنهم المستشار والملـك

يا أهل مصر قد نصحت لكم .·. تهودّوا فقد تهود الفلك.

وأدت ضغوط المسلمين على الخلفاء ، وكثرة الشكوى والتعريض ، واضطراب عقل الحاكم بأمر الله إلى أن ينكب اليهود والنصارى وأن يشتد على كبار موظفيه منهم ويحملهم على الإسلام. وألزم المسيحيين لبس الغيار (أى المغايرة لثياب المسلمين) واشترط أن تكون ثيابهم وعمائهم شديدة السواد. ومنعهم من الاحتفال بأحد الشعانين وعيد الصليب وعمل الغطاس علي ضفاف نهر النيل وإظهار الاحتفال بأعيادهم ومواسمهم. وقبض على محابس (أوقاف) الكنائس والأديرة وأدخلها فى الديوان، وأحرق كثيرا منهم ومنعهم من شراء العبيد والإماء، وهدم بعض الكنائس وأباح مافيها للناس لنهبها، ومنعهم من ركوب الخيل والاقتصار على ركوب البغال والحمير بسروج ولُجُم غير محلاة بل من جلود سود ، ومنع دق أجراس الكنائس في القاهرة ، وحظر على المكارية (الحمارين) والنوتية (المراكبية) نقل أى ذمى. واشترط أن يضع الرجال من المسيحيين صلبانا من الخشب فى أعناقهم ، تكون زنة الصليب خمسة أرطال ، وأن يضع اليهود فى أعناقهم قطعة خشب مدورة بذات زنة صليب المسيحيين. ثم ألزم الجميع - بعد ذلك - الخروج من أرض مصر فرحلوا الى بلاد الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) وإلى بلاد النوبة والحبشة؛ ومن بقى منهم دخل فى الإسلام. وعندما تغيرت سياسة الحاكم عاد بعض من تم نفيهم من قبل وارتدّ منهم فى يوم واحد سبعة آلاف شخص.

* * *

من القواعد التى أظهرها حمزه وزير الحاكم بأمر الله وداعيه إلى عقيدته الجديدة التى أصبحت تعرف بالدرزية أن الله واحد ، وألوهيته لاتدركها العقول، وقد ظهر للبشر عدة مرات فى ناسوته (أى جسده) ثم ظهر لهم أخيرا باسم الحاكم فعمل من الأعمال مالا يدركه العقل البشرى، وأعماله كلها حكمة وأسرار غريبة للغاية ، ثم اختفى فلا يظهر إلا بعد مجيئه الأخـير.

فإذا كان ذلك هو الإسلام، فلقد فارق الإسلام الإسلام، وخالف الإيمان الإيمان ، وأصبحت عقائد مثل الإسماعيلية (والقرمطية) والدرزية والنزارية أقرب إلى معتقدات أخرى منها إلى شريعة الإسلام وأدخل فى لاهوت آخر يرفضه الإيمان ويعيبه المسلمون!

أحوال الخلافة

تعمل الدول جميعا، فى الماضى والحاضر، بأسلوب شبه متقارب، أسسه واحدة، سواء كانت تُدعى خلافة أو تسمى ملكية أو إمارة أو جمهورية أو غير ذلك. وهذا الأسلوب يستهدف، فى الغالب، بقاء نظام الحكم واستمرار ثباته. ومن أجل هذه الغاية يُعنى الحكام ما أمكن بأحوال الرعية (وهو الوصف الذى كان يُطلق على الشعب فيما مضى) أو أحوال المواطنين (كما يسمون فى العصر الحالى) حتى يعود ذلك على النظام عودا حسنا بالاستقرار الذى يثبت مراكز الحكام، وتحصيل الضرائب التي لاغنى عنها للانفاق على نظام الحكم، وعلى القوة العسكرية، وعلى ما يعد- فى عصره- مرافق عامة. وقد يفلح النظام، أو تساعده الظروف، فيحقق أمنا ورخاء؛ وقد يفشل، أو تخونه الظروف، فينتهى إلى عكس ذلك. فهدف الحكومة الأساسى - وخاصة فى العصور الماضية- أن تحقق الأمن الذى يبقيها وتصل الى الرخاء الذى يغنيها، فإذا ما عاد على الرعية (فى الماضى) خير من ذلك فهو تابع لخير نظام الحكم وليس العكس. وإذا كانت الأمور قد تغيرت فى العصور الحالية وعرفت الشعوب حقوقها، وصار لها صوت مسموع ورأى فعّال، وأصبحت نظم الحكم - فى الغالب - تعمل فى خدمة أهداف المواطنين، فإن ذلك لم يكن هو الأصل فى الأيام الخالية والنظم البائدة، وحتى القرن الماضى بالنسبة لبعض الدول، والقرن الحالى بالنسبة لبعضها الآخر. ونتيجة لهذا المعنى، فكثيرا ما كان الناس يربطون ما بين خيرهم وخير الحاكم، فإذا كان مسعود الطالع عاد ذلك عليه وعليهم بالخير، وإن كان منحوس الطالع رجع ذلك عليه وعليهم بالشر. بهذا ارتبط كل خير لهم وكل شر عليهم بشخص الحاكم. فإذا أعسرت الأحوال رجوا تغييره، وإذا أيسرت دعوا ببقائه. وهم فى الحالين سلبيون محايدون لايبتدرون تصرفا ولاينزعون إلى عمل ولايتجهون إلى تغيير، بل يقتصر كل فعلهم وغاية تصرفهم على مجرد الدعاء إلى الله والأمل فى أن يستجيب إلى دعائهم.

بفهم هذه القواعد يمكن فهم حال الخلافة الفاطمية، وحال كل خلافة أو ملكية أو إمارة أو جمهورية، وخاصة فى العصور البائدة. فمن طبائع الحال وبداهة الأمور أن يسعى الخلفاء الفاطميون إلى تحقيق أمن لهم وغنى بتحقيق أمن المواطنين ورخائهم. ولقد نجحوا - كما نجح غيرهم فى ذلك - مرات، ولكنهم فشلوا - كما فشل غيرهم - مرات أكثر.

وإذا ما كانت نظم الحكم المدنية أحيانا ما تكون شديدة الوطأة على المواطنين لمنعهم من الثورة عليها ولابتزاز أموالهم كضرائب، فإن نظم الحكم الدينية غالبا ماتكون عنيفة الوطأة على الرعايا تعمل عمل الدولة المدنية بصورة أقسى وبأسماء دينية.

وهذا المثل والتطبيق يبدو واضحا فى الخلافة الفاطمية كما ظهر من قبل فى الخلافة

العباسية ، وكلتاهما ادعت انها خلافة دينية . فهذه الخلافة - وتلك - لم تقم على أركان الدين ولم تنشر قيمه ولم تستقر على مبادئه ، فتكون مثلا ومثالا للدولة التى تؤسس على الدين فتجعل من قيمه فى العدالة والحرية والرحمة والمساواة تحقيقا لمجتمع أفضل من أى مجتمع آخر ، وترفيعا للانسانية كأرقى ماتكون الإنسانية، وإنشاء لدولة أعدل وأحسن من أى دولة أخرى. على العكس ، ظهرت هذه الدولة الدينية بما لايفرقها عن أى دولة أخرى ولا يميزها عن أى نظام آخر ؛ وزادت على ذلك أن تمت المظالم باسم الدين ووقعت المذابح تحت راية الشريعة ، وحدث اضطهاد دينى ومذهبى عنيف، لايحدث عادة فى الدولة المدنية، وانتهت الخلافة الفاطمية إلى شق ثلاث فرق عن الإسلام هى : الاسماعيلية (ومنها القرامطة)، والدّرزية ، والنزارية. وأضعفت جبهة المسلمين حين تنازعت هى والخلافة العباسية ، واستعدت عليهم الفرنجة والصليبيين. ثم زالت بعد ذلك فتنفس الناس الصعداء وذهبت فى زوايا التاريخ إلى غير رجعة.

ولم يبق من آثار الخلافة الفاطمية إلا نزعات شيعية اسماعيلية عند بعض عوام المسلمين فى مصر ، تقدس الأئمة وترفع الأولياء (الموتى) وتبالغ فى النظرة إلى أى عالم فى الدين أو أى مدّع بذلك ، وهى أمور تشوه صورة الإسلام الصحيح وتلوث وجه الإيمان الحق ، وتحول دون التقدم والسمو والارتقاء.

هوامش وتعليقات

(١) أغلب المراجع السابقة ، ويضاف إليها : -

1 - Encyclopedia Britannica; Macro, 1977 ; vol . 9 ; P. 932 .

2 - Encyclopedia Americana ; vol . 11; P. 50 .

3 - Ignaz Golziher; Introduction to Islamic Theology and Law, Translated by Andras and Ruth Hamori .

4 - Bernard Lewis; The Political Language of Islam.

5 - Bernard Lewis; The Assassan .

٦ - تاريخ مصر المعروف باسم « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » - ٣ أجزاء .

٧ - حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدول الفاطمية ، مكتبة النهضة المصرية .

٨ - ديوان ابن هانىء الأندلسى (بيروت)

٩ - على مبارك ، تاريخ مصر فى العصور الوسطى .

١٠ - أبو حامد الغزالى ، فضائح الباطنية .

١١ - محمد كامل حسين ، أصل الشيعة وأصولها .

١٢ - محمد عبد الله عنان ، الحكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية - القاهرة ١٩٥٩ .

١٣ - محمد كامل حسين ، طائفة الدروز : تاريخها عقائدها - دار المعارف بمصر .

(٢) فضائح الباطنية ، المرجع السابق .

(٣) وفى ذلك قال الكلينى أحد كبار فقهاء الشيعة : كل ماخالف إجماع أهل السنة فهو صحيح .

(٤) الطائع هو الخليفة العباسى الرابع والعشرين : الطائع لله أبو الفضل عبد الكريم بن المطيع .

(٥) أى أن يرث البنات (أو البنت) كل التركة إذا لم يوجد ولد؛ والقصد من المبدأ تبرير وراثة فاطمة للنبى ، ولخلافته ، وتوريثها من بعد إلى ذريتها دون غيرهم .

السلطنة العثمانية(١)

ثبت السلاطين

	هجرية	ميلادية
١- عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه	٦٨٠	١٢٨١
٢- أورخان الغازى	٧٢٦	١٣٢٥
٣- مراد الأول	٧٦٢	١٣٥٩
٤- بايزيد الأول	؟	؟
٥- محمد جلبى الغازى	٨١٢	١٤١٠
٦- مراد الثانى	٨٢٤	١٤٢١
٧-محمد الثانى	٨٥٥	١٤٥١
٨- بايزيد الثانى	٨٨٦	١٤٨١
٩- سليم الأول بن بايزيد	٩١٨	١٥١٢
١٠- سليمان بن سليم	٩٢٦	١٥١٩
١١- سليم االثانى	٩٧٤	١٥٦٦
١٢- مراد الثالث بن سليم	٩٨٢	١٥٧٤
١٣- محمد خان بن مراد	١٣٠٠	١٥٩٤
١٤- أحمد بن محمد خان	١٠١٢	١٦٠٣
١٥- مصطفى بن محمد خان	١٠٢٧	١٦١٧
١٦- عثمان بن محمد خان	١٠٢٨	١٦١٩
١٧- مصطفى بن محمد خان (للمرة الثانية)	١٠٣١	١٦٢٣
١٨- مراد الرابع بن أحمد	١٠٣٢	١٦٢٣
١٩- ابراهيم الأول بن أحمد	١٠٤٩	١٦٤٠
٢٠- محمد الرابع بن ابراهيم	١٠٥٨	١٦٤٨
٢١- سليمان خان الثانى	١٠٩٩	١٦٨٧
٢٢- أحمد الثانى بن ابراهيم	١١٠٢	١٦٩١
٢٣- مصطفى الثانى بن محمد الرابع	١١٠٦	١٦٩٥

٢٤- أحمد بن محمد	١١١٥	١٧٢٩
٢٥- محمود خان الأول	١١٤٣	١٧٥٠
٢٦- عثمان الثالث	١١٦٨	١٧٥٤
٢٧- مصطفى الثالث	١١٧١	١٧٥٧
٢٨- عبد الحميد بن أحمد	١١٨٨	١٧٧٤
٢٩- سليم الثالث	١٢٠٢	١٧٨٩
٣٠- مصطفى الرابع بن عبد الحميد	١٢٢٢	١٨٠٧
٣١- محمود الثانى بن عبد الحميد	١٢٢٣	١٨٠٨
٣٢- عبد المجيد خان بن محمود خان	١٢٥٤	١٨٣٩
٣٣- عبد العزيز بن محمود خان	١٢٧٧	١٨٦١
٣٤- مراد بن عبد المجيد خان	١٢٩٣	١٨٧٦
٣٥- عبد الحميد الثانى بن عبد المجيد	١٢٩٣	١٨٧٦
٣٦- محمد الخامس	١٣٢٧	١٩٠٩
٣٧- محمد السادس	١٣٣٧	١٩١٨
٣٨- عبد المجيد الثانى	١٣٣٩	١٩٢٠
* فصل السلطنة عن الخلافة	١٣٤١	١٩٢٢
* الغاء الخلافة	١٣٤٣	٣ مارس ١٩٢٤



السلطنة العدوانية

كانت أصول الترك أخلاطا تجمعت من لفيف من قبائل متباينة فى الأخلاق والعادات، ميالة بطبيعتها إلى العدوان بالغزو والغارات، جافية الخلق متوحشة السلوك. وفى سنة ٧٤٤م استظهرت عليهم قبيلة فجمّعتهم، ثم اعتنقوا الإسلام فيما بين القرنين التاسع والعاشر الميلادى. وقد ظلوا لطبيعتهم العدوانية - ورغم الإسلام - فى حروب مستمرة وغارات مستعرة فى كل اتجاه ومع كل شعب، حتى مع الخلافة الإسلامية والبلاد الإسلامية.

وقد ترأس الترك عدد من الزعماء انتهوا إلى الأمير عثمان الذى يعد المؤسس الحقيقى للدولة العثمانية، ومنه أخذت اسمها.

حاربت الدولة العثمانية الامبراطورية البيزنطية ومملكتى بلغاريا وصربيا، واستولت سنة ١٤٥٣ - فى عهد محمد الثانى - على القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية (وهى الاستانة حالا) فورثت أملاك هذه الامبراطورية. ثم غزت - فى عهد سليمان الثانى - معظم بلاد اليونان والجزائر والمجر، وكثيرا من أنحاء فارس وبلاد العرب؛ وصارت ولايات ترنسلفانيا والأفلاق والبغدان إيالات خاضعة لها. واستولت - كذلك - على كثير من أملاك الخلافة العباسية وعلى بعض مملكة الدولة الغزنوية لآل سبكستين والدولة السلجوقية فى الروم وفى كرمان والشام، ودولة المماليك فى مصر والشام، ودولة الأتابكة فى الموصل؛ وكثير من دول أوروبا وجزائر العرب وجزء عظيم من قارة أفريقيا وجزائر بحر الروم وغيرها.

ومع الانتصارات بدأت الهزائم، وبعد النجاح دخل الأفول، وإثر الفتوحات توالت الانكسارات. فقد هُزم الأسطول العثمانى سنة ١٥٧١ بواسطة الأسطولين الأسبانى والبندقى. واضطر العثمانيون إلى رفع الحصار عن فيينا سنة ١٦٨٣، وأكرهوا على عقد معاهدة كارلو ونزو سنة ١٦٩٩ حيث نزلوا عن بلاد المجر وممتلكات أخرى. ودخلت الدولة العثمانية فى حروب مع الروسيا فى القرن الثامن عشر فضاعف ذلك من انهيارها ومُنيت بهزائم كثيرة. وضاعت منها طرابلس فى حربها مع الإيطاليين (١٩١١ - ١٩١٢م). وأعلنت صربيا وبلغاريا ورومانيا استقلالها وكونت مع اليونان حلفا بلقانيا شن على الدولة العثمانية حربا حامية خسرت فيها معظم ماتبقى لها من أراض فى أوروبا... ثم بدأ الانهيار الأخير فى الحرب العالمية الأولى أمام ضربات البريطانيين والجيوش العربية فى العراق وفلسطين وسوريا. وبمقتضى معاهدة سيفر انتُزعت منها كل أملاكها.

وبنهضة الروسيا تحت حكم قيصرها بطرس الأكبر، وببدء انحلال الدولة العثمانية فى مطلع القرن الثامن عشر ساد انجلترا وبروسيا (ألمانيا فيما بعد) خوف من نتائج التوسع الروسى وهزائم العثمانيين، إذ تخوفت بريطانيا من أن يكون توسع الروسيا تهديدا لمصالحها الكبيرة بالهند، وخاصة أن الروسيا - مع ضعف الدولة العثمانية - بدأت ترسم خطة للاستيلاء على مضايق البسفور ومدينة القسطنطينية (الآستانة) وأن تبسط امبراطورية النمسا نفوذها على الأرضى البلقانية. ومع تتابع الحروب بين الروسيا والدولة العثمانية اكتسبت الروسيا بمقتضى صلح بوخارست سنة ١٨١٢م بعض المكاسب فى البحر الأسود. وبمقتضى صلح أدرنة اعترفت الدولة العثمانية باستقلال اليونان. وطالب قيصر روسيا بحق حماية الرعايا المسيحيين فى الدولة العثمانية، فتحالفت انجلترا وفرنسا لمد يد المعونة إلى هذه الدولة التى أصبحت تعد رجل أوروبا المريض. وفى سنة ١٨٧٨م وبمقتضى معاهدة سان ستيفانو أملت الروسيا على الدولة العثمانية شروطا صعبة. وفى سنتى ١٩١٢ - ١٩١٣ نشبت الحروب البلقانية التى انتهت بتمزيق أوصال الامبراطورية العثمانية فى أوروبا. وعلى ماسلف البيان اكتمل انهيار الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى.

وفيما يتعلق بمصر فإن فرنسا غزتها سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨م) فلم تصد الدولة العثمانية هذا الغزو ولم تساعد على التخلص منه. ثم غزت بريطانيا مصر بحملة فريزر سنة ١٨٠١م ودفعها المصريون وحدهم دون أى مساعدة من الدولة العثمانية (دولة الخلافة؟). وفى سنة ١٨٨٢ احتلت بريطانيا أرض مصر دون أن تقفها الدولة العثمانية أو تحاربها أو تتخذ أى إجراء لإزالة الاحتلال وإنهاء الاستعمار البريطانى.

وهكذا فإن الدولة العثمانية لم تكن دولة نصر دائم أو نجاح أبدا، وإنما كان شأنها كشأن أى دولة محاربة، يتداولها النّصر والهزيمة ويتعاورها النجاح والفشل ويتغايرها الاقدام والاحجام. وبعد أن نجحت وانتصرت بضع سنين، فشلت وانهزمت سنوات بعدها. وكانت فى فتوتها رجل أوروبا القوى فصارت فى شيخوختها رجل أوروبا المريض. وعاشت أقل من قرنين فى شبه نجاح، ثم استمرت قرنين فى فشل مؤكد.

خلافة أم سلطنة ؟

نشأت الدولة العثمانية، واستقرت بعيدا عن الخلافة الإسلامية التى كانت قد اختُلقت وانتُحلت فى مصر بعد سقوط بغداد بفترة، على ماأنف بيانه. ولم تكن الدولة العثمانية - مع ذلك - فى توافق أو تساكن مع (مظاهر) الخلافة العباسية، بل ظلت تغير على أملاكها ودولها وتقتطعها منها لتضيفها إليها هى. وفكر العثمانيون أكثر من مرة فى غزو مصر - مقر الخلافة - والاستيلاء عليها، إلى أن نجح فى ذلك السلطان سليم الأول - تاسع سلاطين

الدولة العثمانية - سنة ١٥١٧م وشنق طومان باى ملك مصر آنذاك (من المماليك) وانتهت بهذا دولة المماليك الثانية (بعد مااستمرت فى حكم مصر ١٢١ سنة وكانت جملة سلاطينهم أو ملوكهم ٢٢ شخصا).

والسلطان سليم هذا شخصية سوء بكل معيار وليس شخصا سويا بأدنى درجة. من دلائل ذلك أنه تآمر على والده السلطان بايزيد حتى اضطره إلى خلع نفسه فتولى هو السلطنة سنة ١٥١٢م (٩١٨هـ). وعندما استولى على مصر لم يكن الخليفة (المتوكل) أعز لديه من والده فقبض عليه ليحمله معه إلى القسطنطينية، وقبل أن يخرج من مصر نزع منه الخلافة قهرا، ولبس شعارها فى احتفال كبير، وبذا خرجت الخلافة من بنى العباس إلى آل عثمان، وبمعنى أصح خرجت بقايا الخلافة وفر شبهها من بيت ادعى العباسية إلى شخص لم يقصد أن يكون خليفة، بل استهدف اللهو والعبث، واستكبر أن يكون فوق رأسه رأس أو أعلى من سلطانه خلافة (وبهذا تنازل من لم يكن «خليفة» إلى من كان يستحيل أن يكون «خليفة»).

* * *

هل سقطت الخلافة الإسلامية عند استيلاء التتار على بغداد (٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م)، أم سقطت عندما أكره السلطان سليم مدعى الخلافة العباسية على التنازل عنها (أم سقطت قبل ذلك أو بعد ذلك)؟

إن التقدير السليم حينما يرجئ الإجابة عن وقت سقوط الخلافة إلى حين، إنما يقطع بأنها لم تنتقل إلى العثمانيين انتقالا شرعيا أو تتحول إليهم تحولا سليما. فالدولة العثمانية كانت قد قامت واستقرت قبل أن تدعى انتقال الخلافة إليها وتحولها إلى بيتها، وذلك على العكس من كل خلافة سابقة ابتدأت أصلا كخلافة ثم سارت مع الزمن خلافة أيضا (ولو كانت فاسدة وناقصة وغير إسلامية فى الحقيقة). ومن جانب آخر فإنه لايسوغ بأى معيار شرعى أو أى تبرير فقهى اعتبار مافعله السلطان سليم من اعتداء على مصر - مقر الخلافة - وإكراه الخليفة على التنازل له عنها عملا سليما وتصرفا صحيحا تنتقل به الخلافة فعلا، دون أن يتأذى الفهم الدينى ويتضرر الفكر الشرعى. إن ماحدث كان عدوانا صارخا على الدين وتقويضا حادا للشرعية، لا تنتقل به سلطة ولا تقوم به خلافة (إسلامية !!). يؤيد ذلك أن الحكام العثمانيين لم يتلقبوا قط بلقب الخلافة وإنما ظلوا يلقّبون بالسلاطين حتى سقطت دولتهم سنة ١٩٢٤، كما كانوا يعتبرون دولتهم سلطنة حتى وإن خلطوا بين السلطنة والخلافة. فعندما حدثت الثورة العرابية فى مصر صدر مرسوم من صدر الدولة إلى الأمير (الخديوى) محمد توفيق جاء فيه «بناء على أن الخطة المصرية هى من الأجزاء المتممة لجسم **أملاك السلطنة العثمانية**، وأن غاية صاحب الشوكة والاقتدار إنما هى تأمين أسباب الترقى وحفظ الأمن والعمارة فى **الممالك**». ولم تكن السلطنة تلجأ إلى فكرة الخلافة إلا إذا هددتها ثورة أو حركة داخلية لتستخدم الدين فى ضرب الثوار أو المتمردين، وتستغل فكرة الخلافة فى القضاء عليهم أدبيا، مما يسهل أمر عزلهم أو يُيسر شأن اغتيالهم. مثال ذلك ماحدث عندما خرج محمد على الكبير والى مصر

وابنه إبراهيم على السلطان فقد وجه هذا أسئلة إلى المتحدثين باسم الدين والمسكين بعصا الشريعة يقول فيه «ما الذى جاء به الشرع الشريف من الأمر **بطاعة أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين**؟... ما الذى جاء به الشرع الشريف فى عقاب العامل المارق عن طاعة **خليفته وسلطانه**؟.. هل يكون الخليفة مسئولاً عن دم ذلك المارق أمام الله والناس!؟» وكان الرد عليه: «ثبت خروج محمد على وولده ابراهيم عن طاعة سلطانهما فحق العقاب عليهما كما حق على سائر من حذا حذوهما فى شق **عصا طاعة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين**». ومع هذه الفتوى إلى لجئ فيها إلى فكرة خلافة رب العالمين، فإن السلطان لم يستطع تنفيذها وعفا فيما بعد عن محمد على وابنه. وهكذا كان أمر الفتوى وشأن العفو سياسة لادينا، وعبثا لا جدا.

إن الدولة العثمانية فى التقدير السليم غير العليل وفى الفهم المؤسس غير المتلبِّس بدأت سلطنة، واستمرت سلطنة، وانتهت وهى سلطنة. فهى لم تكن خلافة قط، ولم تكن شرعية أبدا، ولم تكن إسلامية إلا ادعاء!. وهى لم تركن إلى الخلافة إلا فى فرض سلطانها على رعاياها باسم الدين، وفى قهر خصومها فى الداخل بدعوى الشريعة، وفى منع أى معارضة لها بالتلويح بسيف الإسلام.

والفهم الخاطئ والادعاء غير الصحيح بأن الدولة العثمانية خلافة إسلامية سحب على المسلمين كل مساوئها وأسقط عليهم كل خصوماتها وأوقعهم فى نتائج عدوانيتها. فنتيجة لحروبها المستمرة مع الامبراطورية البيزنطية ثم الامبراطورية النمساوية ثم القيْصرية الروسية ثم بلاد البلقان، نتيجة لذلك كله، فقد تكونت مشاعر معادية للترك، وظل المسلمون يسمون تُركا فى تقدير مواطنى هذه البلاد وغيرها، ومازالوا كذلك لدى الكثيرين، فأسقطت كراهية الترك من سوء فعالهم - التى عانى منها المسلمون أنفسهم - على المسلمين فى كل مكان. ونتيجة لحروب الدولة العثمانية مع تلك البلاد واحتلال كثير من أجزائها أن دخلت هذه البلاد فى حروب مع الدولة العثمانية، والمسلمين من رعاياها، وما إن بدرت لها البوادر وسنحت لها السوانح، حتى ردت الكرة فاحتلت بلاد الدولة العثمانية تباعا، وبذلك سقطت أغلب البلاد الإسلامية فى طواحين الاستعمار وفى رحى البلاد الغربية، فدفعت الثمن من أرواح ودماء مواطنيها ومن كرامة ومستقبل بلادها، وكان مادفعته قوائم الحساب «فواتير» الدولة العثمانية التى كانت مستحقة عليها منذ أمد طويل.

ومن جانب آخر، فإن البعض يعتبر أن الدولة تكون دينية والسلطنة تعد خلافة والحكومة تعتبر إسلامية إن هى طبقت أحكام الشريعة الإسلامية (التى يخلطونها بالفقه وهو من صنع البشر وليس من عمل الله). فإذا كان ذلك هو المعيار - فى تقدير البعض - فإن الدلائل كثيرة والأمثلة شتى على أن السلطنة العثمانية لم تطبق الشريعة الإسلامية ولم تحفل بها إلا ادعاء، ولم تعمل مبادئ الدين الإسلامى ولم تعتد إلا بالقشور منه. وثم مثال واحد صارخ على ذلك

يغنى عن كل مثال آخر. ففى سنة ٩٢٨ هـ رسم السلطان سليمان (القانونى !!) بإبطال قضاة المذاهب الأربعة من التصرف فى القضاء بالديار المصرية وسلم جميع الأحكام لقاض واحد من قضاة الروم هو قاضى العسكر، بحيث لاتصح عقود أو أوقاف أو وصايا أو عتق أو إجارة أو حجة أو غير ذلك حتى تعرض على قاضى العسكر الرومى. ومنذ ذلك الوقت زالت ولاية الأحكام الشرعية عن قضاة مصر (الأربعة، حسب المذاهب السنية) كزوال الخلافة والسلطنة، وآلت إلى قضاة الروم يتناوبها الواحد منهم بعد الواحد فتبدلت هيئتها وزالت رسومها القديمة وخرجت من طور الشريعة والفقه الإسلامى إلى طور آخر مغاير.

وكان القانون فى السلطنة العثمانية يعد تعبيرا عن إرادة السلطان وليس تعبيرا عن إرادة الله أو إرادة الأمة، ومن ثم فقد كان القانون - أى قانون - يسقط بموت السلطان الذى أصدره، وإذا استمر العمل ببعض قواعد هذا القانون بعد ذلك، فمن باب تطبيق قواعد عرفية غير ملزمة لا إعمال قواعد قانونية ملزمة. وكان القضاة - فى مصر مثلا - يُعينون من عاصمة الامبراطورية فى الآستانة - شأن قاضى العسكر - ولايعُطَوْن مرتبات بل كانوا يقتضون رسوما على القضايا التى ترفع إليهم فيحصلون منها على رواتب لهم ويدفعون لدولة الاحتلال العثمانية مابقى ومايلزم من رشوة لتجديد ولايتهم.

وكان القضاة يفصلون فى المواد المدنية فقط. ولم تطبق الحدود (العقوبات الواردة فى القرآن) طوال فترة الاحتلال العثمانى لمصر (١٥١٧ - ١٩١٤م) إلا مرتين فقط فى مناسبتين لم يُعمل فيهما القضاة المبدأ الإسلامى الذى يدعو إلى درء الحدود بالشبهات. وفى مسائل التعزير (وهى أغلب العقوبات) كان عمل القضاة يقتصر على تحقيق الدعوى ثم يُترك أمر الحكم وتنفيذه للوالى أو للشرطة. وكان اختصاص القاضى - حتى فى مجرد التحقيق - مقصورا على الواقعات التى يكون فيها طرفان للخصومة، أما أى واقعة تتصل بأمن الدولة أو أمن الحكام (أى ليست خصومة بين طرفين) فإن الحاكم أو نوابه كانوا هم ولاة الأمر - دون القضاة - فى التحقيق وتقدير العقوبة وتنفيذها، وليس للقضاة أى صلة أو دخل فى ذلك.

الصراع على الخلافة

كان من نتيجة هزائم السلطنة العثمانية أمام الروسيا وغيرها، وضعفها فى الخارج ووهنها فى الداخل، أن أصبحت تسمى رجل أوروبا المريض، فقد تكاثرت عليها النِّصَال وتحلق حولها الوحوش؛ ونشأ بذلك مايسمى بالمسألة الشرقية التى تتأدى فى تخوف دول أوروبا عامة وبريطانيا خاصة من زحف الروسيا على بلاد الشرق الأوسط واحتمال تهديد مصالح شتى الدول الأخرى. وشرعت هذه الدول - وخاصة بريطانيا - فى البحث عن حل للمشكلة العثمانية والمسألة الشرقية، وكان من تلك الحلول حل مَـلأ رأس جلادستون البريطانى.

وجلادستون (وليم ايوارت ١٨٠٩ - ١٨٩٨) كان زعيما لحزب الأحرار - أحد الحزبين الرئيسيين فى بريطانيا فى وقته - وقد عين رئيسا للوزراء أربع مرات خلال الفترة من ١٨٦٨ حتى ١٨٩٤؛ وكان متخصصا فى دراسة العلاقة بين الدولة والكنيسة، أو السلطة المدنية والسلطة الروحية، ووضع فى ذلك كتابا عنوانه «الدولة وعلاقتها بالكنيسة». ونتيجة للمفهوم المسيحى لديه، والفكر العلمانى الذى يقوم على ضرورة الفصل بين الكنيسة (ورجال الدين) وبين الدولة (الحكومة)، فقد نشأت لديه فكرة فصل الخلافة عن السلطنة ونقلها إلى أحد البيوت العربية، وخاصة البيت القرشى الذى كان يمثله حكام مكة (ومنهم الشريف حسين).

وأدرك السلطان عبد الحميد الثانى أن سحب الخلافة منه، ومن سلاطين آل عثمان، مقدمة لتقويض دعائم ملكهم. ذلك أنه مع الهزائم التى منيت بها الدولة العثمانية، والضعف الذى ران عليها، والشيخوخة التى أوهنتها تماما، فإن الركون إلى الخلافة كان وحده هو السبيل لبقاء الامبراطورية العثمانية، وعدم انسلاخ الدول الإسلامية، وخاصة الدول العربية، منها. فبالخلافة وحدها تظل الدولة العربية تابعة للسلطنة العثمانية، وبدونها لا يكون ثم مبرر لبقاء هذه التبعية. ومن هنا صارت قضية الخلافة قضية أساسية لبريطانيا وللدولة العثمانية سواء بسواء، ودخل العامل الدينى حلبة السياسة كما اقتحمت المصالح على الشريعة أبوابها، وبدأ الصراع الأوروبى - العثمانى يتركز فى مسألة الخلافة ويأخذ صبغة دينية ويرتدى عباءة شـــرعية.

وفى ذلك الوقت انحصر الصراع على الخلافة فى بقائها فى يد السلطنة العثمانية، وهو ماكان يعمل له السلطان عبد الحميد الثانى، أو فى انتقالها إلى بيت عربى كما كانت تؤمل بريطانيا (وغيرها من الدول).

وهذا الذى دان به جلادستون وظل يكتب له ويخطب ويحض ويحرض أقنع أحمد مدحت باشا الصدر الأعظم فخلعه السلطان عبد الحميد من منصبه، كما اقتنع به جدا شخص بريطانى سوف يكون بالغ الأهمية فى هذا الصدد وفى تاريخ مصر الحديث هو بلنت (ولفريد سكاون ١٨٤٠ - ١٩٢٢). ومن هذا الوقت حشد كل من الطرفين قواه لعقد مؤتمرات إسلامية، بعضها ممول من السلطان للدعوة إلى إبقاء الخلافة فى سدته، وبعضها ممول من جوانب أخرى للدعوة إلى استبعاد الخلافة من مسند السلطان.

مؤتمرات الخلافة

عندما ظهرت فكرة عقد مؤتمر إسلامى للخلافة كان الداعى لها البريطانى بلنت، **قصد إقامة نظام دينى سياسى فى البلاد الإسلامية السنية**، واصلاح الشريعة الإسلامية (!!) اصلاحا جذريا من خلال مؤتمرات إسلامية متتابعة. ودخل الحلبة بعض المسلمين منهم جمال الدين

الأفغانى الذى دعا إلى عقد مؤتمر إسلامى فى استانبول عاصمة السلطنة العثمانية لجمع كلمة المسلمين واعلان الحرب المقدسة، فضلا عن المقاطعة الاقتصادية، ضد أى دولة تعتدى على أرض إسلامية. وفى هذا الحماس للسلطان العثمانى أو ضده ظهرت الأفكار والعبارات التى كان لها أثر بالغ فيما بعد مثل تسييس الدين، وتجديد الشرع، والجهاد، والمقاطعة، وتكتيل المسلمين فى جماعة ضد غيرهم.. وهكذا.

وفى مصر حيث كانت دعوة كل من بلنت والأفغانى إلى إقامة مؤتمر إسلامى قد اشتدت إبّان الاحتلال البريطانى أقيم أول مؤتمر فى أكتوبر سنة ١٩٠٧. وكان الذى أقام هذا المؤتمر اسماعيل جاسبرنسكى، وهو مسلم روسى، كان قد أسْهَم من قبل فى ثلاثة مؤتمرات إسلامية أقامتها الروسيا بين سنتى ١٩٠٥، ١٩٠٦. وفى مؤتمر القاهرة ظهر الخلاف واضحا بين من يريدون بقاء تبعية مصر للدولة العثمانية - تحت اسم الخلافة - ومن ينشدون استقلال مصر.

وفى نوفمبر سنة ١٩١٤ بعد أن قامت الحرب العالمية الأولى صدرت فى الاستانة عدة فتاوى تدعو المسلمين فى كل مكان للاسهام فى الجهاد المقدس مع الدولة العثمانية ضد أعدائها. وتلقف أعداء هذه الدولة تلك الفتاوى لاقناع المسلمين بأن السلطان العثمانى يستغل الدين للايقاع بهم فى حروب طاحنة لاناقة لهم فيها ولا جمل.

وفى يوليو سنة ١٩٢٤ عُقد مؤتمر، سمى مؤتمر الحج، فى مكة إبان موسم الحج، ودعى فيه بالخلافة للشريف حسين؛ غير أن هذه المبايعة لم تنته إلى مبايعة عامة فى العالم الإسلامى.

وفى سنة ١٩٢٦ عقد مؤتمر القاهرة حيث طمع الملك فؤاد ملك مصر فى أن يبايَعَ بالخلافة، وانتهى المؤتمر بالفشل. وفى ذلك قال الشيخ الظواهرى شيخ الجامع الأزهر آنذاك «دخلت نفوس بعض كبار المسلمين وأمرائهم.. شكوك من جهة مصر.. فقد ظنوا أن علماء الأزهر.. إنما يثيرون مسألة.. الخلافة لغرض آخر.. هو نقل الخلافة من شاطئ البوسفور إلى شاطئ النيل وضم أريكة الخلافة إلى أريكة الملك فى عابدين».

ثم عقد فى ذات السنة، سنة ١٩٢٦، مؤتمر العالم الإسلامى، عقده فى مكة الملك عبد العزيز آل سعود (١٨٨٠ - ١٩٥٣) الذى كان حديث العهد باعتلاء عرش السعودية.

وفى سنة ١٩٣١ عقد المؤتمر الإسلامى العام فى القدس.

وفى سنة ١٩٣٥ عقد المؤتمر الإسلامى الأوروبى فى جنيف.

وبعد ذلك قامت الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر ١٩٣٩ فانقسم المسلمون أثناءها بين مؤيدين لدول المحور (ألمانيا وايطاليا) ومؤيدين للحلفاء (العالم الغربى وبريطانيا أساسا)؛ وكل يؤمل مما يفعل نصر الاتجاه الإسلامى !!

وكل هذه المؤتمرات والمحالفات والمشايعات لم تنته إلى نتائج محددة أو تصل إلى قرارات فعالة. وخلالها، وقبلها، وبعدها، ظهرت أفكار هامة وبدت اتجاهات كانت ومازالت وسوف يظل لها أثر كبير فى العالم الإسلامى وفى العالم أجمع.

أولا - فلقد بدأ تسييس الإسلام بصورة جديدة، سوف تصل مع الأيام إلى أن تظهر صيغة الإسلام السياسى التى تهدد الإسلام نفسه من الأساس وتصبغه بصبغة سياسية حربية شكلية لفظية. وقد بدأ ذلك يلوح فى الأفكار والكتابات التى طرحت مبكرا. من ذلك ماكتبه الهندى عبد الله سندهى (١٨٧٢ - ١٩٤٤) من أن «الجماعة الإسلامية (المزمع إقامتها) جماعة خاصة تقوم على أسس عسكرية...» وهو أمر تبناه الإسلام السياسى وصار سمته الأساسية.

ثانيا - وزج بالخلافة - أو رياسة المسلمين - فى معترك الصراع السياسى ومجتلد النزاع الحزبى، فأصبحت تتجاذبها تيارات من ذات اليمين وتيارات من ذات الشمال، لا لصالح الدين أو لصوالح المسلمين، ولكن لمحض السياسة ومجرد الحزبية.

ثالثا - وطُرحت فكرة سحب الخلافة من مسند السلطنة العثمانية، وكان ذلك قبل الغائها بكثير.

رابعا - وطرحت - كذلك - فكرة وضع الخلافة الإسلامية فى بيت عربى إن لم يكن من قريش ففى غيرها.

وكان من أنصار هذه الفكرة عبد الرحمن الكواكبى (١٨٥٤ - ١٩٠٢) الذى نشر كتابيه «طبائع الاستبداد» و «أم القرى» لينقد فى الكتاب الأول الحكم الدكتاتورى الشمولى (ويقصد به حكم الخلافة) أما فى الكتاب الثانى فقد بسط وجهة نظره فى نقل الخلافة إلى مكة «أم القرى». كما كان اللورد كتشنر البريطانى من أنصار هذه الفكرة إذ يرى ضرورة أن يكون الخليفة عربيا أصيلا ويكون مركزه فى مكة أو فى المدينة.

خامسا - وطمع ملوك ورؤساء فى الخلافة، منهم ملك مصر فؤاد الأول وخديويها السابق عباس حلمى الثانى وملك الأفغانستان، ومازالت الخلافة مطمعا لبعض الملوك والرؤساء ومطمحا لبعض القادة والساسة. وبذلك فإن الخلافة الإسلامية تسيرّ - حتى اليوم - كثيرا من الأنشطة، وتلون عديدا من التصرفات، وتحكم وفيرا من الأفعال، حتى وإن لم يظهر ذلك صراحة. فالصراع فى الخفاء والمنافسة فى غير علانية، وكل يتحين الفرصة التى تسمح له بأن يظهر نواياه حين يمكنه أن يجمع خيوط الفعالية فى يديه.

سادسا - وظهر الرأى القائل بأن تكون الخلافة منصبا روحيا ينفصل عن السلطة والسلطان. كما ظهر رأى للسير مارك سايكس البريطانى بأن تكون الاستانة أو دمشق مكانا خاصا بالخلافة تستقل فيه على نمط ماحدث للبابوية المسيحية الكاثوليكية فى استقلالها بالفاتيكان بروما. وهذا الرأى لم يدرك التفرقة الدقيقة بين المسيحية والإسلام، وأن الإسلام لايعرف سلطة روحية.

سابعا - وبدأت إشاعة الرأى الذى ينادى بضرورة انتخاب الخليفة، وإن كان البعض قد قصر الانتخاب على أهل الحل والعقد، وهو أمر يدعو بدوره إلى التساؤل عن أهل الحل والعقد هؤلاء، من هم ؟ ومن الذى يعترف بهم ؟ وكيف يمارسون حقوقهم الانتخابية ؟.. وهكذا.

إلغاء الخلافة

على الرغم من الرأى الذى اعتنقه السلطان عبد الحميد الثانى من ضرورة بقاء الخلافة فى البيت العثمانى واستغلالها دينيا لتثبيت سلطان الدولة ومنع أى معارضة لها، على الرغم من ذلك، فقد كان رأى بعض الأتراك أن الخلافة تتركز فى شخص واحد بلا مساءلة وأنها تجمع السلطة فى يده دون مراجعة، ومن ثم فإنها - بالفعل والواقع - نظام شمولى عنيف ودكتاتورى مخيف، وأنه لابد لنهضة تركيا وتحديثها من تحديد السلطة السياسية وتنظيمها ولو أدى ذلك إلى فصل الخلافة عن السلطنة. ثم نشأ بعد ذلك الرأى الذى يرى إلغاء الخلافة كـلية.

وفى سنة ١٩٢٢ فُصلت الخلافة عن السلطنة، وكان ذلك إيذانا بإلغائها هى ذاتها، ذلك أن الإسلام - على عكس المسيحية - لايعرف سلطة روحية عليا تتركز فى خليفة أو تتمثل فى أمـــير.

وفى ٣ مارس سنة ١٩٢٤ ألغيت الخلافة الإسلامية.

* * *

وهنا يثور التساؤل : متى ألغيت الخلافة الإسلامية حقيقة ؟

هل ألغيت فى ٣ مارس سنة ١٩٢٤ ؟ أم ألغيت عندما أجبر السلطان سليم الأول الخليفة العباسى المتوكل على التنازل عنها (١٥١٧م)؟ أم ألغيت بعدما دمر التتار بغداد عاصمة الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة وقضوا على الخلافة تماما (١٢٥٨م)؟

وهل كانت الخلافة العباسية إسلامية حقا ؟ وهل كانت الخلافة الأموية قبلها خلافة إسلامية بصحيح ؟

تلك أسئلة يجيب عنها كُلٌ بما يلائم اعتقاده أو يوائم رؤيته أو يتمشى مع معلوماته أو يساير ما تلقنه. والاجابة لن تكون أبدا واحدة، طالما اختلفت الثقافات وتباينت الأغراض وتفاوتت الأهداف وتوارت النوايا وتزايد الجهل. لكنه مع كل الإجابات سوف تكون ثم إجابة تقول : **وهل ظهرت خلافة إسلامية بحق ؟ إنها إن كانت فهى مع التجاوز خلافة الخلفاء الراشدين وحدهم، ومع التحقيق والتدقيق فهى خلافة أبى بكر وعمر وحدهما ؛ أما بعدهما فقد فسدت الخلافة فكانت فى عهد عثمان رياسة قبلية للأمويين وكانت فى فترة علىّ رمزا أحاطت به المعارك من كل جانب فلم يكن فعالا قط ولم يكن حقيقة أبدا.**

هوامش وتعليقات

(١) أغلب المراجع السابقة ، ويضاف إليها : -

1- Encyclopedia Britannica - Macro - 1977 - vol. 13; P. 771 - 796 .

2- Encyclopedia Americana - vol . 27 , P . 248 - 278 .

3 - Bernard Lewis; The Emergence of Modern Turkey, London, 1968 .

4 - Bernard Lewis; politics and war.

5 - Fisher, H. A. L; A. History of Europe, complete edition in one volume , London , 1955 .

6 - Hamilton Gibb and Harold Bowen, Islamic Sociely and the West .

7 - Thomas Eriskine Holland , the European Concert in the Eastern Question, Oxford, 1885 .

8 - Great Britain, Parliamantory Papers , 1920 .

9 - Paul Ricaut , the History of the Present State of Ottomen Empire , London , 1686 .

10 - Martin Kramer, Islam Assembled , Columbia university Press, 1986 .

١١ - عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية : دولة إسلامية مفترى عليها، أربعة أجزاء - مكتبة الانجلو المصرية - ١٩٨٠ .

١٢- محمد جميل بيهم - فلسفة التاريخ العثمانى - أسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية وزوالها - بيروت ١٩٥٤ .

١٣- ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية - دار العلم للملايين - ١٩٦٥ .

١٤ - محمد مصطفى صفوت: المسألة الشرقية ومؤتمر باريس - القاهرة - ١٩٥٨ .

١٥ - ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور - تحقيق ونشر دكتور محمد مصطفى .

١٦ - أرنولد توماس - الدعوة إلى الإسلام - تعريب دكتور حسن إبراهيم وآخرين .

فقـــه الخلافـــة



هل يوجد للخلافة فقه !؟



الفقه هو العلم بالشئ والفهم له؛ وقد جعله العرف خاصا بعلم الشريعة وتخصيصا بعلم الفروع منها. وفى الوقت الحالى شاع استعمال اللفظ فى شتى العلوم والمباحث فيقال فقه الشئ، يقصد علمه. بذلك قيل فقه اللغة أى علم اللغة، وفقه القانون أى علم القانون، وفقه الخلافة أى علم الخلافة.

من هذا المعنى يثور التساؤل : هل يوجد للخلافة فقه، أى علم؟ إن فقها للخلافة (أى علما) لابد أن يكون محددا له أصول وله فروع وفيه استقصاءات وفيه تطبيقات. وهو لابد أن يتضمن أصول الخلافة، ونشأة الخلافة، وتاريخ الخلافة، وشروط اختيار الخليفة، واختصاصات الخليفة، ووسيلة عزله.. إلى غير ذلك من وسائل تتجمع فتكون علما وتتكامل فتصير فقها.

لكن ذلك لم يحدث، وإنما كانت الكتابة عن الخلافة تحدث فى حذر شديد ووجل أشد، وتقع فى أعمال متفرقة، وربما فى شذرات متناثرة، وخطرات متباعدة. ويرجع ذلك إلى ظروف كثيرة أهمها أسباب أربعة :-

أولا - فلقد نشأت الخلافة ابتداء دون ماعلم أو فقه، وفى أمة أمية لا تكتب ولا تقرأ. فلما استقر نظام الخلافة وبدأت الأمة تكتب وتقرأ كان عليها أن تبرر الوضع القائم بالضرورة لا أن تنظم الواقع المفترض فى حرية. فالكتابة عن الخلافة فى الحقيقة كانت تبريرا أكثر منها علما، وكانت تأييدا أكثر منها فقها، وكانت مساندة أكثر منها مباينة، وكانت معاضدة أكثر منها مكاشفة.

ثانيا - وكانت الخلافة شديدة الوطأة، مستبدة غاشمة، ظهر فيما سلف كيف أنها عاملت الفقهاء والعلماء بقسوة شديدة؛ فعذبت السلطة الإمام مالك لمجرد التظنن بأنه يلمح إلى معنى عدم صحة مبايعة المكره للخليفة؛ وضربت الإمام أبا حنيفة حين اعتذر من عدم ولاية القضاء ظنا منها بأنه لايريد أن يتعاون معها؛ وسجنت الإمام أحمد بن حنبل لمجرد قوله بأن القرآن أزلى غير مخلوق؛ وقتلت ابن المقفع حين نصح الخليفة باختيار بطانته... وهكذا.

ففى مثل هذا الجو المكفهر بالضرب والسجن والقتل والتعذيب لايستطيع فقيه أن يتناول مسائل السلطة وتنظيمها، أو علم الخلافة وفقهها، بحرية ويسر، وفى تأصيل وتفصيل، وبيان وإفاضـــة.

وليس أدل على ذلك من أن الماوردى (أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ - ١٠٥٨م) حين وضع كتابه «الأحكام السلطانية والولايات

الدينية» - والذى يعُد أهم كتاب فى بابه - لم ينشر الكتاب فى حياته وإنما أوصى أن ينشر بعد وفاته، وحدث ذلك فعلا.

ثالثا - ومنذ أن نشأت الخلافة الإسلامية وحتى انتهت وهى فى حروب مستعرة ومعارك مستمرة. وفى مثل هذه الحال القلقة غير المستقرة، يكون الفقه - إن حدث - فقه حروب ومجتمعات مضطربة، لافقه سلام ومجتمعات مطمئنة. والفقيه - إن أراد أن يتفقه - فإنه لابد أن يدرك أنه مادامت الدولة فى حالة من الحروب أو أشباه الحروب فإن سلطاتها تكون استثنائية وأعمالها تدخل فى باب الطوارئ، فلا يكون من المتيسر - وربما من غير المرغوب - مناقشة هذه الأعمال وتلك السلطات.

فالفقه الإسلامى إذن فقه حرب أكثر منه فقه سلام، ومثل هذا الفقه يتناءى ويتناهى عن مناقشة السلطة أو مصارحتها أو مصادمتها.

رابعا - ولقد تشكل الفكر الإسلامى وعقل الأمة منذ البداية فى صيغ محددة وقوالب جامدة وسوابق محددة؛ وكان من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - الانفلات منها أولا، ثم مناقشتها أو تغييرها دون التعرض للتاريخ كله أو تقويض التراث بأكمله. فعندما يجد الفقيه أمامه حديثا مُسندا يقول إن «الأئمة من قريش» فإنه يكون أسير هذا الحديث ومفهومه، حتى لايدخل فى معارضة لعلم الحديث بأكمله، ومن ثم فإنه يتعذر عليه أن يتكلم عن الخلافة بحسبانها مركزا يلزم أن يليه الأصلح من المسلمين كافة، ولو كان غير قرشى، وإلا عد من الخوارج الذين قالوا بذلك فعلا. وعندما يجد الفقيه أمامه تراثا كاملا يقوم على بيعة الخاصة للخليفة المسمى والمعين ممن قَبْله فإنه يكون من الصعب عليه أن يتحدث عن اختيار الأمة كلها للخليفة بانتخاب مباشر أو غير مباشر، وإلا انتهى إلى الحكم بعدم شرعية الخليفة القائم فى عصره وكل من قبله من الخلفاء. وعندما يجد الفقيه أمامه نظاما نشأ منذ بداية الدولة الأموية وسار خلال الدولة العباسية وصار أثناء الدولة الفاطمية ، هو نظام توريث الخلافة - كأنها ملك - فإنه يكون من المستحيل عليه أن يطالب بغير ذلك فى وقته ، وإلا أعدم على الفور باعتباره كافراً زندقيا ، فلايسمع له قول ولاينشر له رأى .

ومن جانب آخر، فإن صيغاً مثل خليفة الله، أو خليفة الرسول، أو خليفة المؤمنين لابد أن تحد العقل من التفكير وتمنع القلم من الإرسال. فمن ذا الذى يناقش خليفة الله ونور الإله وظل العناية؟ ومن الذى يفاصل بين حقوق الرسول وحقوق خليفته؟! ومن ذا الذى يسائل ممثل المؤمنين كلهم ونائب المسلمين جميعا وهو مجرد فرد واحد لاحول له ولا قوة؟!

لهذه الأسباب، ولغيرها، متضافرة مع بعضها أو متفارقة فيما بينها، كان من اللازم - ولابد أن يكون - ثم حائل من قيام فقه للخلافة فى عصور الخلافة. فإذا قيل فإن هناك كتبا مثل كتاب «الأحكام السلطانية» أو غيره فإن الرد على ذلك أننا نتكلم عن فقه لا عن فقيه، ونتحدث عن علم لا عن عالم، ونشير إلى مكتبة لا إلى كتاب واحد أو أكثر.

ومع ذلك فإن كتاب الأحكام السلطانية الذى ينظر إليه كعمدة فى هذا الصدد تناول الإمامة (الخلافة) فى خطبة الكتاب (أى الافتتاحية) بينما جعل الكتاب عن الوزارة وأعمالها. وحتى فيما ذكره عن الخلافة فإنه كان محكوما بالمحاذير السالف بيانها، مربوطا إلى القوائم المذكورة من قبل، مصبوبا فى القوالب التى أنفت الإشارة إليها.

* * *

ذاك حال فقه الخلافة إبّان عصور الخلافة. أما فى العصر الحالى حيث صارت الخلافة الإسلامية من أهم الشعارات التى تتنادى بها جماعات الإسلام السياسى، فإن هذه الجماعات شرعت فى وضع فقه للخلافة يقوم على تزييف الواقعات وتحريف الحادثات، وحذف مالابد من ذكره، وحشر مالا سبب لوجوده.. وهكذا، فهى فى الواقع تلفق فكرا ولاتقدم فقها. وإذ كانت مناقشة ذلك أمراً لازما لاستكمال موضوعات هذا الكتاب، ولوصل الماضى بالحاضر، ولقطع دابر التلفيق والتزويق، فإن هذا هو موضوع الفصل التالى.

أثناء الحرب العالمية الأولى، وبعدما انضمت الدولة العثمانية إلى ألمانيا والنمسا فى الحرب ضد بريطانيا وفرنسا، قويت الرغبة لدى هاتين الدولتين فى إضعاف الدولة العثمانية، وربما القضاء عليها نهائيا؛ من عدة طرق، كان منها نزع الخلافة الإسلامية عنها ونقلها إلى بلد مسلم آخر، يفَضَّل أن يكون عربيا؛ على تقدير أن العروبة أقرب القوميات إلى الإسلام الذى خرج منها أصلا، وعلى اعتبار أن سقوط الخلافة عن آل عثمان ينقلها تلقائيا إلى بيت آل النبى (صلى الله عليه وسلم) الذى كان يمثله آنذاك الشريف حسين أمير مكة.

وقد نشطت الحكومات الخفية فى بريطانيا وفرنسا إلى تحقيق هذا الهدف. وهذه الحكومات التى تعمل فى السر، وتنتشر فى الخفاء، وتلعب دون أن تتكلم، وتحكم من غير أن تظهر، حكومات تتكون أساسا من أجهزة المخابرات ومن أصحاب المصالح البعيدة والقوية. وقد ندبت هذه الحكومات عدة أشخاص واختطت عدة وسائل لتحقيق الهدف المقصود، من ذلك ماهو شائع عن أعمال رجل المخابرات البريطانى الشهير لورانس (توماس ادوارد لورنس أو لورنس العرب، صاحب كتاب أعمدة الحكمة السبعة : ١٨٨٨ - ١٩٣٥م).

وكان إلغاء كمال أتاتورك للخلافة فى ٣ مارس سنة ١٩٢٤ دافعا منشطا لآمال الكثيرين فى التطلع إليها والتطمع فيها؛ من هؤلاء الملك فؤاد ملك مصر، الذى كان يرتكن إلى قوة مصر كأكبر بلد عربى، ويستند إلى الأزهر الشريف، لإعادة تأسيس الخلافة. وإبّان ذلك نشر الشيخ على عبد الرازق (القاضى الشرعى) سنة ١٩٢٥ كتابه «الإسلام وأصول الحكم»؛ وكانت الفكرة الرئيسية فى هذا الكتاب أن النبى (صلى الله عليه وسلم) كان هاديا ومبشرا ونذيرا، وأنه عندما حكم فى المدينة حكم كملك، حكومة تقوم على ذات الأساس الذى كان موجودا لدى القبائل العربية فى عهد ماقبل الإسلام، ولاتستند إلى آية من القرآن أو نص من الدين أو حكم من الشريعة (وهو مانعارضه لأن النبى حكم بموافقة الوحى صراحة أو ضمنا، فضلا عن وجود آيات فى القرآن تشير إلى بعض تصرفاته فى الحكم).

وقد ثار القصر الملكى والأزهر الشريف على الشيخ على عبد الرازق، بعدما أحدث الكتاب ضجة؛ خاصة وهو يقوض مطامع القصر ومطامح الملك فى ورث الخلافة، ومن ثم فقد أسقط الأزهر عن الشيخ إجازته الدراسية وبالتالى عُزِل من منصبه. ومع ذلك، أو بسببه أيضا، ظلت أفكار الكتاب صوتا مدويا تردده بعض القوى الشعبية التى كانت تكافح القصر الملكى

وتكافح الاستعمار البريطانى، والتى كانت تخشى أن تُستغل الخلافة - كمنصب دينى - لضرب كفاح الشعب، وبث الفرقة فى صفوفه، وتسويغ المظالم والاستبداد، والتنكب للعلم والحضارة باسم الدين، وتكريس الجهالة والبداوة بدعوى الشريعة.

فى ذلك الوقت كان الدكتور عبد الرّزاق السنهورى قد حصل سنة ١٩٢٥ على الدكتوراه من جامعة ليون الفرنسية عن رسالته «القيود التعاقدية على حرية العمل فى القضاء الانجليزى»، ومع ذلك فقد مُدَّت له بعثته ليحصل فى العام التالى سنة ١٩٢٦ على درجة أخرى للدكتوراه عن كتاب صمم على وضعه تحت اسم « الخلافة..». وقد ظل الكتاب - بعد هذا الجهد الجهيد فى وضعه والعناد البعيد فى تأليفه - باللغة الفرنسية، لاينقله صاحبه إلى اللغة العربية، ولو مختصرا، ولا يكلف أحدا ترجمته، حتى نُشرت ترجمة له أخيرا (نهاية سنة ١٩٨٨).

وترجمة هذا الكتاب ونشره، بعد أن حرص صاحبه على أن يحجبه عن قراء العربية طوال حياته عمل سياسى لاريب؛ خاصة وأن الترجمة والمقدمات والهوامش والتعليقات تجنح إلى ربطه بشعارات الإسلام السياسى، وتصبه فى قوالبه، وتضعه فى حسابه، حتى يكتسب هذا التيار من اسم السنهورى سندا وكيما يتخذ لنفسه من هذا الكتاب عُمدا. ومن ذلك المعنى فإن الكتاب يمثل عقيدة «أيديولوچية» وفقه الإسلام السياسى فى الحقبة القادمة، كما عبّر كتاب «معالم فى الطريق» عن عقيدة وفقه هذا التيار فى الحقبة الماضية.

ونظرا لخطورة العمل على ربط فقه السنهورى بفكر الإسلام السياسى، وإحياء كتاب كان هدفه الأساسى - على مايبدو - مجرد الرد على كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، من خلال جامعات أجنبية، وعن طريق رسالة علمية؛ ولأن الترجمة أفصحت عن الآراء والمعتقدات التى يعتزم الإسلام السياسى العمل من خلالها فى المرحلة القادمة، فإنه يكون من الضرورى - ولو فى عجالة مبتدأة - بيان الأصول الأساسية لفقه السنهورى عن الخلافة، وإيضاح أسلوب الترجمة فى ربط هذا الفقه بفكر الإسلام السياسى، ثم تقديم عقيدة «أيديولوچية» جديدة للمرحلة القادمة.

فقه الخلافة عند السنهورى

أ- يقول الدكتور السنهورى عند بيانه لخطة كتابه : إن «نظام الخلافة الذى نستعرضه ينطبق على الخلافة الصحيحة التى طُبقت فى التاريخ مدة محدودة هى عهد الخلفاء الراشدين الأربعة. بعد ذلك استمر نظام الخلافة ولكن فى صورة ناقصة أو غير صحيحة..» (صفحة ١٠٩-١١٠ من الترجمة).

وأول مايؤخذ على منهج البحث ذاك، أو خطة الكتاب تلك، أنها تنبنى وتدور وتبحث فى نظام لم يُطَبّق مدى التاريخ، ولا يُطبق فى العصر الحالى، ولا يلوح تطبيقه فى الأجل القريب

(لوقت البحث، ولوقتنا المعاصر)، بل إنه طُبق خلال مدة محدودة، هى عهد الخلفاء الراشدين (٦٣٢ - ٦٦٠م) فترة ثمانية وعشرين عاما من تاريخ طوله أربعة عشر قرنا. ويعْنى ذلك أن البحث، والكتاب، والرسالة، مجرد دراسة نظرية أو محض بيان متْحفى لاصله له بالواقع الحالى ولا بالظروف المعاصرة، إلا أن يكون تأييدا لدعوى الخلافة التى طمع فيها القصر الملكى آنذاك وطمح الأزهر إلى تعضيده فى ذلك.

ويضيف الدكتور السنهورى - وهو على بينة من أنه يبحث دون جدوى ويدرس فى غير لزوم ويكتب دون نتيجة - «.. إنه من الضرورى ألا نتجاهل طول المدة التى سيطرت فيها على العالم الإسلامى نظم الخلافة الناقصة - وهذا يوجب علينا أن نعنى بالتمييز بينها وبين أحكام الخلافة الصحيحة وذلك لكى نفهم كيف كان يُطبق نظام الحكم الإسلامى عمليا خلال ثلاثة عشر قرنا..» (صفحة ٤٥). فالبحث، والكتاب، والرسالة، هى مجرد وضع معايير نظرية - معروفة لكل الباحثين مفهومة من كل الدارسين - تصم نظام الحكم الإسلامى بعد عصر الخلفاء الراشدين بالنقص والقصور والخطأ والفساد. ومن ثم فإنها لاتعد تفسيرا للحكم الإسلامى ولاتبشيرا بنظام آخر سليم، إلا بعد لىّ أفكارها وطىّ أغراضها لكى تُحمل على محمل آخر يخدم تيارا بذاته، على ماسوف يلى بيانه فيما بعد.

ب - ويقول الدكتور السنهورى فى تبرير مفاسد الخلافة :«ونحن لانحاول إنكار الحقائق التاريخية فتاريخ الخلافة الناقصة، منذ عهد الأمويين ومن بعدهم (يقصد حتى تاريخ إلغائها) ملئ بأنواع إساءة السلطة. ولكن هذا الاستبداد مصدره خروج هؤلاء الحكام على قواعد الخلافة الشرعية، فلا يجوز أن يُقال إن مصدره هو النظام نفسه.. فنظام الخلافة لايمكن أن يكون مسئولا عن الفتن التى حدثت فى الدولة الإسلامية أو عدم احترام حكامها لقواعده وأحكامه (III)، كما أن وقوع الفتن والخلافات ظاهرة اتسم بها تاريخ الدول جميعا، ولايمكن القول بأن المسلمين كانوا يشذون عن هذه الظاهرة لو أنهم أخذوا بنظام آخر للحكم..» (هامش صفحة ٩٨).

بهذا يكون الدكتور السنهورى قد قطع وجزم بخروج جميع الخلفاء المسلمين - بعد عهد الراشدين - على قواعد الخلافة الشرعية، وقال إن نظام الخلافة ليس مسئولا عن ذلك، كما برر المظالم والخروج على القواعد بأنها ظاهرة يتسم بها تاريخ الدول جميعا، ولم يشذ المسلمون فى ذلـك.

وإذا كان الخلفاء جميعا - على مدى أربعة عشر قرنا (إلا ماندر ومالا يُحسب) - قد خرجوا على قواعد الخلافة الشرعية، فإن ذلك أبلغ دليل على أن الخلافة الإسلامية - طوال التاريخ - لم تكن خلافة شرعية ولا نظاما إسلاميا. فإذا لم يكن نظام الخلافة مسئولا عن ذلك - رغم قيم الإسلام ومبادئ الشريعة - فمعنى هذا أن النظام النظرى شئ والواقع شئ

آخر. ثم ماهو نظام الخلافة الشرعية - وفقا للقرآن وطبقا للسنة - والذى لايعد مسئولا عن الخلافة التاريخية؟ وهل يوجد مايسمى بالخلافة الشرعية أم أنها خلافة تاريخية ذات مرحلتين: مرحلة أبى بكر وعمر وفترة من عهد عثمان ومرحلة مابعد ذلك من فتن وحروب ومظالم ومفاسد؟ ثم كيف لا تكون أسس الخلافة وسوابقها مسئولة عن تتابعها ولواحقها؟ وهل يمكن أن ينقطع التاريخ أو يتحول فجأة بلا أساس ولا بذار؟ وماقيمة المبادئ والنظريات إن لم تكن فعالة فى الواقع مؤثرة فى التاريخ منتجة للأحداث؟ وإذا كان ماينتج عن المبدأ عكسه، وما يصدر عن القيمة ضدها، وما تنتهى إليه الفكرة نقيضها فأين يكون الخطأ وكيف يمكن علاجه؟ هل الخطأ فى المبدأ والقيمة والفكرة، أم أنه فى غيبة المنهاج وتغييب عنصر الزمن، أم أن الخطأ فى طبيعة التطبيق؟ أم تراه فى أن المبدأ غير واقعى والقيمة ليست إيجابية والفكرة مجرد قــول!؟

إن تبرير عدم شرعية الخلافة الإسلامية - مدى تاريخها - بأنه أمر لم يشذ به المسلمون، بل إن الفتن والخلافات ظاهرة يتسم بها تاريخ الدول جميعا؛ هذا القول والتبرير مخالطة واضحة؛ ذلك أن نظام الخلافة الإسلامية هو - فى دراسة الدكتور السنهورى وفى رأى البعض - نظام دينى ووضع شرعى؛ فإذا كان الأمر كذلك فلا تجوز مقارنة هذه الخلافة بأى نظام آخر للحكم. فنظم الحكم نظم بشرية وترتيبات اجتماعية وأوضاع سياسية لاتُرتكب فيها المظالم باسم الدين ولاتقع فيها الفتن تحت راية الشريعة، أما نظام الخلافة فقد اقترفت فيه المظالم بدعوى الإسلام زورا، واشتعلت فيه الفتن باسم الله خطأ. ولاشك أن مظالم أو فتنا تحدث باسم البشر ودون استقلال براية الدين أو استظلال بلافتة الشريعة أيسر فى محاربتها وأهون فى اجتثاثها من تلك التى تستخدم اسم الله أو تحتمى بالدين أو تستظل بالشريعة. ثم - ماقيمة تميز نظام الخلافة الإسلامية عن أى نظام سياسى آخر إن كانت الأساليب فيها جميعا واحدة والنتائج فيها كلها متشابهة!؟ أوليس يعنى ذلك أن العمل السياسى هو بذاته، أسلوب واحد ونتائج متوحدة، سواء بوشر باسم الدنيا أم مُورس باسم الدين؛ وأنه لاجدوى للإنسان والإنسانية على الإطلاق من صبغ السياسة بصبغة دينية أو تلوين التحزّب بلون شرعىّ، لأن النتيجة لن تختلف أبدا؛ فالسياسة سياسة، والتحزّب تحزب : طبيعة واحدة ونتيجة بذاتها وأساليب لاتتغير؛ فتن ومكايد، واستبداد ومظالم، يكون تحت راية الدين وفى ظل الشريعة أعتى وطأة وأشد ثقلا وأصعب تبديلا وأعسر تحويلا.

ونتيجة لإدراك الدكتور السنهورى لحقيقة الخلافة الإسلامية - على مدى التاريخ - فقد سماها الخلافة الناقصة (متأثرا فى ذلك بابن خلدون). غير أن التعبير بالنقص غير دقيق، طالما أن النقص قد لايكون أساسيا. فإن يكن النقص فى الماديات مجرد درجة أو درجات كمية هامشية يجوز أن توصف بالنقص، فإنه فى المعنويات لابد أن يكون - وغالبا مايصير - كيفيا

جوهريا، لايمكن أن يوصف بمجرد النقص، لأنه يبدل المنقوص إلى نقيضه ويحوله إلى معنى مغاير تماما. فالنقص فى العدالة ظلم، والنقص فى الرحمة قسوة، والنقص فى الواجب إهمال... وهكذا. ولأن الدكتور السنهورى أدرك أن كلمة ناقصة لاتعبر بدقة عن نظام الخلافة الإسلامية فقد عاد وقال إنها الخلافة غير الصحيحة والمعيبة (صفحة ١١٠)، وهما لفظان للتعبير السياسى عن الفساد والخطأ والعَوَرْ. ومفاد ذلك أن الخلافة غير الصحيحة المعيبة الفاسدة الخاطئة ذات العَوَرْ لايمكن أن تكون خلافة إسلامية إلا باللفظ، ولايجوز أن تكون خلافة شرعية إلا بالقول.

جـ - ويرى الدكتور السنهورى أن خصائص الخلافة (التى لم تقع قط ولم تكتمل أبدا ولم تتحقق مدى التاريخ بعد الراشدين) هى :-

١- اختصاصات عامة تقوم على التكامل بين الشئون الدنيوية والدينية.

٢- التزام بتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية.

٣- وحدة العالم الإسلامى.

ومع أن هذه الخصائص نظرية - بقول الدكتور السنهورى نفسه - لم تتوافر مدى تاريخ الخلافة الإسلامية (الناقصة والقاصرة والفاسدة والمعيبة) فإنها - فضلا عن ذلك - محل نظر. ذلك أن الدكتور السنهورى لم يحدد ماهية الشئون الدنيوية والشئون الدينية حتى يحدث بينهما تكامل لا اختلاط، ويقع معهما توافق لا اضطراب. وقد ورد فى الكتاب (هامش صفحة ٤٨ نقلا عن مذكرته رقم ١٦٠) أنه «فى الشريعة الإسلامية نفسها من الممكن أن يرى الباحث فى التعاليم الإسلامية تعاليم دينية وإلى جانبها أساسا لإنشاء مدنية دنيوية صلتها بالدين كصلة المدنية الغربية بعلم الأخلاق أو بالدين المسيحى فى الأمم المتدينة (يقصد المسيحية)..». فالتكامل بين الشئون الدنيوية والشئون الدينية أساس فى كل تدين، وطبيعى فى كل نظام، وهو ملحوظ فى الأمم المتدينة. وصلة المدنية (ومنها النظم السياسية والإدارية والاجتماعية) بالإسلام - فى تقدير الدكتور السنهورى - هى كصلة المدنية الغربية (بجميع نظمها وعلومها وأوضاعها) بعلم الأخلاق أو الدين المسيحى!!!! دون أى تمييز يضعه فى كتابه أو أى تفريق يحدده فى رسالته.

وفيما يتعلق بتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية، فالملاحظ أن الدكتور السنهورى فى كتابه عن الخلافة (وفى جميع أعماله) يخلط بين الشريعة والفقه. فالشريعة هى منهاج الله الذى يتبعه المؤمنون فى شئون الحياة، أما الفقه فهو آراء الفقهاء وبحوث العلماء وتفسيرات المفسرين وفتاوى المفتين وأحكام القضاة التى قد تتبع أحكام الشريعة وقد تبتدع أحكاما خاصة، وقد تتفق فيما بينها وقد تختلف. والاضطراب بين الشريعة والفقه، والخلط بينهما، يظهر فى كل صفحات الكتاب. وعلى سبيل المثال :«فى حين أن الشريعة (يقصد الفقه) يجب

أن تبقى بعد ذلك فى نمو مستمر وتطور متواصل» (صفحة ١٢)، «فالاجماع .. أداة فنية ضرورية لصياغة أحكام الشريعة (يقصد الفقه).. ونموها وملاءمتها مع حاجات المجتمع وظروفه...» وهكذا. ومؤدى الخلط بين الشريعة والفقه عدم تحديد نطاق كل منهما، وبالتالى صيرورة لفظ «التكامل» بغير معنى، إذ لايقوم التكامل إلا بين قوامين محددين. هذا فضلا عن الآثار الوخيمة للخلط بين الشريعة والفقه على عمل الخلافة نفسه، ذلك أنها ادعت تطبيق الشريعة وهى تطبق الفقه، وزعمت إعمال الإسلام وهى تفرض الرأى، وتعللت بحرية الاعتقاد وهى تقسر الناس. ولعل ذلك من أهم الأسباب التى جعلتها دائما خلافة معيبة فاسدة.

ولقد يُقال إن الرأى إذا كان يُطبّق حكما شرعيا وأن القضاء إذا كان يُنزل نصًّا دينيا فهو من ثم قضاء دينى وحكم شرعى؛ وهذا القول مغالطة خطيرة. فالطلاق مثلا يقع إعمالا لنص دينى لكنه - أبدا - ليس حكما دينيا. ومذاهب الفقهاء تركن إلى أحكام من الشريعة أو آيات من القرآن أو أحاديث للنبى (صلى الله عليه وسلم)؛ ومعنى الرأى السابق أنها بذلك شرعية وليست فقهية؛ أى أنه توجد شرائع عدة داخل الإسلام، فثم شريعة أبى حنيفة وشريعة مالك وشريعة الشافعى وشريعة ابن حنبل والشريعة الجعفرية، وهكذا. وهذا أمر يبدد الإسلام ولايجمّعه ويفرق الشريعة ولايوحدها، ويجعل من آراء الناس شرعًا، كأحكام الله سواء بسواء.

والخلط بين الشريعة والفقه هو الذى أدى بالدكتور السنهورى أن يستلزم لاحياء الشريعة الإسلامية (يقصد تجديد الفقه الإسلامى) شرطين؛ وهذان الشرطان لايجعلان منها فقها إسلاميا فحسب، بل وفقها عالميا دوليا كذلك. فهو يقول (فى مذكرته رقم ١٦٠ المنشورة فى هامش صفحة ٤٩ من الكتاب) :«وأزيد هنا أنه فى إحياء الشريعة الإسلامية لايجب الاقتصار على كونها شريعة صالحة لتطبيقها على المسلمين فى العصر الحاضر بل على غير المسلمين أيضا، وليس معنى هذا إرغام غير المسلمين على اتباع قواعد لاتقرها معتقداتهم وأديانهم المختلفة التى يجب احترامها احتراما تاما، بل معناه أن تكون حركة إحياء الشريعة مبنية على أساس لايتناقض مع هذه المعتقدات الدينية. ولتحقيق ذلك يجب تقرير مبدأين (١) أن يعمل فى هذه الحركة الإصلاحية إلى جانب المسلمين غيرهم من الشرقيين غير المسلمين، القانونيين منهم والاجتماعيين (٢) أن يقرر بجلاء قاعدة لم تعط حتى الآن عناية كافية، وهى أن الشريعة الإسلامية تكملها الشرائع الأخرى، مالم تتناقض معها هذه الشرائع فتنسخ الجزء الذى تناقضت فيه معها. وفيما عدا ذلك فإنه يجب اعتبار هذه الشرائع قائمة كجزء من الشريعة الإسلامية. وبمقتضى هذه القاعدة يمكن قبول كثير من مبادئ الشرائع الأخرى الصالحة للتطبيق فى العصر الحاضر».

فالدكتور السنهورى يرى من ثم أن الشريعة (يقصد الفقه) ناقصة وأنه لايمكن تطبيقها إلا إذا تكاملت بجهود غير المسلمين وشرائع غير الإسلام. فإذا كان الأمر كذلك فكيف يكون من

خصائص الخلافة تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية إذا كانت هذه الأحكام ناقصة وتتكامل بغيرها، وتنتهى بهذا التكامل إلى أن تصبح فقها عالميا دوليا يسهم فيه الجميع وتصب فيه كل الشرائع، وليست شيئا متميزا بذاته!؟

أما عن وحدة العالم الإسلامى كإحدى خصائص الخلافة الإسلامية فإنه أمل عزيز لم يتحقق قط، وغالب الأمر أنه لن يتحقق فى المستقبل إلا من خلال وحدة عالمية للإنسانية جميعا.

د - ويقول الدكتور السنهورى «.. إن حكومة (الخليفة) لاتملك أية سلطة تشريعية فى الإسلام.. (وأن).. هذا المبدأ (استقلال التشريع عن الحكومة) يحد من سلطة الخلافة (الحكومة) فلا يستطيع الخليفة أن يكون حاكما مطلقا. وهذا من أهم خصائص نظام الحكم الإسلامى، لأن سلطته (الخليفة) مقصورة على المسائل التنفيذية والقضائية، وإن كانت اختصاصاته واسعة فى هاتين الناحيتين، إلا أنها لاتشمل حق التشريع ولا يستطيع الخليفة أن يتدخل فى نطاق التشريع.» (صفحة ٦١).

وهذا القول ظاهر المخالطة، ناء عن الواقع، بعيد عن الحقيقة. فالفقه غير التشريع، ولم يقل أحد أبدا، فى كل كتب القانون، أن الفقه بصفة عامة هو بذاته التشريع. فالتشريع سن للقوانين تقوم به هيئة تشريعية مستقلة أو يصدر عن السلطة التنفيذية (السلطان) بصورة أو أخرى. أما الفقه فهو شرح القوانين أو تفسير القواعد أو تنظير المسائل أو تقعيد الأمور أو استنباط الحلول أو تصور النتائج أو تعقب الآثار.. إلى غير ذلك. والعالم الإسلامى - فى مجمله - وحتى وقت قريب - لم يعرف نظام التشريع ولاوجود هيئة تشريعية مستقلة ولا وجود نظم قانونية محددة. لذلك كله فقد كان التشريع يصدر عن السلطة التنفيذية (الخليفة أو السلطان) فى صورة بدائية مرتجلة، هى أوامر أو مراسم أو تعليمات أو تفسيرات شفوية. وحتى إن كُتبت فإنها كانت تأخذ صورة إنشائية بحتة ولم تكن تصدر فى صيغ قانونية محددة.

وعلى سبيل المثال، فإن الخليفة الأول أبا بكر الصديق فرض ضريبة على جميع المسلمين فى عصره، هى الصدقة التى ينص القرآن على أنها حق للنبى وحده مقابل صلاته على معطى الصدقة **«خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم»** (سورة التوبة ٩:١٠٣). ومافعله أبو بكر هو - فى الفهم القانونى السديد والوصف العلمى الدقيق - تشريع بفرض ضريبة. والخليفة الثانى عمر بن الخطاب حدد عقوبة شرب الخمر - بعد مشاورة على بن أبى طالب - بجعلها ثمانين جلدة، وهى عقوبة لم ترد فى القرآن الكريم ولا فى السنة النبوية، وبذلك تكون تشريعا بفرض عقوبة. وعمر - كذلك - وقف حد السرقة فى عام المجاعة، ومنع سهم المؤلفة قلوبهم فى الصدقات. وهذا التصرف وذاك هو فى حقيقة الأمر تشريع عدّل عقوبة ولو لفترة، ونظم توزيع الصدقات بغير الصورة التى وردت فى القرآن. والخليفة الثالث عثمان بن عفان أعطى مروان بن الحكم (ابن عمه) الحق فى خمس غنائم

أفريقية، وهو تشريع بتخصيص مصدر المال العام إلى مصرف معين بذاته. والخلفاء الأمويون فرضوا الجزية على المسلمين من غير العرب، حتى ضجّ المسلمون من ذلك فأسقطها عمر بن عبد العزيز، وقال إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) أرسل هاديا ولم يُرسل جابيا، وفرض الجزية على المسلمين - فى واقع الأمر - تشريع بفرض ضريبة لم ترد فى القرآن وإلغاؤها تشريع آخر... وهكذا لاتقف الأمثلة ولاتنتهى.

والفقهاء - الذين يُظن أنهم كانوا يشرّعون - كانوا فى الحقيقة يُفسرون أو يشرحون أو يستنبطون ليس إلا، وكانوا - فيما يفعلون - يضعون أعينهم فى كل قول أو همس أو صمت على الخلافة الجائرة، فلا يصدر عنهم إلا مايوافق عليه الخليفة وما يرتضيه السلطان ومالك بن أنس (المتوفى سنة ٧٩٥م) كان قد أفتى بعدم جواز طلاق المكره ففهم والى المدينة من الفتوى أن مالك يقصد بها عدم صحة بيعة المكرَه (للخليفة) فضربه ضربا مبرحا. وأبو حنيفة النعمان (٦٩٩ - ٧٦٧م) ضُرب بشدة لما اعتذر عن ولاية القضاء، لما استنتجه الوالى من أنه بذلك لايريد التعاون مع السلطة. وأحمد بن حنبل (٧٨٠ - ٨٥٥م) عُذّب عذابا نُكْرا لأنه أبى أن يعتنق رأى الخليفة المعتزلى بأن القرآن مخلوق وليس أزليا. والماوردى (المتوفى سنة ٥٤٠هـ) صاحب «الأحكام السلطانية» الذى يعتمد عليه الدكتور السنهورى فى كتابه كان قد أوصى بعدم نشر كتاب الأحكام هذا حتى وفاته، وبالفعل نشر الكتاب بعد وفاته مع أنه لايتضمن مايَشُق على الخلافة أو الولاية أو السلطان، لكنه الخوف الشديد والرعب القاتل الذى يخرس الألسنة ويقصف الأقلام...!

وإذا كانت هذه هى الحال مع أئمة الفقه عندما يُبدون رأيا أو يمتنعون عن إبداء رأى أو يتخذون موقفا سلبيا يُؤول على معنى معين فهل يمكن أن يكون هؤلاء أو غيرهم مشرعين!؟ وإذا كان ماحدث لهم قد حدث وهم يتكلمون فى مسائل «القانون الخاص» فكيف كانت تكون الحال معهم ومع غيرهم إذا كانوا قد اجترءوا وخاضوا أو حتى تعرضوا لمسائل «القانون العام» أى موضوعات السلطة والخلافة وعلاقتها بالدين أو الشريعة أو المسلمين. إن الدكتور السنهورى نفسه يقرر «أن مسائل القانون العام لم تحظ من الفقهاء المسلمين.. بنفس العناية التى بذلوها لمسائل «القانون الخاص» (صفحة ٥٩)، وأن «القواعد المنظمة لحريات الأفراد وحقوقهم العامة.. تناولتها كتب الفقه الإسلامى بطريقة استطرادية دون أن تضع لها نظريات عامة تناسب أهميتها العملية. ودراستها تحتاج إلى بحوث ومؤلفات خاصة تدخل فى نطاق دراسة سلطة التشريع» (صفحة ٦٠). فإذا كانت سلطة التشريع - على فرض وجودها - فى عهود الخلافة المعيبة، وطوال التاريخ الإسلامى، لم تمارس أوجب واجباتها وأول حقوقها فى وضع القواعد المنظمة لحريات الأفراد وحقوقهم العامة، فما الذى فعلته إذن!؟ وهل يمكن أن يقال إن هذه السلطة كانت مستقلة عن الخلافة، بينما هى لم تقم أصلا، ولم تُنَظِّم فعلا!؟

هـ - ويقول الدكتور السنهورى «وقد أدى ذلك بالبعض إلى القول بأن الحكومة (الخلافة) الإسلامية هى حكومة (العلماء)» (صفحة ٦٨). ومع خطورة هذا الرأى فإن الدكتور السنهورى نسبه للبعض ولم يذكر رأيه فيه. فكان بعرضه للرأى وعدم تفنيده أو إبداء الرأى فيه قد وافق عليه ولو ضمنا. وهذا الرأى هو رأى الشيعة وتيار الإسلام السياسى وليس رأى أهل السنة، وهم أهل الجماعة، فالقول به من ثم ينتهى إلى تبنى المذهب الشيعى فى «ولاية الفقيه» التى تتأدى فى أن الحكومة فى الإسلام هى حكومة الفقهاء (فى علوم الفقه الإسلامى)، أو أنه يمهد ويوطئ للإسلام السياسى بقصر الحكومة على أئمته بدعوى أنهم هم الفقهاء حقا والعلماء صدقا، وأنهم أهل الحل والعقد، لهم وحدهم حق الحكم دون غيرهم من المسلمين.

و - ومع أن الكتاب، والبحث، والرسالة، هى عن الخلافة الإسلامية فقد خلت من تعريف علمى لها، وبذلك تركت الموضوع بلا تحديد، والدراسة بلا تعريف، والسياسة بلا عنوان، والخلافة بغير بيان. وفى الإشارة إلى تعريف أورد الدكتور السنهورى تعريفا للتفتازانى (وهو من غير فقهاء الدرجة الأولى) بأنها «رئاسة عامة فى أمر الدين والدنيا، خلافة عن النبى (صلى الله عليه وسلم)» (صفحة ٨٣)، كما أشار إلى رأى التفتازانى - كذلك - فى كتابه «تقريب المرام - شرح تهذيب الكلام» أن الخليفة يمثل الله ويمثل الأمة فى نفس الوقت (صفحة ٧٢ هامش ٣). ونظرا لأن الدكتور السنهورى لم يذكر تعريفه هو للخلافة ولا أبدى الرأى فى تعريفى التفتازانى، بل إنه كررهما وألح عليهما، فإن مفاد ذلك أنه وإن لم يتبناهما فإنه لايستنكرهما. وهذان التعريفان خاطئان، وهما يكرسان فكرة «خلافة الله» أو الحق الالهى المقدس للملوك والخلفاء. وأبو بكر الصديق نفسه - أول خليفة فى الخلافة الكاملة (على رأى الدكتور السنهورى) - أنكر أنه خليفة النبى، وقال إنما هو خالفته أو خالفه (أى من تلاه فى الزمن) ولست خليفته (أى الذى له حقوقه وعليه التزاماته)، هذا فضلا عن أنه لم يبدر عن أحد من الخلفاء الراشدين مايفيد أنه يمثل الله أبدا، فيما عدا قولة لعثمان بن عفان عندما أرادوا خلعه من الخلافة قال فيها إنه «خليفة الله»، وهو تعبير قصد به إلى المجاز ولم يرم إلى الحقيقة، وقد فهمه الناس فى وقته على المعنى المجازى الذى يفيد نسبة كل شئ إلى الله، كأن يقال «أرض الله» و «مال الله» و «بيت الله».. وهكذا، دون أن يفيد معنى الحق الإلهى المقدس فى الحكم.

ز - ومما يثير الاستغراب ويدعو إلى الدهشة فى رسالة الدكتور السنهورى عن الخلافة أنه كتبها فى العام التالى لصدور كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، وأصر عليها رغم محاولة أستاذه الفرنسى الدكتور لامبير إثناءه عنها ومقاومته له واعتراضه عليها (صفحة ٣٩ من الترجمة). وبعد ذلك قام الدكتور السنهورى بعرض آراء الشيخ على عبد الرازق والرد عليها

بإسهاب فى متن الكتاب وصلب الرسالة، لا فى الهامش (صفحة ٩٦-١٠٨)، مع أن القواعد العلمية والأعراف الجامعية لاتذهب إلى عرض أفكار كتاب عادى ومعاصر، إلاّ أن تكون الأفكار ذات خطر استثنائى. وهى لاتجيز إلا عرض الأفكار المستقرة والإشارة إلى الكتب الكلاسيكية (التقليدية). وهذا التصرف يعزز فكرة أن الرسالة ذاتها لم تُكتب وتُقدم إلا بقصد الرد على كتاب «الإسلام وأصول الحكم»؛ وبهدف الحصول من جامعة أجنبية، وخلال رسالة علمية، على آراء تقوض آراء الشيخ على عبد الرازق، وتعزز موقف القصر الملكى فى الدعوة إلى الخلافة الإسلامية بحسبانها نظاما دينيا لابد من إقامته ولامفر من إعادته.

وربما لهذه الأسباب وتلك المعانى، أدرك الدكتور السنهورى أن الرسالة كتاب للمناسبة أكثر منها دراسة للتاريخ، ولهذا فقد عزف عن ترجمتها أو عن دعوة غيره إلى ترجمتها - وهو أمر أكثر غرابة - وكفأ على الرسالة سترا من الصمت وغطاها بسدائل من النسيان، أو لعله أدرك أنها من خطرات الشباب وحماس العواطف الذى يتجاوز المقررات العلمية والحقائق التاريخية ليسبح فى الخيال أو يسرح فى الأوهام؛ وخاصة أن مستواه العلمى - بعد ذلك - فاق أسلوب وفكر الرسالة بكثير، وجعلها بالنسبة لأعماله التالية مجرد محاولة فى الفكر السياسى لم تُستكمل ولم تستدم.

وقد ظلت الحال على ما أراده الدكتور السنهورى، غطاء على الرسالة وسدائل على الكتاب، حتى نُشرت لها ترجمة حديثة قصدت أن تجعل منها عملا سياسيا يرتبط بتيار الإسلام السياسى، ويمهد لفقه الإرهاب القادم.

الترجمة والإسلام السياسى

أ - لكى ترتبط الترجمة بنشاط الإسلام السياسى وتنظّر له أهدافه ثم تبرر أعمال العنف والإرهاب، فقد عمدت إلى عدم ترجمة الجزء الثانى من الرسالة الذى عرض لتاريخ الخلافة، بدعوى أن العرب والمسلمين لديهم من المصادر فى هذا الشأن مايُغنى (صفحة ٩). وإغفال جزء كامل من الرسالة تدخّل من الترجمة غير مُبَرَّرٌ فى أعمال المؤلف وفكره، وجزم بأنه متقطّع غير متكامل، فضلا عما فيه من معنى حجب بعض أفكار المؤلف عن القارئ وانتخاب مايراد له قراءته. ولا يُرد على ذلك بوجود مصادر أخرى فى هذا الشأن؛ ذلك أن الكتاب المترجّم كل متكامل، وهو رسالة لنيل الدكتوراه، وقد لاتفهم أغراض وأهداف المؤلف تماما مالم تُنشر وتقرأ متكاملة. هذا بالإضافة إلى أنه من غير المعقول أن يكون جزء كامل من رسالة جامعية مجرد نقول من كتب أخرى فلا يتضمن رأيا للمؤلف ولو كان عابرا، أو تعليقا له وإن كان هامشيا. ولربما كان لهذا التعليق أو ذاك الرأى أثر كبير على مفاهيم الرسالة ومضامين البحث، وأهداف وأعمال الإسلام السياسى ذاته.

ب - ولجأت الترجمة إلى تغيير جوهرى فى عمل الرسالة، إذ استبدلت لفظ «الحكومة» بلفظ «الخلافة» وبذلك جردت الرسالة حتى من عنوانها، فبينما يعنى المؤلف برسالته «الخلافة الإسلامية» فقد حولتها الترجمة إلى «الحكومة الإسلامية». وقيل فى ذلك إن الترجمة سوف تستعمل كلمة «الحكومة» مرادفة لكلمة «الخلافة» خلال الدراسة لأن رأى الترجمة أن «أحكام الخلافة نظرية عامة التطبيق على جميع نظم الحكم من وجهة النظر الإسلامية». (صفحة ٦٠ حاشية ٤). وهذا تحريف خطير في مفهوم الرسالة ومضمون البحث لم يقصد إليه المؤلف ولم يرم إليه الكتاب. فالخلافة غير الحكومة، وسحب نظام وشروط وخصائص الخلافة على نظام وشروط وخصائص الحكم أمر خطير جدا، لابد أن يُحدث اضطرابا شديدا، خاصة إذا كانت الرسالة تسلم بأن الخلافة الإسلامية التاريخية خلافة غير صحيحة وأن خلافة المستقبل هى عصبة أمم إسلامية. فكيف مع استحالة تحقيق شروط الخلافة ذاتها واقعيا أن تُقسر هذه الشروط على الحكومات... أليس هذا بذاته كافيا لبذر بذور شقاق وزرع ثمار فتنة لايعلم مداها إلا الله!؟

إن الخلافة رياسة عامة للدول الإسلامية فى حين أن الحكومة نظام إدارى لتسيير شئون الدولة، والتخليط بين هذه وتلك تشبيك بين مختلفين وتدخيل بين متغايرين. وإذا كانت الخلافة - فى تعريف التفتازانى الذى يعتنقه الدكتور السنهورى - هى رياسة عامة فى أمور الدين والدنيا، خلافة عن النبى (صلى الله عليه وسلم)؛ وأن الخليفة يمثل الله ويمثل الأمة فى نفس الوقت (وهما تعريفان لانوافق عليهما ولايوافق عليهما أغلب المسلمين)، إذا كان هذا هو أمر الخلافة، فكيف تصبح الحكومة كذلك خلافة عن النبى وتمثيلا للأمة، مع أن الحكومة هيئة معنوية والخلافة شخص طبيعى، والحكومة سلطة تنفيذية والخلافة رياسة عامة، والحكومة لدولة واحدة والخلافة لجميع المسلمين أو أغلبهم!؟

وهل يعنى ذلك أن يكون كل والٍ أو قاض أو حاكم - شأنه شأن الخليفة - ممثلا لله !؟ وماذا يحدث عند تعارض الإرادات أو اختلاف الأغراض؟ وهل مؤدى هذا أن تُطبق الشروط التى يلزم توافرها فى الخليفة على كل من يلى عملا فى الحكومة!؟ وعلى سبيل المثال فإن البعض يشترط أن يكون الخليفة قرشيا أخذا بحديث يقول «الأئمة من قريش»، فهل - مع التسوية بين الخلافة والحكومة - يُشترط أن يكون كل من يلى وظيفة حكومية قرشيا كذلك؟ أو حتى يثار البحث بهذا الشأن!؟ وهل يعنى هذا إهدار الآراء السديدة التى قال بها فقهاء مثل الماوردى (فى : الأحكام السلطانية) من أنه يجوز أن يُولَّى غير المسلم حكومة التنفيذ لاحكومة التفويض!؟ بحيث يُشترط الإسلام فيمن يلى أيا من هاتين الحكومتين!؟

ومما يناقض هذا الاتجاه - فى التسوية بين الخلافة والحكومة - أن الترجمة أشارت فى أكثر من موضع إلى أن الخلافة عند السنهورى ليست دولة ولا نظام حكم بل إنها مبدأ وحدة الأمة

(صفحة ١٧)، فكيف ينحل مبدأ وحدة الأمة إلى مجرد شروط - غير قابلة التحقق - للوزراء والمدراء، حتى ولو كانوا منفذين لشئ أو أمر لامفوضين بالتصرف!؟ وكيف يسوغ أن تكون شروط الرياسة العامة شروطا لأى موظف محلى أو أى عامل إدارى؟ وماهى الفوارق؟ وما دواعيها؟

جـ - وتربط الترجمة - فى أحيان كثيرة - تعليقات وهوامش بفكر المؤلف، بحيث يختلط الفكر مع بعضه فلا يستطيع القارئ تحديد هذا من ذاك، أو يتداخل مع المطّلع فلا يتفاصل كل منهما؛ وخاصة أن التحديد والفصل يكون عادة من عمل النقاد الذى لايطيقه القارئ العادى. ومن أمثلة ذلك ماورد فى صفحة ٤٧ (هامش٢) من أن الدكتور السنهورى أشار فى مواضع متفرقة من مذكراته إلى أن الشريعة الإسلامية تعتبر الأقليات الدينية (أهل الذمة) مواطنين للدولة الإسلامية طالما أنهم يلتزمون تطبيق الشريعة والولاء للدولة الإسلامية.. ثم أضيف فى الصفحة التالية... إن القانون الإسلامى (بالمعنى العصرى) الذى يشمل أحكام المعاملات والنظم الجنائية والسياسية.. أحكام دنيوية تسرى على جميع مواطنى الدولة الإسلامية، وقد أورد تعليق الترجمة تدليلا على ذلك ماورد فى مذكرة الدكتور السنهورى رقم ١١٦ (من مذكراته) : أن اصطلاح الأمة (الجماعة) الإسلامية لايعنى مجتمعا من المسلمين فقط، بل يقصد مجتمعا ساهم فيه جميع الطوائف الدينية التى عاشت وعملت معا جنبا إلى جنب تحت راية الإسلام، وقدمت بذلك تراثا مشتركا لجميع سكان الشرق الإسلامى. ثم ماورد فى مذكرته رقم ١١٨ من أنه لايرى مايمنع من التوسع فى معنى «المدنية الإسلامية» على النحو الذى يجعل منها ميراثا للمسلمين والمسيحيين واليهود المقيمين فى الشرق، ذلك أنهم تضافروا على إيجاد هذه المدنية. ثم ماورد فى مذكرته رقم ١٦٠ من أنه فى الشريعة الإسلامية نفسها من الممكن أن يرى الباحث فى التعاليم الإسلامية تعاليم دينية وإلى جانبها أساسا لإنشاء مدنية دنيوية صلتها بالدين كصلة المدنية الغربية بعلم الأخلاق أو بالدين المسيحى فى الأمم المتدينة!!!

وواضح من نصوص الدكتور السنهورى نفسه أنه يتحدث عن حضارة ومدنية ومجتمع الشرق الإسلامى، وكيف أنّ هذه جميعا نشأت بتضافر قوى المسلمين والمسيحيين واليهود، كما أنه يشير إلى وجود أساس فى الشريعة الإسلامية لإنشاء مدنية دنيوية صلتها بالدين كصلة المدنية الغربية بالدين المسيحى؛ لكنه لم يذكر فى أى نص مما أوردته الترجمة ماجاء فى التعليق من تطبيق الشريعة الإسلامية على جميع المواطنين، مسلمين وغير مسلمين، بما فى ذلك أحكام المعاملات (وهى فقه لاشريعة) والنظم الجنائية (وماعدا حدود أربعة والقصاص، كله فقه) والسياسة (وهى نظم اجتماعية وفقهية لم ترد فى القرآن أو السنة، ويختلف الفقهاء بشأنها اختلافا كبيرا؛ بل ويقول الدكتور السنهورى إنها لم توجد بصورة منظمة فى الفقه

الإسلامى). ومفاد ذلك أن تداخل التعليقات مع نصوص المؤلف قصد ليّ معانيه وطى أغراضه لتوافق أهداف وأعمال تيار الإسلام السياسى.

د - وفى «تقديم الكتاب» الذى كتبه .... «المراجع والمعلق والمقدم» يقول :«.. ومازال عدد كبير من كتابنا ومؤلفينا متأثرين... بقصد أو عن غير قصد... (بما).. روّجه أعداؤها (الخلافة) من اتهامات تغذيها أحقاد تاريخية عنصرية موروثة لا مجال لها فى الحاضر والمستقبل... (ثم يضيف) ... يمكن القول.. (بـ).. انقسام الكتّاب والباحثين إلى تيارين :-

التيار الأول يمثله الإسلاميون الذى مازالوا يعتبرون «الخلافة» رمزا لتاريخنا الإسلامى.. رغم مايكون قد شاب نظم الحكم.. من عيوب أو نقائص..

أما التيار الثانى فهو تيار واقعى يرى أن الاتجاه الوطنى أو القومى يتعارض مع فكرة الخلافة .. وينتسب لهذا الاتجاه الواقعى دعاة «التغريب» أى الاندماج فى الحضارة الأوروبية بخيرها وشرها.. وبذلك يسعى هؤلاء الاندماجيون لإقناع شعوبهم بأن تذوب وتندمج فى المجتمعات الاستعمارية...»

وهذا الذى يذكره ضرب من التعميم ونوع من التقسيم، ماكان ينبغى أن يُذكر فى رسالة علمية؛ هذا فضلا عن أنه يناقض عمل الرسالة وهدف البحث.

فالتلويح بأن الذى يأبى نظام الخلافة التاريخى، ويقيمه تقييما صحيحا، متأثر بما روجه أعداء الخلافة قول فيه كثير من التجنى، حتى على الدكتور السنهورى نفسه الذى ذكر نقائص الخلافة ودعا إلى إنشاء خلافة من نوع آخر غير الخلافة التاريخية- خاصة وقد أدرك استحالة إيجاد الخلافة الكاملة - سماها عصبة أمم شرقية، أو لعلها هى المؤتمر الإسلامى الموجود حالا. فمطاعن التقديم الذى كتبه الدكتور الشاوى توجه إلى الدكتور السنهورى ذاته، وخاصة أنه قدم بحثه إلى جامعة فرنسية (استعمارية !!!؟) هى من صميم الحضارة الأوروبية!!!

وفرز المجتمع، والكتاب، إلى إسلاميين ومسلمين عمل حزبى ينتهجه تيار الإسلام السياسى لصدع المجتمع وحرب الناس، وكان الأفضل أن يترفع عنه كتاب علمى.

أما إطلاق وصف «الواقعيين» على الذين يرفضون عودة الخلافة الإسلامية بصورتها القاصرة والفاسدة، والتى أصبحت تراثا فى التاريخ الإسلامى يصعب تغييره، ثم وصمهم بأنهم اندماجيون فى الحضارة الأوروبية، فهو ربط فاسد وخلط غير صحيح. فليس كل من يرفض الخلافة التاريخية مندمجا فى الحضارة الأوروبية. والواقعى (العملى) يقابله النظرى الخيالى. وإذا كان الواقعيون - والدكتور السنهورى منهم - يرون أن حركة التاريخ مما يستحيل معها عودة نظام الخلافة التاريخى، فإن أنصار الإسلام السياسى يتعلقون بالنظريات ويتخلقون بالشعارات ويتمزقون فى الخيالات. وهم بذلك يُصبحون سلبيين منفعلين لا إيجابيين فاعلين، ومن ثم يندمجون ماديا وعفويا فى الحضارة الغربية التى تأسرهم وتشل قواهم، فى حين أن

الواقعيين العمليين إيجابيون فاعلون، ومن ثم أصبحوا - ولابد أن يكونوا - أكثر قدرة على التداخل فى هذه الحضارة والتأثير فيها وإضافة عناصر دينية وإنسانية خلاقة، تجعل منها حضارة إيمانية إنسانية، تقوم على محض الإيمان وتعنى بصميم الإنسان.

وعلى ماسلف القول فإن الدكتور السنهورى ذاته كتب رسالته فى أحضان الغرب ونال درجته العلمية عنها من محافل غربية أوروبية (استعمارية!!!)، وقد انتهى فيها إلى أن يُستبدل بنظام الخلافة التاريخى الفاسد نظام آخر هو عصبة الأمم الشرقية أو ما يسمى حالا بالمؤتمر الإسلامى؛ وبذلك تكون الرسالة أبلغ رد على التقديم، كما تكون - من جانب آخر - قد استنفدت أغراضها، وأصبح كل لىٍّ لها عملا غير سليم، وكل طىٍّ لأغراضها وضعا غير سديد، يدعو إلى إشعال الفتنة لاغير ويعمل على إشاعة الاضطراب فحسب!

يؤيد ذلك النظر أن المعلق يقول (صفحة ٢٢-٢٣) : إن دفاع السنهورى عن الخلافة... استعرض أهم المبادئ التى يرى أن فقه الخلافة يقوم عليها وأن شعوبنا فى أشد الحاجة لإعمالها والاستفادة منها - حتى فى نطاق نظم الحكم الوطنية - ويكفى أن نذكر منها.. فقدان الخليفة للحرية الذى يقرر الفقهاء أنه يترتب عليه سقوط الولاية تلقائيا يتحقق فى حالة خضوع الحاكم المسلم للنفوذ الاستعمارى أو السيطرة الأجنبية أيا كانت الصيغة العصرية لها كالحماية أو الانتداب أو الوصاية أو الدخول فى منطقة نفوذ أجنبية.

وإذا كان كتاب فقه الخلافة للدكتور السنهورى قد انتهى إلى أن تتخذ الخلافة فى العصر الحالى شكلا آخر هو عصبة أمم أو مؤتمر إسلامى، وقد قام بالفعل، فما هو المقصود بالحاكم الذى ينعزل ولو فى الحكومة الوطنية إذا مادخل فى منطقة نفوذ أجنبية!!؟ أليس ذلك بابا كبيرا للفتنة ومدخلا عظيما للاضطراب - أبعد فى كل جانب من فكر ابن تيمية الإرهابى دستور الجماعات المتطرفة - يسمح لكل فرد أن يتهم أى حاكم بأنه دخل - مجرد دخول - فى منطقة نفوذ أجنبية، دون أن يحدد هذا الدخول، مع أن كل دول العالم الآن متداخلة سياسيا واقتصاديا وثقافيا وإعلاميا؛ وبغير أن يبين المقصود بالنفوذ الأجنبى، وكل سفارة أو مقابلة لأجنبى قد تؤول على معنى النفوذ!! ثم يقرر أن الحاكم انعزل، فيخرج عليه الشعب وتعم الفتنة وينتشر الاضطراب وتقوم الحرب الأعظم فى كل بلاد العالم الإسلامى؟ ولمصلحة من يلوى عنق أفكار الدكتور السنهورى عن خلافة بائدة وتُنكر آراؤه عن خلافة المستقبل (التى قررت ابنته فى مقدمتها للترجمة أنها هى المؤتمر الإسلامى)، لينتهى الأمر بالتحريض على كل الحكام فى كل العالم الإسلامى، وتقويض كل الحكومات فى كل جنباته، والدعوة إلى الفوضوية والحروب الأهلية!!؟

ثم ماذا!!؟

إن هذا الفكر لم يقدم فقه الخلافة، لكنه قدم فقه الإرهاب القادم للحقبة الآتية. وإلى ذلك نلفت نظر عقلاء المسلمين.

كتب أخرى للمؤلف

(١) باللغة العربية :

١- رسالة الوجود.
٢- تاريخ الوجودية فى الفكر البشرى.
٣- ضمير العصر.
٤- حصاد العقل.
٥- أصول الشريعة.
٦- جوهر الإسلام.
٧- روح العدالة.
٨- الإسلام السياسى.
٩- الربا والفائدة فى الإسلام.
١٠- الشريعة الإسلامية والقانون المصرى
١١- معالم الإسلام.

(٢) باللغة الإنجليزية :

1- Development of Religion.
2- Roots of Islamic Law.
3- Islam and Religion.
4- Militant Doctrine In Islam.

(٣) باللغة الفرنسية : L'islamisme Contre L' islam

وهو ترجمة لكتاب الإسلام السياسى.

كتب تحت الطبع :

١- حياة الإنسان. (صدر فى طبعة خاصة)
٢- جوامع الفكر.
٣- Religion For the Future : روح الدين.

ملحوظة : المراسلات إلى المؤلف تكون على :
صندوق بريد ١٧٥ الجزيرة.

بيان موضوعات الكتاب

صدر عن دار سينا للنشر

(١) اغتيال رئيس
عادل حمودة
(٢) قنابل ومصاحف
عادل حمودة
(٣) ديوان الاراجوز
فؤاد حداد
(٤) سليمان خاطر
عادل حمودة - خالد يوسف
(٥) سيد قطب
عادل حمودة
(٦) عثمان اللغز والاسطورة
طلعت رميح
(٧) الهجرة إلى العنف
عادل حمودة
(٨) الإسلام السياسى
المستشارمحمد سعيد العشماوى
(٩) حرب أكتوبر (العبور والثغرة)
ادجار اوبلانس - ترجمة سامى الرزاز
(١٠) الربا والفائدة فى الإسلام
المستشار محمد سعيد العشماوى
(١١) اوراق هنرى كورييل
والحركة الشيوعية المصرية
دراسة د. رؤوف عباس -
ترجمة عزة رياض
(١٢) مواسم العشق
رفـــدة
(١٣) وصف مصر بالعبرى
(تفاصيل الاختراق الإسرائيلى للعقل المصرى)
د. رفعت سيد أحمد
(١٤) خلف الحجاب
(موقف الجماعات الإسلامية من قضية المرأة)
سناء المصرى
(١٥) الاختراق
(قضية شركات توظيف الأموال)
عبد القادر شهيب
(١٦) خطة اغتيال ياسر عرفات
مصطفى بكرى
(١٧) المسحراتى
فؤاد حداد
(١٨) معالم الإسلام
المستشار محمد سعيد العشماوى

(١٩) الخلافة الإسلامية
المستشارمحمد سعيد العشماوى
(٢٠) الحزب الهاشمى وتأسيس
الدوله الإسلامية
د. سيد القيمنى
(٢١) الجيش والديمقراطية فى مصر
د. أحمد عبد الله
(٢٢) الاحتجاج الدينى والصراع
الطبقى فى مصر
د. رفيق حبيب
(٢٣) الحركات الإسلامية
فى مصر وإيران
د. رفعت سيد أحمد
(٢٤) الدين والاقتصاد
د. مراد وهبة
(٢٥) استعمار مصر
تيموثى ميتشل -
ترجمة بشير السباعى - أحمد حسان
(٢٦) الهيريستروريكا
ترجمة بشير السباعى
(٢٧) تهويد عقل مصر
عرفة عبده على
(٢٨) الطب الرياضى وأصابات الملاعب
د. عبد العظيم العوادلى
(٢٩) حوارات حول الشريعة
أحمد جودة
(٣٠) الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية
خليل عبد الكريم
(٣١) الحركة الشيوعية المصرية
مصطفى طيبة
(٣٢) الهدف الشرق الأوسط
بوب وود وارد - ترجمة سامى الرزاز
(٣٣) النبى ابراهيم والتاريخ المجهول
د. سيد القيمنى
(٣٤) الأرهاب الدولى الأسطورة والواقع
ناهوم شومسكى - ترجمة لبنى صبرى
(٣٥) الخروج الغربة وعصر الأنفتاح
د. فتحى عبد الفتاح
(٣٦) حماس حركة المقاومة الإسلامية
فى فلسطين
عبد القادر ياسين

(٣٧) المسألة الطائفية ومشكلة الاقليات
د. برهان غليون
(٣٨) ضباط الجيش فى السياسة
والمجتمع العربى
اليعازر بعيرى - ترجمة بدر الرفاعى
(٣٩) الانتخابات البرلمانية فى مصر
د. أحمد عبد الله
(٤٠) نيتشه عدو المسيح
د. يسرى إبراهيم
(٤١) يوميات موسكو
مصطفى الحسينى
(٤٢) الصراع على الكويت
رضـا هـــلال
(٤٣) الجغرافيا السياسية للنفط
تقرير للكونجرس الأمريكى
ترجمة على فهمى
(٤٤) العلاقات السعودية الأمريكية
بنسون لى جريسون - ترجمة سعد هجرس
(٤٥) أمريكا تغزو الخليج
تقرير للكونجرس الأمريكى
ترجمة وجيه راضى
(٤٦) صناعة القهر
د. طلعت عبد الحميد
(٤٧) حـــرب أكـــتوبر
والمفاجأة الاستراتيجية
عبد القادر ياسين
(٤٨) يوميات أرباب السيوف والأقلام
كمال النجمى
(٤٩) الطلبة والسياسة
د. أحمد عبد الله
(٥٠) حياة المرأة وصحتها
د. نادية فرح
(٥١) ملاحظات!
محيى اللباد
(٥٢) العـــربة الذهـــبية
لاتصعد إلى السمـاء
رواية سلوى بكر
كتاب سينا السياسى
(٥٣) المرأة الجديدة
قاسم أمين - زينب الخضيرى
(٥٤) الإسلام دين العلم والمدنية
الامام محمد عبده - د. عاطف العراقى

صــدر حــديثــا

(١) أمريكا والسعودية (تكامل الحاضر .. تنافر المستقبل)
تأليف/ ريتشارد بريس - ترجمة / سعد هجرس
(٢) المملكة السعودية وظلال القدس
تأليف / حسن أبو طالب
(٣) الامام الشافعى وتأسيس الأيديولوچية الوسطية
تأليف/ د. نصر حامد أبو زيد
(٤) أصول الشريعة
تأليف/ المستشار محمد سعيد العشماوى
(٥)فتح أمريكا
تأليف/ تزفيتان تودوروف - ترجمة/ بشير السباعى
(٦) التنمية البشرية فى الوطن العربى
تأليف/ د. حامد عمار
(٧) حافظ والمازنى (أوراق لم تنشر ١٩١٥- ١٩٤٨)
تأليف/ د. مدحت الجيار
(٨) الأسطورة والتراث
تأليف/ د. سيد القمنى
(٩) عجين الفلاحة
تأليف/ سلوى بكر

❑❑❑

سلسلة عرب وإسرائيليون
(١٠) المؤسسة العسكرية الإسرائيلية
تأليف / نادية رفعت - عمرو حمودة
(١١) المسـرح بـين العـرب وإسـرائيل (١٩٦٧ - ١٩٧٣)
تأليف/ د. سامح مهران

يصـــدر قـريبـــا

(١) الكتاب والقرآن

تأليف/ د. محمد شحرور

(٢) التاريخ السرى للبنك الدولى

تأليف/ زكى العيدى - تقديم/ د. رمزى زكى

(٣) الصراع الفكرى والاجتماعى حول عجز الموازنة العامة فى العالم الثالث

تأليف/ د. رمزى زكى

(٤) إحصائيات التنمية البشرية فى الوطن العربى

تأليف/ د. حامد عمار

(٥) السياسة الخارجية المصرية من تأميم القناة حتى كامب ديفيد

تأليف/ عمر عز الرجال

(٦) لعبة البترو دولار

تأليف/ رضا هلال

(٧) سوسيولوچيا الفكر الإسلامى (الجزء الثالث)

تأليف/ د. محمود إسماعيل

(٨) قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية

تأليف/ خليل عبد الكريم

❑❑❑

سلسلة إسرائيليون وعرب

(٩) دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى

تأليف/ ج . بائير - ترجمة/ د. عبد الخالق لاشين

(١٠) الحروب الإسرائيلية - العربية

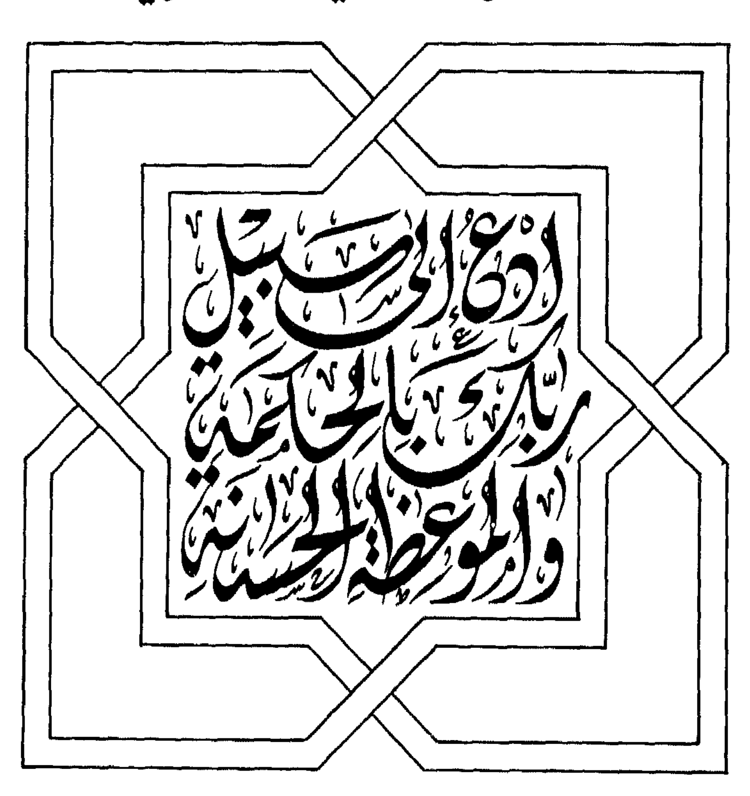
(الحرب والسلام فى الشرق الأوسط ١٩٤٨ - ١٩٨٢)

تأليف/ حاييم هرزوج - ترجمة / بدر الرفاعى

سينا للنشر

الإسلام السياسي

المستشار محمد سعيد العشماوي



رقم الإيداع

١٩٩٠ /١٩٤٥

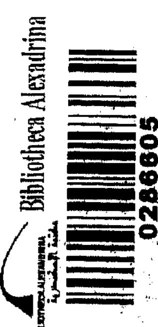
عربية للطباعة والنشر
١٠٠٧ شارع السلام ــ أرض اللواء المهندسين
ت: ٣٤١٩٠٩٨



الخلافة الإسلامية

بحث مبتدأ في أصول، وتاريخ، وفقه الخلافة الإسلامية.

يعرض الأصول العامة لهذه الخلافة من واقع حقيقتها، ثم يبين التاريخ السابق على إنشاء الخلافة، والمؤثر في الخلافة ذاتها، ثم يقدم تاريخ الخلافة منذ نشأتها حتى إلغائها، فترة بعد فترة، ومرحلة إثر مرحلة، وينتهي إلى فقه الخلافة ليجادل في أن للخلافة فقه، ثم يفند الفقه الذي طرحه البعض، والفقه الذي يطرحه الإسلام السياسي لمعتقد له وخطوط لعمله.





سينا للنشر